

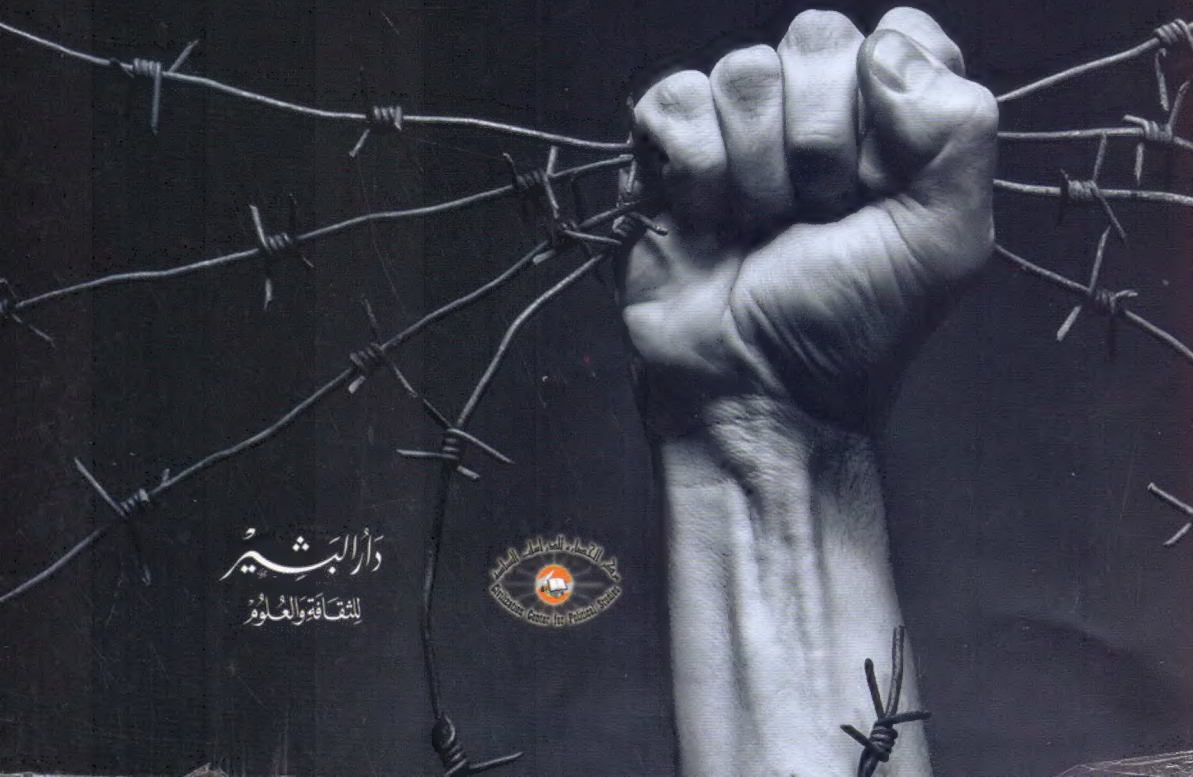
عايدة العزب موسى

سلسلة الوعي الحضاري (١١)

الربيع الأفريقي

— الغزو والمقاومة —

دار البشير
للثقافة والعلوم



ان الغزوات اللوروية الاولى لافريقيا والتي امتدت اربعة قرون ابتدعت شكلا اخر من العبودية وذلك بعد الغاء الرق عام ١٨٠٧ و هو استعباد الارض بمن عليها فكان الهدف العام هو سرقة الافريقين من افريقيا واليوم صارت اوروبا مصممة على سرقة افريقيا من الافريقين .

قرن
الرعب الأفريقي
-الغزو والمقاومة-

اسم الكتاب: قرن العرب الأفريقي
التأليف: عايدة العزب موسى
موضوع الكتاب: سياسة
عدد الصفحات: 208
عدد الملزم: 13
مقاس الكتاب: 17 × 24
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
الإيداع القانوني: 17650 / 2014
الترقيم الدولي: I.S.B.N.978/977/278/454/7

الصف التصويري: الندي للبحر الفنية
جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق
الطبع ، والتصوير، والنقل، والترجمة،
والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي ،
وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من :

التوزيع والنشر
دار البشير للنقابة والمؤلفين
مصر

darelbasheer@hotmail.com
darelbasheeralla@gmail.com
ت : 01152806533 - 01012355714

- (02) 37498745 - (02) 37498718

01115700570

www.ccps-egypt.com

cenciv@yahoo.com



1435 هـ
2014 م



سلسلة الوعي الحضاري (11)

قرن الرعب الأفريقي

- الغزو والمقاومة -

عايدة العزب موسى

دار البنتير
للثقافة والمعلوم



الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم.....	٧.....
الجزء الأول: غزو القارة.....	١١.....
تمهيد:.....	١٣.....
الفصل الأول: الاندفاع نحو القارة.....	١٩.....
الفصل الثاني: مؤتمر برلين.....	٣٧.....
الفصل الثالث: إقسام الفطيرة الأفريقية.....	٦١.....
الخلاصة: خريطة أفريقيا الاستعمارية.....	٨٧.....
الجزء الثاني: المقاومة الافريقية ضد الغزو.....	٩٥.....
تمهيد:.....	٩٧.....
الخلفية التاريخية لإفريقيا الغربية.....	١٠٥.....
الفصل الأول:.....	١١٣.....
أولاً: السودان الغربي.....	١١٥.....
ثانياً: السودان الأوسط.....	١٢٣.....
الفصل الثاني: المقاومة في السودان الغربي والأوسط.....	١٣١.....
الفصل الثالث:.....	١٤٩.....
أولاً: السودان الشرقي - سودان وادي النيل.....	١٤٩.....
ثانياً: المقاومة الوطنية والثورة المهدية.....

١٧٣ الفصل الرابع:
١٧٥ أولا: دول الساحل والممالك الزنجية.
١٧٩ ثانيا: مقاومة الممالك الزنجية الساحلية في القرن ١٩
١٨٩ الجزء الثالث حصاد المقاومة في عموم أفريقيا
١٩٠ أولا: المقاومة الافريقية في شرق أفريقيا.
١٩٦ ثانيا: المقاومة الافريقية في وسط القارة وجنوبها.
٢٠٠ ثالثا: ردود الفعل الافريقي للغزو واسباب فشلها.
٢٠٣ رابعا: كلمة أخيره.

تقديم

عندما بدأت أصبو نحو المعرفة بالقارة الإفريقية تجسدت لدى رغبة و تمنيت أن أساهم في كتابة تاريخ القارة بعيون إفريقية، وقد تحقق لي هذا الأمل المنشود بهذا الكتاب الثالث عن تاريخ إفريقيا «غزو القارة ومقاومة شعوبها». سبقه كتابان الأول «العبودية في إفريقيا» والثاني «تجارة العبيد في إفريقيا»، وبهذه الثلاثية أرجو أن أكون قد سددت شيئاً لقارتنا المظلومة.

لا أدعى أنى جئت بجديد أو بحدث مغاير لما هو مسجل ، فقد حصلت على المعلومات من الكتابات الغربية بأقلام الرحالة والسياسيين والمفكرين الأوروبيين فهذا هو المتاحة، إذ أن التاريخ الإفريقى لم يكتب بعد بأقلام إفريقية اللهم إلا القليل جداً. ولكن كان لى فيما قرأته وحصلت عليه من معرفة نظرة مغايرة ومفاهيم مختلفة للحدث.. ان الحدث هو الحدث ولكن فهمه وتفسيره يختلف من نظرة إلى أخرى ومن تحليل لآخر. على سبيل المثال أكذوبة أكل الأفارقة لحوم البشر الذى وصم به الافارقة يذكره المؤرخ مادهو بانيكار فى كتابه القيم «الوثنية والإسلام» ص ٢٢٩: كان لدى الإفريقيين استعداد للنظر إلى الأوروبيين على انهم مخلوقات جبارة؛ ذلك أن الزوج عندما رأوا الحملة المراكشية ظنوا أن سلطان مراكش يستخدم فى الحملة مخلوقات جبارة يمكن أن تدمر الزوج (يقصد بهم الاسبان الذين كانوا فى جيش السلطان) فالبشرة البيضاء كانت تعتبر فى بعض المناطق خاصة بأناضول نهضوا من القبور، وكذلك كان الزوج يرجعون سبب تجارة الرقيق لأن الأوروبيين مغرمون بأكل «اللحم الأسود». وقد استطاعت الكتابات الغربية المزيفة أن تقلب الأمور وتدعى أن الافارقة هم المغرمون بأكل لحوم البشر ، وللأسف روجت بعض الكتابات العربية لهذه الأكذوبة حتى أنه عندما سقط بوكاسا أول رئيس أفريقى لجمهورية إفريقية الوسطى بعد الاستقلال ظهر فى الصحف العربية من يذكر أن ثلاثة مقر الرئيس كانت مليئة بلحوم آدمية، هذا رغم أن القائد الفرنسى الذى قبض على بوكاسا نفى ذلك بشدة.

يفسر الكاتب النيجيرى ريمى كابو ذلك بقوله «عندما حدثت العبودية وجد نمط يعتبر الأسود جنسًا إفريقيًا أدنى ينظر إليه أنه أقل ذكاءً بينما الرجل الأبيض ينظر إليه باعتباره أسمى، ثم جاء علماء الاجتماع فى القرن ١٩ من امثال داروين يتحدثون عن عدم المساواة الذهنية للأسود وفرض هذا المفهوم مرة بعد أخرى، وعندما انتهى كل ذلك فى ستينيات القرن العشرين باستقلال القارة فإن الجماهير البيضاء لم تفتن ولا عرفت أن الشعب الأسود ليس أقل بشرية وليس قريبًا من القرد والحمقى وغير ذلك، ومن ثم فقد انتهت المعركة ويفترض أننا جميعًا متساوون ولكن لم يحدث شىء متعلقًا بهذه الفكرة الشيطانية».

إن الغزوات الأوروبية الأولى لإفريقيا بدأت فى القرن ١٥ عندما جاء البرتغاليون الذين أنشأوا شبكة من الحصون والمستودعات على الساحل الغربى، ودخلت إفريقيا عهد تجارة الرق التى امتدت أربعة قرون. وبعد إلغاء الرق عام ١٨٠٧ ابتدعت الثورة الصناعية التى ظهرت حاجتها إلى المواد الأولية والأسواق لتصريف منتجاتها، ابتدعت شكلاً آخر من العبودية وهو استعباد الأرض بمن عليها؛ أى أن يحتلوا أرض القارة وما فيها من بشر، ذكر المبشر الاسكتلندى التابع للكنيسة البروتستانتية فى أوغندا «الكسندر ماردوج ماكى» فى عام ١٨٨٩: «فى السنوات الماضية كان الهدف العام هو سرقة الإفريقيين من إفريقيا، واليوم صارت أوروبا مصممة على أن تسرق إفريقيا من الإفريقيين».

إن فى تاريخ الشعوب والأماكن أحداث ووقائع تُغير مجراها بل قد تحدد مسيرتها لمئات السنين، ولكن هذه الأحداث كثيرًا ما تتجاهل أو تذكر كشىء عابر عادى، هذا التجاهل غالبًا ما يأتى من صانعيها أو المستفيدين منها الذين جنوا ثمارها. ويعتبر مؤتمر برلين الذى انعقد فى القرن ١٩ (١٨٨٤ - ١٨٨٥) من الأمثلة الصارخة. هذا المؤتمر اللعين هو الذى فتح الباب على مصراعيه للمستعمرين الأوروبيين ليلتهموا قارة بأكملها يقسموها بينهم ويرسموا حدودها على الورق دون الالتفات لحقوق شعوبها وقبائلها، وكان هذا التقسيم من الجور مما حدى بأكبر المستعمرين لورد سالزبورى أن يقول عبارته الشهيرة «لقد أعطينا لبعضنا جبالًا وأنهارًا وبحيرات فى حين أننا لم نكن نعرف أين تقع هذه الأشياء بالضبط، ولم يثر أیه غرابة أو دهشة حين تبين فى بعض الأحيان أن جبالًا وأنهارًا وبحيرات لم تكن موجودة أصلًا».

لا أقول عن مؤتمر برلين أنه تجهل تمامًا أو لم يسجل فى كتب التاريخ ولكنه عومل كحدث عابر شأنه شأن الأحداث والمؤتمرات العديدة التى عقدت من أجل الشأن الإفريقى. حتى فى عام ١٩٨٤ الذى كان يوافق ذكرى مرور مائة سنة على انعقاد المؤتمر مر الحدث بلا أدنى اهتمام

لا من المستعمرين صانعيه المستفيدين منه ولا من الإفريقيين الذين عانوا وتعذبوا من نتائجه. المستعمرون اعتبروه شيئاً مشيناً من مصلحتهم أن يتناسوه ، والإفريقيون حاولوا تجاهله حتى لا يذكرهم بماض مهين مرير، ولا أدري ما الذى ينجلنا نحن الإفريقيين من ماضينا أو احتلالنا أو حتى استرقاقنا. إن تحرير العقل الإفريقى من عقدة عبوديته لا يعنى محو تاريخ الرق من الذاكرة، فمن الحكمة أن يتبنى الأفارقة تاريخهم بكل فخر واعتزاز ويخلدوا بطولاتهم فى المقاومة حتى ولو كانت قد فشلت ولم تقو على الصمود أمام حجاجل جيوش المستعمرين المدجحين بالأسلحة النارية الحديثة التى حصدهم. إن ذلك لا يشينهم ولا يظهر ضعفهم بل يظهر ضعف القيم الإنسانية والضمير الإنسانى ويوقظ فى الضمائر المسئولية تجاه هذه القارة المظلومة.

ألخص هذا الكتاب فى كلمتين «الغزو» و«المقاومة» ، والكتابات عن غزو واحتلال إفريقيا عديدة لا حصر لها منها المحايد ومنها الجائر، ولكن قلة قليلة جداً ما تتحدث عن مقاومة الإفريقيين وتضحياتهم واستبسالهم من أجل سيادتهم ووجودهم. يكاد هذا الأمر يكون منكراً حتى من الإفريقى ذاته إذ إنه يشعر بالخزى عندما يتذكر الفترة الاستعمارية. وقد حاولت أن أسجل بأمانة ماضينا ما واجهناه وما فعلناه وما عانيناه، وهل كنا متهاونين فى صد العدوان أم أننا فعلنا ما كان باستطاعتنا ومقدرتنا أن نفعله فى ذلك الحين.

إن من مسئوليتنا أن نكشف عن ماضى إفريقيا الدفين وندرسه بكل فخر واعتزاز والحمد لله ليس فيه ما يشين ، إن الذى يجب أن ينجل منه هم المستعمرون الأوروبيون المتشدقون بالسمو والتحضر والتفوق وبحقوق الإنسان فهو عار على أوروبا.



الجزء الأول

غزو القارة

- تمهيد:
- الفصل الأول: الاندفاع نحو القارة.
- الفصل الثاني: مؤتمر برلين.
- الفصل الثالث: اقتسام الفطيرة الإفريقية.
- الفصل الرابع: الخلاصة خريطة إفريقيا الاستعمارية

تمهيد

يختزل تاريخ إفريقيا في حادثين حددا مصيرها هما تجارة العبيد عبر الأطلنطي ومؤتمر برلين. الحدث الأول امتد أربعة قرون من القرن الخامس عشر إلى التاسع عشر. فيه فقدت إفريقيا ما يقرب من مئة مليون من أبنائها ، هذا العدد الم هول من شبابها فقد ما بين عمليات الصيد أو الأسر أو في أثناء الرحلة الطويلة عبر المحيطات على ظهر سفن العبيد من سواحل القارة الإفريقية إلى القارات الأمريكية وأوروبا ، وهناك سحقت آدميتهم واستخدم الإفريقيون لا بوصفهم آدميين بل كقوة محركة كما تستخدم الجمال والخيول وغيرها من وسائل النقل والحرق ، وهذا أقسى وأبشع ما يستخدم فيه البشر لا من حيث الجهد العضلي فقط ولكن من حيث النظر إليه باعتباره خارج نطاق البشر. وقد ذكر «كارل ماركس»: «بغير العبودية ما كانت توجد الصناعة الحديثة ؛ فالعبودية هي ما أعطت المستعمرات قيمتها الحقيقية، والمستعمرات هي التي أوجدت التجارة العالمية والتجارة العالمية كانت شرطاً مسبقاً للتصنيع على نطاق واسع، ومن هنا تظهر الأهمية الكبرى للعبودية».

وفيا عدا اقتناص العبيد لم تظهر بوضوح دوافع قوية تحرك السياسة الأوروبية نحو امتلاك إفريقيا في النصف الأول من القرن ١٩ ، لم تكن تبلورت وظهرت الدوافع الجامعة التي تدافعت في النصف الثاني من القرن ١٩ وأدت إلى التكالب الاستعماري على القارة، ففي مطلع القرن كان التدخل الأوروبي في إفريقيا ينحصر في المناطق الساحلية من القارة، ولم تكن الدول الأوروبية لها سيطرة إلا على أجزاء صغيرة من اطراف القارة، ولكن الدول الأوروبية سرعان ما انتقلت في نهاية القرن من المرحلة الجزرية أو الساحلية إلى مرحلة التوغل داخل القارة ، ووصل الأمر في نهاية القرن إلى درجة من النهم الاستعماري الذي كاد يؤدي إلى الاصطدام الدموي بين الدول الأوروبية الكبرى المتنافسة.

وحتى بعد ما ظهر التكالب الدولي نحو إفريقيا لم تكن دوافع الاستعمار في القارة تحدت.

كان بعضها دينيًا وبعضها اقتصاديًا أو أطماعًا شخصية أو ضرورة للهجرة الزائدة من سكانها. فمثلًا استيلاء فرنسا على الجزائر ١٨٣٠ لم يكن السبب المباشر اقتصاديًا بل استراتيجيًا ، فقد طمعت فرنسا في الجزائر لأن سواحلها تجاور فرنسا، كما كانت مشكلة البحر المتوسط وتقسيم الإمبراطورية العثمانية هي ما حث فرنسا أن تتخذ عملاً إيجابيًا تقاوم به تدخل الإنجليز في البحر المتوسط، وهناك سبب آخر يتعلق بفرنسا ذاتها حاولت به أن تثبت قوتها ونفوذها، فمنذ الحروب النابوليونية مرت فرنسا بفترة من الضعف كادت تفقدها مهابتها الدولية ، وكان الشعب في حالة قلق وتدمير داخلي فاستخدمت احتلال الجزائر لتحويل نظر الشعب من الناحية الداخلية إلى ناحية خارجية حاولت به فرنسا أن تظهر أنها أفاقت من ضعفها وأصبحت تفكر من جديد تفكيرًا إمبراطوريًا.

وفي العشرين سنة الأخيرة من القرن ١٩ تجلت بوضوح سياسة الاستغلال الاقتصادي في الاستعمار، فبعدما انتقلت مقاليد الأمور في الدول الصناعية إلى الرأسماليين وطبقات التجار وأصحاب المصانع تحول التوسع الاستعماري إلى أغراض تجارية وصناعية ومالية وأصبح الغرض من الاستعمار صراحة غرضًا اقتصاديًا وهو الحصول على مستعمرات تكون أسواقًا لمنتجاتهم وحاصلاتهم واختفت حجة ضرورة المستعمرات لامتناع الزائد من السكان فلم يكن في الدول المستعمرة فائضًا سكانيًا.

الحدث الثاني هو مؤتمر برلين ١٨٨٤-١٨٨٥ الذي قسمت بمقتضاه القارة وقطعت شلوًا شلوا، ورُسمت فيه الحدود على الورق وسرقت الأرض من أصحابها وضاع استقلالها وثرواتها الطبيعية واستعبد أهلها على أرضهم. ويعد القرن ١٩ «قرن الرعب الإفريقي»، تمت فيه كل هذه الأحداث الجسام، في بدايته لم يكن هناك شبر محتل في إفريقيا وفي نهايته لم يعد فيها شبر مستقل باستثناء ليبيريا والحبشة (أثيوبيا).

بدأت أقدام الأوروبيين تطفأ أرض أفريقيا في القرن ١٥ عندما ابهر البرتغاليون إلى سواحل غرب إفريقيا عام ١٤٤٤ واسسوا بعض الحصون على السواحل مثل حصن سان جورج والمينا في غانا. وفي القرن ١٧ وصل الهولنديون وبعدهم الإنجليز ثم الفرنسيون والدانماركيون إلى سواحل غرب إفريقيا ، ولكنهم رغم هذا التكالب على السواحل لم يتمكنوا من التوغل إلى الداخل بسبب قوه ملوكها وتماسكهم؛ لذلك اكتفوا بتجارة الرقيق على السواحل. وقد امتدت هذه المرحلة إلى القرن ١٩ وتعتبر المرحلة الأولى للاستعمار الأوروبي لغرب إفريقيا.

في البداية لم يكن الأوروبيون يعرفون عن إفريقيا سوى الساحل الشمالى وبعض المراكز التجارية على سواحلها الغير معروفة ولا محددة، كانت إفريقيا بالنسبة لهم قارة ذات حافات أو هوامش معروفة من الناحية البحرية قليلة الاتصال بالجزء الداخلى من القارة لذلك سميت بالقارة المظلمة، وتبين من هذه التسمية أن معظم الأجزاء الداخلية منها كان مجهولاً. وبالأستكشافات الجغرافية اندفع الأوروبيون نحو امتلاك هذه الأجزاء، وأدى التنافس الاستعماري الشرس أن سقطت القارة كلها شعوباً وأرضاً وثروات في يد المستعمرين.

انبعثت الشرارة الأولى في نشاط الحركة الاستعمارية في إفريقيا من مشروعات الملك ليوبولد الثاني ملك بلجيكا واستيلائه على الكونغو، فالتجهدت بريطانيا إلى شرق إفريقيا وإلى نهر النيجر في الغرب الإفريقي، وفرنسا إلى وسط إفريقيا وشمالها آملّة أن تمتد سيطرتها على الساحل الشمالى إلى الصحراء ليصل أملاكها في غرب إفريقيا بالكونغو. وأدى هذا التنافس الإمبريالى لإفريقيا أن سقطت القارة كلها في يد المستعمرين.

أما المرحلة الثانية الاستعمارية فبدأت بعد مؤتمر برلين الذى خطط فيه لابتلاع القارة. وصف مؤتمر برلين بأنه اكبر عملية اغتصاب عبر التاريخ، فيه تقرر تقسيم القارة بين القوى الأوروبية الاستعمارية، وتعيين مناطق نفوذ لكل منها حتى لا تحدث صراعات ومواجهات بينهم في أثناء تكالبهم على احتلال المناطق، وتحكمت مصالح الدول الأوروبية في هذا التقسيم الذى تم دون أدنى اعتبار لأوضاع الكيانات الاثنية في القارة، فكانت نتيجة هذا التقسيم العشوائى أن توزعت الجماعة الاثنية الواحدة وتجمع جماعات أخرى لا تربط بينها أية صلة ولا يجمعها إحساس مشترك بالإنتماء إلى قومية واحدة مما أدى إلى تنافر بين هذه الجماعات التى ربطت بينها الحدود المصطنعة، وقادت في بعض الأحيان إلى صراعات دموية بين الجماعات المكونة للدولة.

إن الحدود المصطنعة التى رسمها المستعمرون للقارة في مؤتمر برلين هى التى أوجدت مشاكل الحدود الحالية؛ لأن هذه الحدود لم توضع تعبيراً عن أوضاع سياسية أو حقائق اجتماعية ذات دلالات إنسانية أو تاريخية معقولة ومقبولة عند أهل البلاد، بل انها على عكس ذلك تماماً وضعت في معظم الأحيان على اسس تحكمية اعتباطية عبرت أولاً وقبل كل شىء عن المصالح والمطامع التى كانت المحرك الدافع للدول الاستعمارية.

إن ما حدث في إفريقيا في القرن ١٩ الذي يوصف بقرن الرعب الإفريقي يفوق كل تصور، ففي مرحلة تجارة الرق التي امتدت أربعة قرون كان القرن ١٩ هو القرن الأكثر في عدد من استرقوا واستعبدوا من الإفريقيين رجالاً ونساء وأطفالاً ، وهو الأكثر عدداً بالنسبة لمن قتلوا في هذه العمليات. وقد أدى ذبوع هذه الجريمة البشرية على نطاق واسع إلى ضغوط من العالم الغربي ضد هذه التجارة، وتزعمت بريطانيا حملة تحريم الاتجار في الرق بحجة انتهاك هذه التجارة للمبادئ الإنسانية. والحقيقة أن سعى بريطانيا لالغاء الرق لم يكن من منطلق إنساني وإنما لمصلحة ذاتية، فبعد أن فقدت بريطانيا مستعمراتها في أمريكا الشمالية وفقدت سيطرتها على أمريكا قلت حاجتها إلى الرقيق هناك، ولم يعد الرق يعود عليها بالربح المأمول.

حدث إلغاء تجاره الرق جنباً إلى جنب مع صعود الاستعمار الإمبريالي، لم تكن أوروبا مهتمة بالمساواة بين البشر أو في حقهم في الحياة أحراراً فقد كان ذلك أمور أبعد ما يكون في أجندتها السياسية وإنما كانت تريد السيادة والسيادة فقط، وهذا هو السبب العميق لإلغاء تجارة الرق فمع ظهور الآلة البخارية كقوة محركة حلت محل القوى البشرية لم يعد لدى الأوروبيين مصلحة في اصطيد العبيد من إفريقيا وتصديرهم إلى أمريكا، بل صارت مصلحتهم في استبقاء الإفريقيين في إفريقيا واستعبادهم فيها واستخراج ثروات القارة لتصديرها إليهم، ألغوا عبودية الفرد لأنهم قرروا استعباد إفريقيا بأكملها بشراً وأرضاً. وهكذا فتح الطريق للتغلغل الأوروبي وبدأ عصر الاستعمار المباشر لإفريقيا، وظهر التدخل البحري بحجة منع سفن الرقيق والحماية مصالح التجار الأوروبيين التي صارت أكثر طموحاً واشتباكاً في الصراعات الإفريقية، ثم استتبع ذلك إنشاء القنصليات الأجنبية بسلطات واسعة حيث مارست نفوذها بإحكام للسيطرة السياسية على البلاد الإفريقية بعد غزوها.

ولكن هذا التغول والافتراس الأوروبي لإفريقيا أدى من ناحية أخرى إلى الاستفزاز وتقوية مشاعر المقاومة وظهور الروح القومية التي كانت أكثر وضوحاً في غرب إفريقيا فمقاومة اليوروبا والأشانتى وداهومى وممالك الهوسا، وتحالف القوى المتجاورة المحلية ضد النفوذ الأجنبي وبخاصة الفرنسي والبريطاني لا يمكن أن يفسر إلا بظهور الروح القومية بين الإفريقيين لذلك يوصف القرن التاسع عشر أنه اقترن بسمتين: استعمار القارة وتفتيتها وظهور الروح القومية.



بالنظر إلى خريطة إفريقيا في بدايات القرن ١٩ وفي نهاياته نلاحظ على الخريطة الأولى عددًا ضئيلاً من الممتلكات الأوروبية في إفريقيا، أما الخريطة الثانية فنرى كل القارة تقريباً قد قسمت إلى مستعمرات أوروبية. لم يتم هذا عن طريق الغزو والاحتلال الفعلي بل من خلال معاهدات سياسية بين الدول الأوروبية العظمى التي رسمت الحدود على الورق، وهذه الحدود الوهمية هي نفسها التي أصبحت حدود الدول الإفريقية الحالية مع كل ما ترتب عليها من عواقب.

إن القرن ١٩ هو حقبة تمزيق وتقسيم واحتلال إفريقيا، في بداياته قامت العلاقات الاستعمارية بين أوروبا وإفريقيا في شكل تبادلات تجارية إذ لم يكن الاستعمار يظهر فيه بشكل سافر بعد، وبعد نصف قرن بوشرت تطبيقات عملية تم بموجبها تقسيم القارة بوتيرة شديدة السرعة. وفي نهاياته كان التقسيم قد أنجز ونشر الأوروبيون سيطرتهم على القارة كلها، وما يصدم في عملية التقسيم لا يكمن فيما حصل بل بالاستخفاف الذي تمت خلاله هذه العملية. والمعروف أن القارة الإفريقية في الفترة ما بين ١٨١٥-١٨٣٠ شهدت نوعاً من الثبات النسبي فيما يتعلق بالأوروبيين بغزو إفريقيا إذا أغفلنا طرفيها الشمالى والجنوبى. غير أن هذا الثبات انهار بعد عام ١٨٨٠. ففي عام ١٨٨١ احتلت فرنسا تونس، وفي العام التالى احتلت إنجلترا مصر ١٨٨٢، وكان لهذا الاحتلال تأثير كبير على مسار تقسيم إفريقيا، ويمكن القول بأن تقسيم إفريقيا كان مرتبطاً بالمسألة المصرية. لم تكن إنجلترا وفرنسا الدولتان الوحيدتان اللتان ترغبان بالاستيلاء على أجزاء من القارة، بل برزت هذه الرغبة أكثر فأكثر في دول أخرى وظهر التنافس في كل أجزاء إفريقيا، ويمكن القول أن إنجلترا هي من أطلقت هذه العملية التي تسارعت بمبادرات فرنسية وبلجيكية ثم دخلت ألمانيا الحلبة وتبعته إيطاليا.



الفصل الأول

الاندفاع نحو القارة

١. إفريقيا قبل الغزو الأوروبي.
٢. دوافع الغزو.
٣. بدء الغزو: مرحلة الاستكشاف.
٤. سياسة الإلحاق.
٥. التوغل والاحتلال الفعلي.

١. إفريقيا قبل الغزو

حتى عام ١٨٨٠ لم تدخل إفريقيا في دائرة الحكم المباشر للأوروبيين إلا مناطق محدودة من القارة هي المناطق الساحلية من السنغال في غرب إفريقيا ومعها مدينة فريتاون وضواحيها وفي سيراليون، والأجزاء الجنوبية من ساحل الذهب (غانا) والمناطق الساحلية لأبيدجان في ساحل العاج وداهومى (بنين حاليًا) وجزيرة لاجوس (بنيجيريا). أما شمال إفريقيا فإن الجزائر وحدها هي التي وقعت في يد الاستعمار الفرنسى، ولم يدخل شبر واحد من شرق إفريقيا في دائرة أية قوة أوروبية، بينما خضعت بعض الأشرطة الساحلية لموزمبيق وأنجولا دون غيرها في وسط القارة لحكم البرتغال.

يختصر القول أنه حتى عام ١٨٨٠ كانت نسبة ٨٠٪ من القارة الإفريقية في يد ملوكها وملكانها ورؤساء عشائرها^(١). وإن أهم الأحداث التي وقعت بعد ذلك كان على أثر مؤتمر برلين ١٨٨٤-١٨٨٥ وهي الفترة التي شهدت غزو معظم القارة واحتلالها على يد القوى الأوروبية. لم يكن الاستعمار يمثل لافريقيا فقدًا لسيادتها واستقلالها فحسب بل كان تفتيتًا للمجتمعات الإفريقية وهجومًا على الثقافات القائمة أطاح بالعالم الإفريقى القديم كله الذى وجد نفسه دون سابق استعداد مضطرًا للتكيف مع الظروف الجديدة أو الهلاك، وأدى إلى اختلال معنوى ومادى يقترب في عمقه وجد به من حالة التفكك الشامل.

ماذا عن موقف الإفريقيين أنفسهم إزاء هذا الاستعمار الذى استتبع تغييرًا عميقًا في طبيعة العلاقات التى قامت بينهم وبين الأوروبيين؟. إن الاغلبية الساحقة من السلطات والقيادات

(١) تاريخ إفريقيا العام - المجلد السابع لافريقيا في ظل السيطرة الاستعمارية ١٨٨٠-١٩٣٥. تأليف اللجنة العلمية لتحريير تاريخ إفريقيا العام (اليونسكو) ص ٢٣. يلاحظ فيما يجد من إشارات لهذا المرجع بعد ذلك، أنى اطلعت على القسم الأول والثانى والسادس والسابع والثامن والثالث عشر من الكتاب نفسه. ثم أتممت مطالعة الكتاب من خلال شبكة الاتصالات. والإشارة إلى أرقام الصفحات حيثما تذكر في الهوامش يراعى بشأن الترقيم الوارد في شبكة الاتصالات الدولية.

الإفريقية ناهضت هذا التغيير بعنف وحاولت الاحتفاظ فوق كل شيء بالسيادة والاستقلال. والحقيقة المنكرة أن مرحلة الغزو الفعلي سبقتها سنوات من التفاوض وعقد الاتفاقات بين القوى الإمبريالية والحكام الإفريقيين، وفي مرحلة التفاوض هذه تقبلت القوى الأوروبية في البداية نظراءها الإفريقيين كأنداد متكافئين، كما كانت تعترف بسيادة واستقلال الدول والكيانات السياسية القائمة في القارة.

وعلى غير ما يشاع فالثابت أن الإفريقيين لم يتقبلوا السيطرة الاستعمارية بسهولة، وتدل الوقائع على أن رد فعل الإفريقيين كان عنيفا فلم يكن أمامهم خيار إلا خياران لا ثالث لهما، إما أن يسارعوا بالتنازل عن سيادتهم واستقلالهم أو أن يدافعوا عنها مهما كان الثمن. والشاهد أن معظم الحكام الإفريقيين بغض النظر عن النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت سائدة في دولهم، وعلى الرغم من كل الصعوبات قرروا الدفاع عن سيادتهم وعن استقلالهم. هذا في الوقت الذي كان متاحاً للإفريقيين أن يحصلوا على بعض المزايا المترتبة على الاتفاقيات مع الأوروبيين والتعاون معهم مثل إمكانية الحصول على الأسلحة النارية والسلع الاستهلاكية والاستعانة بالأوروبيين كحلفاء أقوياء عند حدوث النزاعات الداخلية والخارجية فيما بينهم. فلماذا رفضت كثير من الدول الإفريقية هذه الفرص واختارت أن تقاوم الأوروبيين؟.

إن المسألة لدى الإفريقيين لم تكن قضية مزايا ولكنها قضية أرض وسيادة، وهذا ما دفع الكيانات الإفريقية أن تختار طريق الدفاع عن سيادتها أو محاولة استردادها، فالمسألة في نظرهم لم تكن قابلة للتنازل بل إن كثيراً من قادة الدول فضلوا الموت في ميدان المعركة أو الفرار الاختياري أو مواجهة النفي الإجباري على التنازل عن سيادتهم دون كفاح.

كانت القضية الأساسية بالنسبة للحكام الإفريقيين بين عامي ١٨٨٠-١٨٩٠ قضية السيادة. لم يوجد حاكم واحد كان مستعداً للتنازل عن أرضه، حتى الحكام الذين وصفوا خطأ بأنهم محالئون للاستعمار، فقد كانوا يعتقدون أن أفضل وسيلة للاحتفاظ بسيادتهم أو لاسترداد هذه السيادة التي ربما كانوا فقدوها أمام قوة أفريقية أخرى قبل وصول الأوروبيين هي «التحالف» مع الغزاة الأوروبيين وليس معالمتهم، فالمالئ هو الذي يخون القضية الوطنية بالعمل مع العدو بغية تحقيق أهداف هذا العدو على حساب مصالح أمته، ولكن جميع الإفريقيين واجهوا خياراً صعباً بين الاستسلام أو الاحتفاظ بالسيادة أو استردادها، ومن ثم فإن من ربطوا مصيرهم بالأوروبيين كان سعيًا وراء تحقيق أهدافهم الخاصة^(١)

(١) تاريخ إفريقيا العام - المرجع السابق ص ٣١-٣٢

ولكن تغيرت العلاقات بين الإفريقيين والأوروبيين تغيرًا جذريًا بعد أن واجهت إفريقيا استعمارًا خطيرًا مدمرًا. فماذا حدث للعلاقات بين إفريقيا وأوروبا، وكيف أقيم النظام الاستعماري في إفريقيا؟ وما هي التدابير السياسية والاقتصادية والسيكلوجية والايولوجية التي اتخذت لتثبيت هذا النظام؟ وما هي التغيرات التي قبلتها إفريقيا والتغيرات التي رفضتها؟ وما الذي أبقى عليه النظام القديم وما الذي دمر؟ وماذا حدث من تكيف وتأقلم؟ وكم مؤسسة اختلت وضعفت وكم واحدة تفككت؟ وما هي آثار تلك الظواهر على إفريقيا وعلى شعوبها وعلى مؤسساتهم وهياكلهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية؟.

في الوقت الذي هبط فيه الأوروبيون على الساحل وبنوا القلاع كانوا يؤدون أجورًا لهذه الشعوب الصغيرة الموجودة على الساحل. ويمكن التصور أن الرؤساء في هذه المناطق الساحلية كانوا مرحبين بهذا الدخل غير المتوقع وهذه الأهمية الجديدة التي اكتسبوها، فعلى طول ساحل غينيا كانت العشرات من الدول الأوروبية تتنافس بسفنها وتجارها وتتداول التجارة عبر العديد من الأيادي والمجالات، وكان لدى شعوب ساحل غينيا الممتد من ساحل غانا غربًا إلى ساحل بنين ثم ساحل نيجيريا- شرقًا القوة الكامنة للمقاومة وكانوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم عندما يهاجمون ودافعوا عن أنفسهم فعلاً^(١)

إن الحقيقة الغائبة أن الدول الرئيسية في ساحل غرب إفريقيا وما جاورها في الأراضي الإفريقية الداخلية قد نشأت بشكل قوى في وقت نشأة مثلتها في أوروبا، كان لها تنافس داخلي وثقة اجتماعية بالنفس ورؤية فنية وقيمة وأخلاقية، وبعضها عرف أوروبا وبعضها لم يعرفها وذلك قبل أن تقوم تجارة بحرية على طول الساحل^(٢)

أما دول الداخل فقد كانت أكثر قوة ولكنها كانت تعيش في صراعات وتنافسات، كانت شعوبًا منظمة في حكومات مركزية يقف كل منها منافسًا للآخر، ولكن قوة إغراء التجارة الأوروبية والرغبة في الدفاع عن النفس واستيراد البنادق والذخيرة زاد من حدة الصراعات القومية والقبلية الإفريقية بها جعلها تنفجر في حروب وعمليات غزو أضعفت من قواهم وجعلتهم لقمة سائغة للمستعمرين تقاسمتها القوى الأوروبية.

والسؤال لماذا حصل هذا التقاسم في تلك الفترة بالذات ما بين ١٨٨٠-١٩١٤ وهل كان

(١) تجارة العبيد في إفريقيا. عابدة العزب موسى/ مكتبة الشروق الدولية ص ٧٦.

(٢) The African Slave Trade: Basil Davidson-James Gury Oxford 2004. P210

بالإمكان وقف هذا التقاسم؟ من الصعب تحديد بداية التقاسم أو اعتبار أن حدثاً معيناً هو سبب هذا التقاسم، كما أن التقاسم بدأ كمسألة أوراق، مسألة معاهدات حصلت من خلال الدول الأوروبية على دوائر نفوذ وممتلكات، ولكن الامر لم يستمر على هذا الحال لأن قوى استعمارية كثيرة طمعت فيما بعد في احتلال الأراضي الإفريقية فعلاً بحيث أصبح التقاسم على الورق تقاسماً على الأرض، والتقاسم على الورق ميز سنوات ١٨٨٠ بينما كان التقاسم على الأرض في فترة لاحقة. وكما يذكر «هنرى ويسلنغ» في كتابه «تقسيم إفريقيا»^(١) في المرحلة الاولى من التقاسم كانت البلدان الأوروبية تعتمد في هذا التقاسم على خرائط جغرافية، وكانت هذه الخرائط الجغرافية من نوع خاص إذ لم ترسم حدوداً طبيعية أو سياسية بل عبرت عما كان الأوروبيون يتفقون عليه في الكواليس المظلمة، كانت الأراضي تحدد على الخريطة ثم يبدأ التفكير في غزوها.

لم يضع تقاسم إفريقيا نهاية لجولات العنف، بل زاد العنف والقمع، وإذا قيل إن تقاسم إفريقيا لم ينتج إلا عدداً محدوداً نسبياً من الحروب ولم يواجه مقاومه جماعية قوية شاملة فذلك لأن القوى الاستعمارية كانت متوافقة على هذا التقسيم. وكانت دوافعهم متفقة ومتنوعة اقتصادياً (للحصول على مواد أولية وعلى وسائل تصريف الصناعة الأوروبية) ومالية وسياسية ومصالح استراتيجية. والسؤال الثاني لماذا ظهرت شرهة التقاسم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؟ لعل السبب أنه في بدايات القرن كانت أوروبا تعيش أوضاعاً سياسية مضطربة، لم تكن ألمانيا وإيطاليا وحدتا بعد، وفرنسا حجمتها إنجلترا في منافستها البحرية الاستعمارية، والقوى الاستعمارية القديمة البرتغال وإسبانيا وهولندا كانت قد ضعفت وانسحبت أمام القوى الاستعمارية القوية. ولكن بعد سنوات ١٨٧٠ انتشرت الثورة الصناعية في العالم وأصبح لإنجلترا منافسون جدد، فبعد هزيمة فرنسا أمام ألمانيا ١٨٧٠ سعت فرنسا لأن تعوض خسارتها بتوسيع نفوذها في القارة الإفريقية، كما حاولت ألمانيا وإيطاليا الحديثتان على الجبهة الاستعمارية أن تجدا لهما وجوداً في القارة، وكذلك بلجيكا التي تغانت للاستثمار بالكونغو. لقد أدى ظهور الدولة القومية في أوروبا إلى منافسة حادة بين القوى الكبرى وإلى مناورات لا تتوقف.

٢. دوافع الغزو

تعد الفترة ١٨٨٠-١٩٠٠ مرحلة الغزو والاحتلال كما ذكرنا من قبل، فخلال هذه الفترة

(١) سلسلة دراسات إفريقية «تقسيم إفريقيا» ١٨٨٠-١٩١٤. أحداث مؤتمر برلين وتوابعه السياسية/ هنرى ويسلنغ - ترجمة ريبا إسمايل / الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع الليبية ص ٥٢٤

وضع تسعون بالمئة من القارة الإفريقية تحت السيطرة الاستعمارية الأوروبية، وتقاسمت القوى الأوروبية تقريبًا كامل الأراضي الإفريقية، كما كانت هذه الفترة أيضًا مرحلة الدفاع عن السيادة الإفريقية من خلال استراتيجية المواجهة أو التحالف أو الخضوع المؤقت. كانت إفريقيا آخر قارة أخضعها أوروبا، واتسم احتلالها بسرعة وسهولة لم يسبق لها مثيل. فما الذى أدى إلى هذه الظاهرة، وبعبارة أخرى لماذا قسمت إفريقيا سياسيًا واحتلت احتلالًا منظمًا في خلال تلك الفترة القصيرة، ولماذا عجز الأفارقة عن صد هجمات أعدائهم؟.

بالنسبة للمستعمرين كانت فرنسا تسعى إلى تعويض خسارتها في الحرب السبعينية (١٨٧٠) التى استولت ألمانيا فيها على جزء كبير من الأراضي الفرنسية وهما إقليما الألزاس واللورين (لم تستعدهما فرنسا إلا بهزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى ١٩١٨)، وذلك بكسب أراضي فيما وراء البحار. إن فرنسا المهزومة أرادت أن تبحث عما يضمّد جراحها بالحصول على إمبراطورية استعمارية في إفريقيا تعوضها عن فقد الألزاس واللورين.

وكانت إنجلترا تريد التغلب على عزلتها الأوروبية بتوسيع الإمبراطورية البريطانية، أما ألمانيا وإيطاليا التى نمت الروح القومية فيهما خلال حركات الوحدة والاستقلال (وحدة ألمانيا واستقلال إيطاليا عن إمبراطوية النمسا) وتمخضت عن رغبتها في التوسع وأن تكون لهما مستعمرات كإنجلترا وفرنسا، وإن تظاهرا للعالم أن من حقهما أن تعززا بفتوحاتها الإمبريالية في الخارج ما اكتسباه داخل أوروبا من هبة قائمة على القوة.

يؤكد ف. ه. هنسلى «أن حاجة أوروبا إلى السلم والاستقرار الداخلى هو السبب الأول في تقسيم إفريقيا، فابتداء من ذلك العام الذى عقد فيه مؤتمر برلين كانت دول أوروبا قاب قوسين أو أدنى من الدخول في حرب فيما بين بعضهم البعض جراء التنافس بين روسيا وبريطانيا في البلقان وفي الإمبراطورية العثمانية. وقد استطاع الزعماء الأوروبيون درء هذه الأزمة في مجال سياسة القوة وتراجعوا عنها، ومنذ ذلك الحين وحتى أزمة البوسنة عام ١٩٠٨ أبعدت سياسة القوة عن أوروبا فصارت تمارس في إفريقيا وآسيا، وعندما أصبحت المصالح متضاربة في إفريقيا تهدد بتقويض أركان السلام في أوروبا، لم يكن أمام القوى الأوروبية من اختيار إلا تقطيع أوصال إفريقيا كي تحافظ على التوازن الدبلوماسى الأوروبي الذى كان قد استقر في الثمانينيات من القرن التاسع عشر»^(١).

(١) تاريخ إفريقيا العام - المرجع السابق - ص ٤٤.

ومن الناحية الاقتصادية لم يكن الاندفاع إلى القارة السوداء سببه تصريف الفائض من إنتاج المصانع الأوروبية بقدر ما كان سببه النقص في إمداداتها من المواد الخام.

قبل توقيع وثيقة برلين كانت القوى الأوروبية قد حصلت على مناطق نفوذ في إفريقيا بشتى الطرق مثل الاستيطان والاستكشافات وإنشاء المراكز التجارية ومستوطنات التبشير واحتلال المناطق الاستراتيجية وإبرام المعاهدات مع الحكام الإفريقيين. أما بعد المؤتمر فقد أصبح النفوذ عن طريق المعاهدات أهم أسلوب من أساليب تنفيذ تقسيم القارة على الورق. وكانت تلك المعاهدات تتخذ شكلين: شكل معاهدات بين الإفريقيين والأوروبيين، وشكل اتفاقيات ثنائية بين الدول الأوروبية ذاتها. وكانت المعاهدات الإفريقية الأوروبية من نوعين أساسيين أولهما معاهدات تجارة الرقيق والمعاهدات التجارية التي أدت إلى احتكاكات نتج عنها التدخل السياسى الأوروبى فى الشؤون الإفريقية، وثانيهما المعاهدات السياسية التي تخلى الحكام الإفريقيون بمقتضاها ضمناً عن سيادتهم في مقابل الحماية.

كانت المعاهدات السياسية هي الشائعة، وكان يرميها إما ممثلون للحكومات الأوروبية أو ممثلون لهيئات خاصة تنازلت عنها فيما بعد للحكومات التي همكناوا يتبعونها، وكان يترتب على قبول حكومة بلد أوروبى لتلك المعاهدات ضم الأراضى التي تناولها أو إعلانها محمية خاصة لها. وإذا كانت الحكومة تشك في صحة المعاهدات فإنها كانت تستخدمها في أغراض المساومة في أثناء المفاوضات الثنائية الأوروبية.

أما الإفريقيون فكانوا يرمون تلك المعاهدات لدوافع شتى متصورين أنها في مصلحة شعوبهم، ففى بعض الحالات كانوا يقبلون على إبرام علاقات تعاھدية مع الأوروبيين أملا في أن تعود عليهم بالهبة عند جيرانهم، وأحيانا أخرى كانت دولة إفريقية ضعيفة تقبل عقد معاهدة مع إحدى الدول الأوروبية على أمل أن تساعدنا على التنصل من ولائها لدولة إفريقية أخرى تدعى السيادة عليها، كما كان بعض الحكام الإفريقيين يقبلون على عقد المعاهدات على أمل استغلالها في تدعيم سيطرتها على الدول التي تخضع لهم على مضض، وفي أحيان أخرى كانت بعض الدول الإفريقية تعتبر إبرام معاهدة مع إحدى الدول الأوروبية وسيلة للحفاظ على استقلالها من تهديدات دول أوروبية أخرى^(١)

في حين تعمدت الدول الأوروبية المتعاقدة بمعاهدات إلى تحويل حقوقها - بمقتضى هذه

(١) تاريخ إفريقيا العام - المرجع السابق ص ٤٥-٥١.

المعاهدة - إلى حقوق سيادة طالما لم تطعن في المعاهدة أية دول أوروبية أخرى. وقد أنجز تقسيم إفريقيا على الورق قبل نهاية القرن التاسع عشر بمقتضى سلسلة من المعاهدات والاتفاقات. وعلى العموم تمت هذه المعاهدات بطريق الغش والتدليس بعضها زور تزويراً صريحاً وبعضها الآخر كان وهمياً، باختصار معظمها نفذ بطريقة مخالفة للقانون.

٣. بدء الغزو: مرحلة الاستكشافات

ترجع بداية الغزو الاستعماري لإفريقيا إلى جهود المستكشفين الأوائل، وبدأ الاستكشاف المنظم لإفريقيا من الداخل مع رحلة مونجو بارك Mango Park إلى السودان الغربى ما بين سنوات ١٧٩٥-١٧٩٧. ومونجو بارك مثل الآخرين الذين اتبعوه، لم يكن لديهم أى طموحات تتعلق بالفتح أو الغزو، وقليل منهم من كان يهتم بالتجارة. كانت المغامرة والوصول إلى المعارف والباعث العلمى هو الهدف الاول. وعندما أنشئت الجمعية الإفريقية البريطانية ١٧٨٨ فإن سير جوزيف بانكس ورفاقه استهدفوا فى الأساس أن يعرفوا شكل وهيئة القارة الافريقية، ومن بعد ذلك جاء التنصير والتجارة.

كان الجهد الاستكشافى جهداً شاقاً وكانت الصعوبات عديدة. ومرت سنوات ثلاثون فصلت بين ما كان يؤكد «بارك» من أن نهر النيجر يتجه إلى الشرق وليس إلى الغرب، وأكثر من ثلاثين سنة فصلت بين هذا الأمر وبين تحديد المستكشف «لاندر Lander» لأبار الزيت وتدفق النيجر غرباً إلى البحر. كما قام «رينيه كاليه Reny Caillie» برحلة كبيرة من جامبيا إلى مراكش عبر السودان الغربى والصحراء فى ١٨٢٧-١٨٢٨. ولكنه لم يحدث إلا فى ١٨٤٩ أن استطاع الرحالة «بنجر Binger» أن يعرف البلاد التى تناخم طريق «كاليه» داخل إفريقيا.

تقدمت هذه الجهود بالتدريج، ففي ستينيات القرن التاسع عشر فإن عددا من البعثات رسمت خريطة تحدد سمات إفريقيا الغربية الداخلية^(١) فى حين كانت بدايات الدراسة المنهجية لشعوب هذه المنطقة ظهرت عام ١٨٥٧ مع كتابات «هنرى بارث» Heinarich Barth. وبالنسبة لوسط وجنوب إفريقيا بدأت رحلات ديفيد ليفنجستون David Livigstone عام ١٨٤١ واستمرت بتواصل وإصرار نحو ربع قرن. وقد شغلت رحلات هذا المستكشف خيالات وطموحات كثيرين من المستكشفين الآخرين سواء كانوا من البعثات التبشيرية أو غيرها. وفى عام ١٨٥٧ مشى «بيرتون Buirton» ألف ميل من باجامويو على ساحل تانزانيا

Africa In History. Basil Davidson. p282 (١)

إلى بحيرة تنجانيقا في حين استمر زميله Speke في اتجاه إلى الشمال إلى بحيرة فكتوريا. وبعد عدة سنوات وصل سييك مع جرانت Grant إلى المياه العليا للنيل الأبيض، وفي نفس الوقت كان صمويل بيكر آتياً إليها من الخرطوم ومتجهاً غرباً إلى أوغندا. وبعد الستينيات من القرن التاسع عشر صارت المسألة أساساً تصحيح أخطاء وتكملة جزئيات على الخريطة.

في ذلك الوقت كان المشروع التبشيري المسيحي للقرن التاسع عشر ينمو نموه البطيء، وفي هذا الشأن فإن الصعوبات كانت كبيرة جداً ليس أقلها المكافحة المادية للملاريا والحميات الأخرى ورغم ذلك فإن الاستجابة للتطوع كانت قائمة رغم الاخطار. إن أكثر من ٥٢ مبشراً عانى من الحميات في الشاطئ الغربي في عام ١٨٢٥ وحدهم ولكن تدفق المتطوعين لم يفشل. وفي عام ١٨٠٤ فإن جمعية مبشرى الكنيسة البريطانية بدأت أعمالها في سيراليون، وبعد ٢٣ سنة ظهرت خطوة هائلة إذ أسست مؤسسة «فورابي Fourah Bay» لتعليم التلاميذ الواعدين - وقد كان أحد أوائل تلاميذها صمويل كروثر الذي صار بعد ذلك أسقفاً على نيجيريا -، كان دارساً بارعاً للغات إفريقية الغربية، وترجم جزءاً من الإنجيل لليوروبا. وفي عام ١٨٤٦ أسست مقاربات للبعثات في يوروبا لاند، كما أسست مقار أخرى عام ١٨٦٥ في «لوكوجا - Lokoja».

إن الكنيسة الكاثوليكية وعديداً من المؤسسات البروتستانتية قاموا بأعمال مشابهة في مناطق ساحلية عديدة في إفريقيا واندفعوا بنشاطهم إلى الداخل. وفي عام ١٩٠٠ كانت هناك مناطق قليلة هي ما لم تصل إليه بعثات التبشير المسيحي وفشلت في الوصول إليها والاستقرار بها، فالجهود الكاثوليكية المبكرة في القرنين السادس عشر والسابع عشر أعيد إنتاجها على نطاق القارة كلها، وبعثت بذلك نخبة إفريقية ذات ثقافة مسيحية، وكان هذا ما لعب دوراً له أهميته حتى قبل ١٩٠٠ في تشكيل اتجاهات الفكر المعادي للاستعمار.

٤. سياسة اللاحاق

تبنى الأوروبيون في القرن التاسع عشر نظرية تفوقهم العنصرى على شعوب العالم وأنهم ينتمون إلى عرق أبيض واحد ظهر أولاً في القوقاز. وصنف عالم الأجناس الألماني جوهان بلوين باخ الأجناس العرقية في العالم بأنهم ينتمون إلى أربعة أعراق الأبيض والأصفر والأحمر والأسود. ثم قام العالم الفرنسى جوزيف آرثر دى جوبينو بوضع هرمية عرقية على رأسها الجنس الأبيض الأوروبى.

قوبلت هذه النظريات بتأييد واسع وحركت أناسًا للحديث عن أن من واجبههم تحضير السود، وتم الغزو الاستعماري باسم هذه النظرية، وبحجة انقاذ القارة من همجيتها العشوائية القبلية التي كانت لها الهيمنة واليد الطولى. ولكن هذه النظرية التي انتشرت على نحو واسع أجهضتها دراسة التاريخ الإفريقي الحديث الذى أظهر زيف هذه النظرية، فأغلب إفريقيا لم يكن فى حالة اضطراب ولا فوضى قبل الغزوات الاستعمارية. كانت هناك مناطق واسعة فى هذه القارة الشاسعة تسير أمورها بالطرق القديمة بشكل مستقر، وقليلًا ما كان يحدث الاضطراب الذى يؤثر على العادات والأعراف والتقاليد المستقرة. وكان كل جيل بعد جيل يتخذ من أصلاب أسلافه مسئولياتهم وينشئ وثاقًا بين من مات ومن يعيش ومن سيولد. إن ديفيد ليفنجستون وجد فى أراضى الزامبيزى العليا فى خلال الفترة ما بين الأربعينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر أن الأمن كان كاملاً بالنسبة للأرواح والممتلكات فى كل بقاع المملكة، وثمة رحالة آخرون وصلوا إلى نفس النتيجة^(١)

وهذه ليست وحدها الحقيقة فثمة حقيقة أخرى هى أن أزمة القارة التى وصلت بإفريقيا إلى الحضيض كانت تجارة الرقيق التى امتدت نتائجها السيئة على الساحل الغربى الإفريقى، ومن المناطق الشرقية إلى البحيرات الكبرى بالوسط، هذه التجارة استمرت فى الانتشار حتى الثمانينيات من القرن التاسع عشر وخاصة عند الساحل الغربى وشواطئ شمال إفريقيا. ولو لم تكن جرت هذه التجارة كان يمكن أن تقوم فى إفريقيا أنظمة جديدة مختلفة للتجارة والإنتاج وتسير بفاعلية كبيرة تطيح بالعادات القديمة وتنشئ أوضاعا جديدة دون استخدام العنف. إن الخلل الذى أحدثته تجارة الرق نتج عنه تغييرات اجتماعية واقتصادية تحللت الهياكل التقليدية الإفريقية..

لقد دمرت تجارة العبيد النظم الإفريقية التقليدية للعصر الحديدي الناجح طويل المدى الذى كانت تعيشه إفريقيا، ووصلت فيه القارة إلى حد النضوج من فنون ونحت ونسيج، وكان المقدر له أن يتلوه توسع فى التطور الاقتصادى ولكن جاءت هذه التجارة التى فقدت فيها إفريقيا الملايين من أبنائها. بالإضافة إلى حروب البنادق والأسلحة التى أدخلت على القارة، كان لذلك أثره الضار على المجتمعات الإفريقية واقتصادياتها.

إن الحقيقة الكبرى التى تكشف الآن أن إفريقيا وأوروبا وأمريكا الشمالية كانوا جميعًا يمشون خطوة خطوة نحو التطور، وكانت الفجوة فى القوى الحربية والقدرات العسكرية تكاد

(١) المرجع السابق African In History ص ٢٧٦

تكون متقاربة في العصور الوسطى، ولكن بعد ذلك بثلاث قرون تلت عرفت أوروبا خبرات متعددة الجوانب لم يكن لإفريقيا أى مشاركة فيها.

وفيا بعد ثلاثينيات القرن التاسع عشر أخذ التدخل الأوروبي يزداد عمقاً واتساعاً رغم أن الحكومات الأوروبية لم تكن ترحب به وحاولت أحياناً أن تعارضه ولكن التدخل استمر. في عام ١٨٤٠ سيطرت فرنسا على الشاطئ الغربى فيما يُسمى بالسنگال وخضع لإدارة فرنسية، وفي عام ١٨٤٩ عُين قناصل بريطانيون على شواطئ لاجوس (نيجيريا)، وهذه السلطات الجديدة دخلت سريعاً في أعمال ضد السلطات الإفريقية القائمة. ومع القناصل جاءت الزوارق الحربية والقوات المسلحة. وفي عام ١٨٦٠ احتلت فرنسا ميناء داكار على شاطئ السنگال وبدأت في دفع قواتها داخل الأراضي، وبعد عام واحد حاصر الإنجليز لاجوس واحتلوها، وهكذا صار غرب إفريقيا سياسة وهدفاً استعماريًا لأوروبا الغربية.

لم تكن هذه السياسة مرحباً بها في البداية بما تتكبده من نفقات للحكومات الغربية، ورغم ذلك استطاعت هذه السياسة أن تكتسح كل الاعتراضات واستمرت سياسة الإلحاق لمناطق صغيرة بعناد نتج عنها الحاجة إلى المال والدخل، وأسهل وسائل الدخل هو فرض الضريبة على التجارة، ولكن الضرائب تحتاج إلى حدود فمنها بسرعة الوعي بأنه كلما اتسعت الحدود كلما زاد الدخل بمعنى أن بلوغ الشواطئ أدى إلى السيطرة على الشواطئ وعمق الاتصال بأوروبا، وأدت السيطرة على الشواطئ خطوة خطوة إلى غزو أراضي الساحل وفرض الحماية للسيطرة على أراضي الداخل، ولكنها حماية تستدعى نفقات للقوات والموظفين المقيمين في هذه المناطق، ففرض الأوروبيون ضرائب على التجارة يتحملها الإفريقيون وحدهم ليمولوا نفقات قوات الاحتلال في هذه المناطق^(١) هذه واحدة.

الأمر الثانى هو الضغط لإنهاء تجارة الرق بوسائل تتعلق بالغزوات العقابية للجيران والمناطق التى لم تلحق بعد، وهذه الغزوات أدت إلى امتداد نفوذ التجار والحكام في ذات الوقت. وتحت هذه الضغوط المتنوعة كتب موظف استعماري كبير عام ١٨٦٣ يقول «إننا دون أن نشعر انزلقنا في سياسة جديدة لمحاولة وقف تجارة العبيد عن طريق عمل جنود وليس عمل تجارة»، إن وقف تجارة الرق صارت وسيلة لأهداف مختلفة وليس فقط لمراقبة أو أسر سفن العبيد التى يقوم بها تجار الرقيق من الأوروبيين والبرازيليين وتجار الولايات المتحدة في أعالي

(١) المرجع السابق African In History ص ٢٧٨

البحار، وإنما لقيام بريطانيا بأعمال عسكرية على الأرض... وفيما بعد عندما لم تعد تجارة الرقيق أمراً مطروحاً بقيت عملية الإلحاق مستمرة وصار الإلحاق يتم بعذر أو بآخر.

إن الوزراء والموظفين في لندن وباريس بدافع الخشية من النفقات لم يكونوا يميلون إلى هذه العملية وكانوا يعارضونها، ولكن تردهم لم يؤد إلى نتائج هامة وصارت آلة التوسع الاستعماري تعمل بقوتها ولم تكن تتوقف. وفي عام ١٨٦٥ فإن لجنة مختارة من مجلس العموم البريطاني أوصت بالانسحاب البريطاني من كل مناطق إفريقيا الغربية فيما عدا سيراليون، ولكن بعد ذلك بتسع سنوات فإن ساحل الذهب (غانا) صار مستعمرة بريطانية جديدة^(١)

ولعل أهم عامل ساهم في إنجاح سياسة الإلحاق والاستلاب الإفريقي هي الشركات التجارية عابرة القارات^(٢) التي تلخص قصة الاستعمار الغربي كله وبها بسط سيطرته على العالم في القرون الماضية، «هذه الشركات اعملت فيه أسوأ أشكال النهب الاستعماري والعنف العنصري الممجي الممنهج بهدف استنزاف خيرات إفريقيا واسترقاق شعوبها وتدمير مقوماتها الإنسانية. كانت الشركات التجارية الضخمة تقوم بالاستحواذ على ثروات شعب بأكمله لمصلحة شركة وحيدة تصب في النهاية لمصلحة الدولة الاستعمارية، وباسم التجارة الحرة - التي هي في حقيقتها تجارة الإكراه أو الجشع التجاري - أنت بهدف التجارة بقيت من أجل الحكم، فالاستراتيجية البريطانية اعتمدت على إطلاق يد القطاع الخاص بالانتفاع بثروات الشعوب ووقفت بقوة خلف هذه الشركات ومنحتها امتيازات شبه سيادية من بينها حق سك العملة الخاصة في فروعها الخارجية والاضطلاع بالسلطة القضائية في المستعمرات وحق تكوين الجيوش المسلحة بل والحق في شن الحروب. وبهذا توسعت الامبراطورية البريطانية التجارية عبر المحيط الأطلنطي وحول رأس الرجاء الصالح إلى الخليج العربي وصولاً إلى الهند، فالهند مثلاً هذه البلاد الجميلة كانت مزدهرة في ظل أكثر الأنظمة الأهلية الاستبدادية، ففي عام ١٧٥٠ كانت شبه القارة الهندية تنتج حوالي ربع الإنتاج الصناعي في العالم في حين كانت بريطانيا تنتج فقط ٩، ١٪ وأصبحت الهند على وشك الدمار عندما صار للإنجليز نصيب كبير في إدارتها.

لقد كانت الشركات التجارية على استعداد لارتكاب جرائم مروعة لأنها كانت تعلم جيداً

(١) African In History المرجع السابق ص ٢٧٩

(٢) مقتطفات من كتاب الشركة التي غيرت العالم. تأليف نك رويترز. ترجمة كمال المصري. مكتبة الشروق الدولية.

أنه لا يوجد من القوانين في بريطانيا ولا في العالم كله ما يمنعها أو يحاسبها على ارتكاب الجرائم في خارج بلادها. كان النظام التجارى يؤمن بمبدأ واحد وهو الجشع التجارى ويستخدم وسيلة واحدة للحكم هى القوة».

إن سياسة التوسع والإلحاق لم تكن مفهومة في ذلك العصر حتى إن وزراء بريطانيين وفرنسيين فشلوا في فهم مواقف حكوماتهم، وكذلك القادة الإفريقيين لم يدركوا الأمر. راقبوا السياسات الأوروبية والفعل الأوروبي ولم يحركوا ساكنًا، قبلوا التحالف أو الصداقة مع هذا البلد الأوروبي أو ذاك ونادرًا ما كانوا يرون أنهم بذلك يفتحون الأبواب لغزو أوروبى يجرى بعد ذلك. إن البعض فكر فيما إذا كان يمكن أن يحصل على فائدة من الوجود الأوروبى والبعض الآخر فقد بوصلته تمامًا.. فأيدلوجيات عصر الحديد كانت تقود إلى عدد من الاحتمالات ليس فيها تفسير لما تفعله أوروبا في القرن التاسع عشر. لقد كان الدرس طويلًا وقاسيًا.

٥. التوغل والاحتلال الفعلى

بلغت الصراعات والطموحات الإمبريالية ذروتها في الثمانينيات من القرن التاسع عشر فيما أسمته الصحافة حينذاك «التدافع إلى إفريقيا». ويرى بعض المؤرخين أن هناك علاقة بين الاتفاقات البريطانية الفرنسية التى أظهرتها السيطرة البريطانية على مصر وقناة السويس. ويرى آخرون تلك العلاقة في الأعمال المثيرة للملك بلجيكا ليوبولد الثانى لكى يستحوذ لنفسه على مستعمرة في وسط إفريقيا مترامية الأطراف تحت بصر وأنف معاصريه الأكثر قوة منه.

والحقيقة إن خلف كل الحركات الدبلوماسية والسياسية تكمن ضغوط حاسمة كبيرة. هذه الضغوط أطلقها النمو الهائل للرأسمالية في أوروبا الغربية، وتجلت على المسرح الإفريقى بما وصف أنه حصاد الضغوط الصلبة للمغامرين التجار؛ وفق ذلك كله كان هناك رجال من أمثال سيسل رودس الذين أكدوا أن حكومات في أوروبا يتعين عليها أن تشيد مشروعًا استعماريًا وراء البحار، ومن جهود هؤلاء بوعى أو بدون وعى كانت الايدلوجيات الخاصة بأوروبا الاستعمارية تتخذ شكلها وطابعها العملى.

عندما تحولت هذه الضغوط في النهاية إلى غزو متعدد الجوانب وجدت قوى أوروبا الغربية نفسها تقع في عدد من الظروف الحرجة، لقد وضعوا أقدامهم بثبات على مواقع هامة على الساحل وصارت لهم روابط مع عدد من الشعوب الساحلية في إفريقيا وكانوا يحوزون (الأوروبيون) على قوى صناعية وعسكرية لا تقارن بالإنتاج المحدود لاقتصاد عصر الحديد والإنتاج السابق

للرأسمالية بوسائله الحرفية اليدوية^(١). وكانوا أيضًا قادرين على السيطرة على منافساتهم في إفريقيا في إطار اتفاقات يمكن أن يجروها بين بعضهم البعض، وإذا كانوا يتعاركون بشدة بين بعضهم فقد كانوا حريصين على ألا يجرى هذا العراك في إفريقيا. إن الحدود الواسعة للتوسع لكل القوى ذات المصلحة لم تحدث إلا متاعب قليلة بينهم في المؤتمر الاستعماري في برلين ١٨٨٤-١٨٨٥، وكانت هذه القوى هي بريطانيا وفرنسا وألمانيا وبلجيكا (من خلال ملكها) وإيطاليا والبرتغال وإسبانيا.

كانت اتفاقات فعالة للقمة سبقت هذا المؤتمر في إفريقيا الشمالية؛ إذ أسس الفرنسيون مصالحهم الأولية مبكرًا في عام ١٨٣٠ في غزوهم المفاجئ للجزائر. وحدث ذلك في الطرف الشرقي للبحر المتوسط بواسطة بريطانيا حيث كانت مصر والبحر الأحمر ذات أهمية عليا كحلقة في طريق المواصلات البريطانية إلى الهند. إن البريطانيين بعد ثورة عرابي باشا قرروا نهائيًا حقهم الغزو في مواجهة فرنسا. وإذا كان السبب الظاهري هو الرقابة المالية الانجليزية الفرنسية على مصر فإن الإنجليز ما إن احتلوا مصر بقوا فيها وأعلنوا رسميًا حمايتهم عليها ١٩١٤^(٢). في ذلك الوقت أسست فرنسا محمية لها في تونس عام ١٨٨٠، وبعد عشرين سنة اتفقت فرنسا وإنجلترا على أن يطلق كل منهما يد الأخرى فيما احتلته مصر لبريطانيا ومراكش لفرنسا عام ١٩٠٤.

تكررت هذه العملية ذاتها في مناطق إفريقية أخرى كانت منطقة العبودية في شرق إفريقيا مثلًا واضحًا على ذلك، إذ خضعت لنوع من السيطرة الاستعمارية أوقفت حالة الحروب القبلية، ولكن ثمنًا كبيرًا دفعه الأهالي فمع كل حرب داخلية توقفت حلت محلها حرب أكبر بالغزو الذي كان مليئًا بالمذابح والدمار. فالملك ليوبولد ووكلاؤه الذين ادعوا أنهم وضعوا نهاية لتصدير العرب السواحلي للعبيد أنجزوا ذلك مقابل الموت والبؤس لفئات كبيرة من الشعب الذين صاروا حكامًا عليه^(٣).

ومثل البريطانيين في الأراضي وراء لاجوس وساحل الذهب واجه الفرنسيون شعوبًا أشداء فخورين باستقلالهم ومستعدين للقتال من أجله ولكن مقاومتهم فشلت في النهاية

(١) المرجع السابق. African In History ص ٢٨٤

(٢) مع اعتراف بريطانيا باستقلال مصر السياسي واكتسابها الشخصية الدولية الكاملة منذ فبراير ١٩٢٢ إلا أن الإنجليز لم يخلوا عنها إلا في عام ١٩٥٦ بموجب اتفاقية أبرمت في أكتوبر ١٩٥٤.

(٣) المرجع السابق African In History ص ٢٨٥.

لأنهم كانوا يحوزون أدوات قتال أضعف وتنظيمًا عسكريًا أقل كفاءة، ولأنهم لم يستطيعوا أبدًا أن ينجزوا فيما بينهم وحدة تضمهم معًا، واحتاج الأمر من الفرنسيين إلى عشرين سنة من الحروب لكى يبرروا دعواهم على أرض مالى وصنغى.

ويمكن ملاحظة أنه رغم تماثل الدوافع لدى الإمبريالية الفرنسية أساسًا مع الدوافع البريطانية فقد كان الاستعمار الفرنسى يتميز بتأييد رأسمالى ضعيف. إن الفرنسيين كان لديهم كوادرات قوية من المغامرين التجار، ولكنهم لم يكونوا بالصلابة الكبيرة التى تتوافر لدى أمثال رودس الإنجليزى، وتركت أشياء كثيرة للمنظمين المحليين المستوطنين الذين قاموا بدور نشيط ولكنهم كانوا محدودين فى إطار وسائلهم المتواضعة.

ومن الوجهة الاقتصادية فإن الغزاة الفرنسيين فى إفريقيا بدوا أكثر ترددًا من البريطانيين فى الاستثمار فى المشروعات الإفريقية التى ظهر احتمال ربحيتها إلا أنهم لم يكونوا راغبين فى المغامرة برأسألمهم وكانوا يفضلون المجالات الأكثر ضمانا للربح فى أوروبا وآسيا، فقد كانوا بشكل عام أقل ثقة فى أنهم سيحصلون على الأمان لمشروعاتهم فى إفريقيا. وتعويضًا عن هذا الوضع بدوا أكثر قوة من ناحية «العنصرية الاستعمارية» ودعم هذا طموحات الجيش والبرجوازية التى صورت الانتصار فيما وراء البحار على أنه نوع من التفوق الوطنى أكثر من قرنائهم الإنجليز.

إن الغزاة الصغار لم يجدوا مهمتهم أسهل رغم أن طموحاتهم كانت أقل. فالبرتغاليون محبين ببريطانيا مكنوا من الوجود فى مجالات نفوذ داخل القارة فى أنجولا وموزمبيق وأوجدوا فيها احتلالًا فعليًا. وأقوى من هؤلاء - ولكن بعيدًا عن الأنظار تمامًا - كان الألمان يحصلون على مواقع أقدام فى جنوب غرب إفريقيا وفى الكاميرون وتوجو وتنجانيقا فى الشرق، وقد استخدموا أشد وسائل القوة والعنف مقارنة بغيرهم من الغزاة. وإن الألمان مثل منافسيهم تحركوا داخل إفريقيا من مواقع أقدامهم على الساحل بعمليات عدوانية، وبالطعنات المفاجئة توسعت أعمالهم الحربية واحتلالهم الفعال للأراضى. لم يكن الألمان وحدهم من يتبعون هذه الأوضاع ولكنهم فاقوا غيرهم فى هذه الأساليب.

ورغم استمرار العنف الاستعمارى ضد حركات المقاومة للشعوب الإفريقية فإن الغزو الاستعمارى جرى أحيانًا بوسائل سلمية، ومن هذه الوسائل الأكثر فاعلية عملية التغلغل والتقدم المستمر حتى بلوغ مرحلة الاحتلال الفعلى، وهذا الأمر كان يجرى بواسطة عمليات لم يكن أى من الرؤساء الإفريقيين يدركون النوايا وراءها أو نادرًا ما كانوا يدركون ذلك.. بهذه الأساليب وبغيرها اقتسمت إفريقيا بالتدرج^(١).

(١) المرجع السابق African In History ص ٢٨٦.

ثم قام المستعمرون بعد ذلك بتحرير عدد كبير من الاتفاقيات بين بعضهم البعض وخاصة من خلال التسعينيات من القرن التاسع عشر، وكانت هذه الاتفاقيات بين المستعمرين مما يصوغ الاعتراف بالحدود التي بقيت لوقت طويل ليست أكثر من خطوط على خريطة إفريقيا.

إن القوى الأوروبية بعد أن استقرت صراعاتها الذاتية شرعت في التوغل التفصيلي والإخضاع الفعلي للأراضي التي تأكد لكل منها احتلاله الفعلي. وإذا كانت الأعوام من ١٨٠٠-١٩٠٠ هي بشكل عام أعوام الغزو وإقامة الوجود الاستعماري فإن الأعوام من ١٩٠٠ إلى ١٩٠٤ يمكن تعريفها بأنها مرحلة التهدة التي تم فيها استقرار الحكم الاستعماري.



الفصل الثاني

الكارثة مؤتمر برلين ١٨٨٤ - ١٨٨٥

- إرهاصات المؤتمر.
- وقائع المؤتمر.
- نص قرارات المؤتمر.
- أسلاب المؤتمر.
- مضمون المؤتمر.

١. مؤتمر برلين ١٨٨٤ - ١٨٨٥

إرهاصات المؤتمر

لا يوجد حدث في تاريخ إفريقيا الحديث كانت له من نتائج على القارة مثلما كان لمؤتمر برلين ١٨٨٤-١٨٨٥، وكما قال الزعيم الغاني العظيم كوامي نكروما «إن أول تقسيم لإفريقيا وتفتيتها تم حسمه في مؤتمر برلين». ويعتبر المؤتمر عملاً دولياً لتنظيم السلب والنهب في القارة الإفريقية وأضفى الشرعية الدولية لالتهم القارة، وكان معنى نصوصه أن التملك بوضع اليد جائز في الأراضي غير التابعة لدولة أخرى من الدول الموقعة على الإتفاقية سواء كانت مسكونة بالقبائل أو الأمم^(١).

انعقد المؤتمر على مدى ثلاثة شهور في برلين بألمانيا وحضرته ١٣ دولة أوروبية فضلاً عن الولايات المتحدة الأمريكية، ولم يدع أى إفريقي إلى هذا المؤتمر ولا أخطر بقراراته التي أرست قواعد اقتسام إفريقيا وغيرت الخريطة البشرية والسياسية الجغرافية لإفريقيا بشكل يصعب تصديقه. بدأ تقاسم إفريقيا كمسألة أوراق، مسألة معاهدات حصلت من خلالها الدول الأوروبية على دوائر نفوذ وممتلكات، ثم طمعت الدول الاستعمارية في احتلال الأراضي الإفريقية فتحول هذا التقاسم على الورق إلى التقاسم على الأرض، كان التقاسم على خرائط جغرافية لم ترسم حدوداً طبيعية أو سياسية بل عبرت عما كان الدبلوماسيون الأوروبيون يتفقون عليه في الكواليس المظلمة، عكس ما كان يحدث في أوروبا مثلاً إذ كانت تتم الغزوات ثم تنتقل إلى الخرائط بينما في إفريقيا كانت تحدد الأراضي على الخريطة ثم يبدأ التفكير في طريقة غزوها^(٢). وقد استطاع تقاسم إفريقيا أن يكمل حتى النهاية لأن القوى الاستعمارية كانت متفقة على ذلك.

(١) تاريخ إفريقيا الحديث/ د. إمام محمد على ص ١٦.

(٢) تاريخ إفريقيا العام - المرجع السابق - ص ٤٥٠.

إن النظرة العامة لخريطة إفريقيا قبل انعقاد المؤتمر تُظهر إن حوالى ١٠٪ من مساحة إفريقيا كانت تحت السيطرة الاستعمارية، وفي أقل من عشرين سنة بعده استولى الأوروبيون على باقى القارة، وهكذا غير المؤتمر صورة إفريقيا بعد أن نظم عمليات السيطرة عليها.

عندما افتتح المؤتمر في منتصف نوفمبر ١٨٨٤ كان ٩٠٪ من إفريقيا لا يزال تحت السيطرة المحلية التقليدية، وباستثناء سيطرة فرنسا على الجزائر وبريطانيا على مستعمرتى الكاب والنااتال (كلاهما صار جزءاً من جنوب إفريقيا الحديثة) والبرتغال على أنجولا، كان الاستعمار يتركز أساساً حول السواحل الإفريقية وكان الداخل لا يزال شديد الغموض بالنسبة للأوروبيين مما قادهم إلى المقولة الخاطئة بأن إفريقيا هى القارة المظلمة. لم يكن الإطلام على أية حال فى ذات إفريقيا وإنما كان فى رءوس الأوروبيين المتطلعين الذين لم يكن لهم أى فكرة على ما كان عليه الداخل الإفريقى وما يحدث فيه.

وعلى مدى الشهور الثلاثة التى استغرقها مؤتمر برلين مزقت القوى الأوروبية أراضي إفريقيا كلها غير عابئة بالكيانات الثقافية واللغوية والقبلية والتاريخية التى عليها الأهالى، وتوزعت القارة على خمسين دولة منفصلة بعضها عن بعض، كلها أشتات من الجغرافيا والثقافات والأجناس والعناصر الموحدة الأخرى.

إن بعض المؤرخين المحدثين مثل المؤرخ الأمريكى آدم هوتشيلد يصبر على أن مؤتمر برلين لم يقسم إفريقيا وذلك على عكس الاقتناع الشعبى بذلك، يقول فى كتابه «شبح الملك ليوبولد» الذى نشر عام ١٩٩٠: «إن النهب كان واسعاً جداً بحيث أنه احتاج إلى معاهدات أخرى كثيرة لتوزعه». ومع صحة هذا القول من الناحية الفنية فإن مؤتمر برلين يصلح أن يكون علامة لكل ذلك ولبعثرة إفريقيا، فإن ١٤ دولة مشاركة فى المؤتمر تركت برلين مع ادعاءات غير كافية وحلت بعد ذلك معاهدات أخرى ومساومات أخرى فى السنوات التالية.

ويقول الكاتب الصحفى النيجيرى «روتيمى سونكور»، «إن تقسيم إفريقيا يتعين ألا ينظر إليه كحدث منعزل إنه إستمرار لسياسات سابقة للدول المستغلة، وقد أتى بشكل طبيعى نتيجة ٤٠٠ سنة من العبودية عبر الأطلنطى. إن الثروة التى أوجدت القاعدة للثورة الصناعية فى أوروبا كانت صانعة العبودية عبر الأطلنطى، كانت الصناعات تحتاج إلى المواد الخام والمواد موجودة فى إفريقيا، ول منع الصراعات التى كانت تنشب حول الثروات الإفريقية انعقد مؤتمر برلين ليمتص إفريقيا ومصادرها».

وفى الحقيقة فإنه فى خلال ٤٠٠ سنة من العبودية عبر الأطلنطى فإن الدول الأوروبية

خاضت معارك مميتة بين بعضها البعض للسيطرة على الثغور الساحلية والقلاع والغابات والأراضي التي كان يقتنص منها الأفارقة العبيد ويشحنون إلى الأمريكيات، كانت المدافع الكبيرة توجه إلى البحر لتضرب أى سفن أوروبية تقترب يعتبرها المسيطرون على هذه القلاع سفناً أوروبية أخرى معادية لهم. وإن تفادى هذه الأمور هو ما جعلهم في مؤتمر برلين ينشدون منع المعارك بينهم باقتسام إفريقيا.



تاريخ مؤتمر برلين^(١) لا يمكن ذكره إلا مع الإشارة إلى أربعة عناصر وشخصيات أساسية: الملك ليوبولد الثاني ملك بلجيكا، والمستكشف البريطاني هنري مورتون وغيره من المستكشفين، ونهر الكونغو، وأراضي الكونغو التي صارت بعد ذلك بلدى الكونغو، كونغو برازافيل وكونغو ليوبولدفيل (الكونغو الديمقراطية حالياً DRC).

كانت هناك عناصر وشخصيات أخرى مثل المستشار الألماني بسمارك الذى استضاف المؤتمر، ومثل حكومتى البرتغال وفرنسا اللتين كانتا تتزاحمان وتتنافسان على حوض الكونغو، وادعاءات ملك بلجيكا ليوبولد الثاني، كل ذلك هو ما أدى إلى الدعوة لعقد المؤتمر ويكون موضوعه الأساسى هو أراضي حوض الكونغو ويكون اسمه الرسمى لدى الألمان «كونغو كونفرانس - Kongo Conferance» وليس الاسم المعروف به الآن «مؤتمر برلين».

انعقد مؤتمر برلين وقت كان الأوروبيون يعتبرون الإفريقيين دون مستوى الإنسانية ودون مستوى البشر ويعاملونهم كالماشية وكقوة إنتاج آلية، وكانت تجارة الرقيق قد استنفدت الطاقات الجسدية والمعنوية للأفارقة وحطمت أساسهم الاقتصادى، كانت القارة فى أضعف أوضاعها فأقوى أبنائها وبناتها شحنوا بالمرائب إلى أراضي أجنبية على مدى ٤٠٠ سنة متصلة يقدمون العمل العبودى الذى طور أوروبا وأمريكا وبلاد أخرى.

وساعدهم الدور الذى لعبه الملك ليوبولد الثاني وصنيعته المستكشف ستانلى H.M.Stanly كان الملك ليوبولد يشعر بأن بلده الصغير بلجيكا ليس له مستعمرات مثل مالدى جيرانه الأقوياء وهم بريطانيا وفرنسا والبرتغال وإسبانيا وهولندا وغيرهم. وقد أنفق الملك ليوبولد وقتاً وجهداً للبحث عن المستعمرات ولكنه كان سيء الحظ وحيثما توجه كان

إما أن يفشل أو يواجه بقوة استعمارية أخرى، وكما جاء في كتاب «شبح الملك ليوبولد»: «كانت الإمبراطورية الروسية قد امتدت شرقاً حتى المحيط الهادى وفرنسا سيطرت على مناطق أخرى وهولندا على جزر الهند الشرقية، والباقي من آسيا الجنوبية إلى سنغافورة كانت تحت الهيمنة البريطانية عليه. ولم يكن بقى إلا إفريقيا.

المستكشفون واستكشاف نهر الكونغو:

هناك ثلاثة مستكشفين كان لهم الفضل في اكتشاف الغرب لنهر الكونغو وبالتالي احتلال الملك ليوبولد للكونغو، هم ليفنجستون وستانلى وييردى برازا بالإضافة إلى كامبيرون.

ديفيد ليفنجستون ١٨١٣-١٨٧٣:

هو طبيب ومبشر ومستكشف، قام ليفنجستون بعدة رحلات كبيرة لاجتياز إفريقيا بدءاً من لواندا على الساحل الغربى وصولاً إلى كيمليان على الساحل الشرقى، وفي خلال رحلاته الاستكشافية التى قام بها عام ١٨٧١ تتبع مجرى مياه نهر لوالابا الطويل والهام الذى يشكل المجرى العلوى للكونغو، ولكن ليفنجستون اعتقد أنه امتداد للنيل، وهذا التفكير الخاطئ جعل من إفريقيا الوسطى موضعاً لشغل المستكشفين.

لوفيت كامبيرون:

اجتاز ليفنجستون إفريقيا من غربها إلى شرقها، ولكن أول من اجتازها من الشرق إلى الغرب هو لوفيت كامبيرون، واستغرقت رحلته ستين ونصف انطلق من باجوميوي في إفريقيا الشرقية ووصل في نهاية رحلته عام ١٨٧٥ إلى لواندا على الساحل الغربى عند مصب الكونغو، ولكن لم ينجح في اتباع مجرى نهر لوالابا حتى نهايته.

هنرى مورتن ستانلى ١٨٤١-١٩٠٤:

وهو المستكشف الأشهر والأهم في تاريخ اكتشافات القارة الإفريقية والكونغو بالذات، وهو الرجل الأبيض الوحيد الذى ظل على قيد الحياة عند نهاية الاستكشافات التى قادها على نحو ٩٩٩ يوماً اجتاز فيها إفريقيا. ولد ابنًا غير شرعى في مدينه ويلز ١٨٤١ وسجلته أمه في كنيسة سانت هيلارى باسم جون رونالد باستار، وكان يعتقد أن أباه من أهل البلد ومات بسبب الإدمان، كان هنرى مورتن ستانلى أو جون رونالد باستار الابن الأكبر لأم أنجبت خمسة أولاد، وبعد طفولة قاسية ذهب جون إلى الولايات المتحدة عام ١٨٥٩ حيث غير اسمه

عدة مرات فسمى نفسه أحياناً مورليك وأحياناً أخرى مورلانك وفي النهاية استقر على اسم هنرى بورتن ستانلى وقد صار جندياً وبحاراً وصحفيًا ومستكشفًا شهيرًا على شاطئ المحيط الأطلنطى. حصل على لقب فارس فى بريطانيا ثم انتخب عضوًا فى البرلمان.

جاءت أهم محطة فى حياته عام ١٨٦٩ عندما أرسله ناشر صحيفة نيويورك هيرالد إلى إفريقيا لبحث عن المستكشف ديفيد ليفنجستون الذى انقطعت أخباره لخمس سنوات منذ أن ترك الشواطئ البريطانية ١٨٦٦ فى حملة كبيرة بحثًا عن تجار الرقيق والمسيحيين المحتملين، ومحاولة إزالة ملاسبات الغموض حول الأسئلة التى كانت تثار عن شكل بحيرة فكتوريا وهل ينبع منها النيل؟ وهل نهر لولابا الذى اكتشفه ليفنجستون بداية للنيل أو الكونغو أو نيجيريا وأى شىء آخر يمكن اكتشافه، وقد حول الناشر مهمة ستانلى وصرفه عن البحث عن ليفنجستون عندما رأى ما يمكن أن يمدّه بقصص وأخبار حصرية.

فى عام ١٨٧١ ترك ستانلى الشاطئ الشرقى لإفريقيا وتوغل فى داخل إفريقيا ثمانية أشهر قبل أن يجد ليفنجستون، أسالت التقارير التى كان يرسلها ستانلى عن داخل إفريقيا لعاب القوى الاستعمارية واستغل هو اهتمام الملك ليوبولد الذى سرعان ما جنده لقضيته. يقول هوشيلد فى كتابه «شبح الملك ليوبولد» إن المستكشفين لإفريقيا صاروا شخصيات عالمية يحتفل بهم وقد طبقت شهرتهم الآفاق واجتازت الحدود مثل نجوم السينما الآن».

ومن ثم فإنه فى عام ١٨٧٥ عندما كان المستكشف كامرون على وشك أن يجتاز إفريقيا من الشرق إلى الغرب ويحتاج إلى المال قدم له ليوبولد مباشرة مساعدة تبلغ مائة ألف فرنك لم يكن كامرون فى حاجة إليها لأنه كان فى نهاية رحلته فى المنطقة المعروفة الآن باسم كامرون.

فى ١٨٧٤ قام ستانلى بحملة أخرى من الساحل الشرقى لإفريقيا فى قافلة ضخمة ليعبر الأراضي الاستوائية للقارة وليكتشف ما يمكن كشفه؛ الكونغو النيل البحيرات وغيرها. وبعد ثلاث سنوات فى أغسطس ١٨٧٧ وصل ستانلى بصحبة الأفارقة إلى بوما Boma (الآن هى جزء من الكونغو الديمقراطية) وهى على بعد ٥٠ ميل من الساحل الأطلنطى وكان هو الثانى بعد كامرون فى اجتياز القارة الكبيرة من الشرق إلى الغرب، ولكن على خلاف كامرون فإن ستانلى بلغ الثغر الخاص بنهر الكونغو العظيم.

فى هذه الرحلة الطويلة الشاقة داخل إفريقيا كان ستانلى مجنوناً بالنهر، وقد تابع طريق النهر ذا الثلاثة آلاف ميل طولاً إلى ثغره فى ما نادى على الشاطئ الغربى، ومن ثم كان هو الأوروبي الذى فعل ذلك وحل الغموض الخاص بهذا الأمر من أين يأتى النهر.

ولكن استأنى لم يكن هو الأوروبي الأول الذى وصل إلى نهر الكونغو فقد سبقه الملاح البرتغالى ديوجو كاو Dio go cao فى عام ١٤٨٢ حيث وصل إلى مصب النهر فى المحيط الأطلنطى، وقد تعجب من حجمه، وذكر كتاب «شبح الملك ليوبولد» إن جغرافى المحيط المحدثين اكتشفوا شواهد جديدة عن قوة النهر الكبير ومصبه فى المحيط، وفى مناطق معينة يبلغ عمقه أربعة آلاف قدم حفرها النهر فى قاع البحر، إنه يصب نحو ٤, ١٪ مليون قدم مكعب من الماء فى كل ثانية إلى المحيط ولا يفوقه فى ذلك سوى نهر الأمازون.

أدهشت الأوروبيين إمكانيات النهر الضخمة فى النقل وفى مساعدة التجارة، وللنهر أسماء عديدة: «لولا با أو انزاوى أو انزير، وكذلك يسميه الأهالى الإفريقيون الذين يعيشون على شواطئه» «نزير» معناها النهر الذى يتلغ الأنهار الأخرى، (ونزير Nzero صارت زائير). وكشأن كل الأمور فى إفريقيا فإن الأوروبيين غيروا اسم النهر فصار الكونغو.

إن مجرد رافد واحد للكونغو هو كاساي Kasai يحمل من المياه ما يزيد على أكبر أنهار أوروبا وأطولها وهو الفولجا فى روسيا وكذلك رافده أوبانجى، وأغلب حوض النهر يوجد كأرض منبسطة تعلو نحو ألف قدم وتنحدر على بعد ٢٢٠ ميل من ساحل الأطلنطى، ومن ثم فإن النهر يسقط لمستوى البحر على مسافة ٢٢٠ ميل.

بيير دى برازا:

عندما جرت عجالات الثروة لصالح الملك ليوبولد ظهرت المعارضة له فى شكل فرنسى لتفسدها عليه، فالمستكشف الفرنسى الإيطالى بيير دى برازا الذى استخدمته الحكومة الفرنسية ذهب إلى نهر أوجوى Ogowi فى السبعينيات من القرن التاسع عشر وهو مجاور لحوض الكونغو فيما يسمى الآن الجابون، ونجح فى أن يعقد سلسلة من الاتفاقات مع الملك ماكوكو ملك شعب تيكي Teke - كتبت هذه المعاهدات كالعادة بلغة لا يستطيع الملك الإفريقى أن يقرأها أو يفهمها - منحت مساحات واسعة من الأراضى لـ دى برازا، بوصفه ممثلًا لفرنسا. ولكن المدهش أن الحكومة الفرنسية لم تهتم بما فعل دى برازا ربما لأنه لم يكن فرنسى الأصل فقد كان إيطاليًا تنجس بالجنسية الفرنسية واسمه الأصلى بييترو باولو دى برازا، ولكنه عندما تنجس بالجنسية الفرنسية عرف باسم بيير باول دى برازا.

وبعد أن أقصى النفوذ الفرنسى عن مصر لصالح بريطانيا ١٨٨٢، فإن الحكومة الفرنسية تحت الضغوط الداخلية تذكرت فجأة أن هناك أرضًا واسعة تحت تصرفها تسمى وسط إفريقيا

أنت إليها بفضل المعاهدات المخادعة التي أبرمها دي برازا مع الملك ماكوكو، وحدث أن جزءاً من هذه الأراضي ادعاها ستانلي للملك ليوبولد وجرى السباق حول أيهما يصير المالك لها.

وفي هذا السياق تذكر البرتغاليون فجأة أنهم أول أوروبيين يدخلون هذه البقاع ١٤٨٢. وهم عندما وصلوا إلى الكونغو أول مرة وجدوا مملكة إفريقية مزدهرة، ذكرها آدم هوتشيلد في كتابه «شبح الملك ليوبولد»: «رغم ازدهار ثقافة الكونغو اعترف البرتغاليون بأن المملكة كانت متطورة ونامية، وكانت هي من يقود الشاطئ الغربي لإفريقيا الوسطى، تتكون من ما بين مليونين وثلاثة ملايين من الشعب وتغطي منطقة تبلغ نحو ٣٠ ألف ميل مربع، وأجزاء منها تنوزع الآن على دول متعددة بعد أن رسم الأوروبيون خطوط الحدود بطريقة تعسفية لإفريقيا ١٨٨٥».

ومع تعود المطالبات على ذات الأراضي في حوض الكونغو سارع الملك ليوبولد بأن أرسل مبعوثاً له إلى واشنطن ليكسب الأمريكيين إلى جانبه. وفي إبريل ١٨٨٤ حصل ليوبولد على كسبه الدبلوماسي من أمريكا بأن صرح وزير خارجية أمريكا إن بلاده تعترف بدعوى ليوبولد على الكونغو، وكانت أمريكا أول دولة تعترف بذلك. وفي الجانب الآخر كان الفرنسيون يزعمون رسم الحدود على الخريطة لصالحهم في حوض نهر الكونغو^(١).

بسمارك المستشار الألماني الحديدي:

لم يهنا ليوبولد إذ ظهر في الأفق مناوئ آخر هو المستشار بسمارك أوتوفون موحد ألمانيا الذي اهتم اهتماماً شخصياً بمسألة الكونغو، وبالتالي أدرج الكونغو في عالم السياسة الكبرى بعد أن غدت ألمانيا قوة عظمى والبلد الأكثر نفوذاً في أوروبا، فكيف كانت تمتنع عن المشاركة في المنافسة التي كانت تجري على الساحة. إن ألمانيا عندما حققت وحدتها ١٨٧١ وأجبرت فرنسا على توقيع معاهدة فرانكفورت زاد حماس الشعب الألماني وبدأ يتطلع إلى الاستعمار خارج بلاده والبحث عن مستعمرات توفر له المواد الخام التي تتطلبها الصناعات الحديثة، وكانت القارة الإفريقية هي المجال الخصب أمام طموحات الألمان. (وفي غضون عام واحد ١٨٨٤ - ١٨٨٥ أصبح لألمانيا أربع مستعمرات وهي تنجانيقا في شرق القارة، والكاميرون، وتوجو في الغرب وناميبيا (جنوب غرب إفريقيا) في جنوب القارة^(٢)).

(١) مجلة New African المرجع السابق ص ١٤-٢٠.

(٢) المسلمون والاستعمار الأوروبي عبدالله عبد الرازق إبراهيم - عالم المعرفة عدد ١٣٩ سلسلة كتب يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (الكويت) ص ٩.

كان المستشار الألماني صعب المراس، وقد وصف طلبات ليوبولد بأنها ادعاءات. لم تجر الأمور طيبة لصالح ليوبولد، وكما قال هوتشيلد «لقد تعلم ليوبولد أن محاولاته العديدة لشراء مستعمرة أمر صعب لأن لا أحد يبيع وأنه يتعين أن يغزوها، ولكن هذا الصنيع كان من شأنه أن يزعج الشعب البلجيكي ومعظم القوى الأوروبية، وإذا كان يريد أن يسيطر على أى شئ في إفريقيا فعليه أن يقنع كل شخص بأن مصلحته هي لخدمة الآخرين».

ومن ثم ففي سبتمبر ١٨٧٦ دعا ليوبولد إلى مؤتمر في بروكسل حضره ١٣ من البلجيكيين ورجال الأعمال والمعارضين للأنشطة العبودية والعسكريين الذين يؤيدون مسعاه في الكونغو ويوافقون على إنشاء جمعية إفريقية دولية تدعم ذلك يكون رئيسها الأول هو ليوبولد. واستطاع ليوبولد أن يؤلف قلب بسمارك عن طريق البنك الذى كان يتعامل معه والذي قام بالمشروعات الضخمة في أوروبا. وفي عام ١٨٨٤ كان ليوبولد قد كسب بسمارك تمامًا إلى جانبه. وكما جاء في كتاب «شيخ الملك ليوبولد»: «لقد ترك بسمارك بنفسه يقتنع بأنه من الخير للكونغو أن تذهب إلى الملك ولدولته الضعيفة لتكون مفتوحة للتجار الألمان أحسن من أن تذهب إلى فرنسا والبرتغال بقدراتهما الطموحة أو إلى انجلترا القوية، ومع كسب بسمارك الاعتراف والضمانات لحرية التجارة في الكونغو فقد وافق بسمارك على الاعتراف بالدولة الجديدة، ولم يكن يعرف النص الكامل لمعاهدات ليوبولد مع الملوك الإفريقيين.

ما ان استطاع ليوبولد أن يقنع بسمارك وأمريكا، فقد بقى على مشكلة مع الفرنسيين والبرتغاليين، ولحسن حظه لم تكن بريطانيا مهتمة بالموضوع المتعلق بحوض الكونغو رغم أن المستكشف الاسكتلندي كامرون سبق أن اكتشف حوض الكونغو قبل ستانلى، وفي الحقيقة فإن ستانلى رغم أنه كان يتتحل صفة الأمريكى كان يود أن تكون بريطانيا هي من يستعمر الكونغو وليس ليوبولد، ولكن لندن التي كانت تعاني من ركود اقتصادى في ذلك الوقت ولديها مخيمات ومستعمرات عديدة في العالم كله لم تهتم بأن تستعمر منطقة أخرى صعبة المواصلات في داخلها وطرقها مسدودة بصخور وجزر معوقة. وقد ذكر ستانلى «أنا لا أفهم الإنجليز أبدًا إما أنهم يشكون في ويعتبرون إن لدى مصلحة خاصة أو أنهم لم يقتنعوا بكلامى». ولم يستطع ستانلى أيضا أن يثير اهتمام أمريكا باستعمار الكونغو. وفي الحقيقة فإن صحيفة نيويورك هيرالد التي كان يتعامل معها عرضت عليه البحث عن القطب الشمالى. وعلى أية حال فإن هذه الأوضاع مكنت الملك ليوبولد أن يلتقط أنفاسه ويتعامل مع التحدى البرتغالى والفرنسى. ولكن أخبارًا سيئة أتت في فبراير ١٨٨٤ عندما وقعت البرتغال مع بريطانيا اتفاقية

تعرق سعى ليوبولد عبر الاطلنطى. وقد ذكر هوتشيلد «إن التعطش للأراضى الإفريقية صار قويا في أوروبا». ولحل الرغبات المتصارعة ولوضع قواعد اقتسام الفطيرة الإفريقية اقترحت البرتغال على المستشار بسمارك أن يستضيف مؤتمرا دبلوماسيا في برلين لمناقشة هذه الأمور، وكان هذا المؤتمر اسمه كونغو كونفرانس «Kongo Conferenze».

قبل انعقاد مؤتمر برلين بخمسة أشهر أعلن بسمارك أنه لن يعترف بالمعاهدة الإنجليزية البرتغالية. ويحث ابنه إلى لندن ليُفهم الحكومة البريطانية أنه جاد، وفي الوقت نفسه أعلن إلحاق المنطقة الممتدة من أنجولا حتى مستعمرة الكاب بألمانيا ثم أرسل الدعوات لحضور مؤتمر برلين.

٢. وقائع المؤتمر

افتتح مؤتمر برلين في ١٥ نوفمبر ١٨٨٤ وحضرته ١٤ دولة هي «النمسا والمجر»، وبلجيكا والدانمارك وفرنسا وألمانيا وبريطانيا وإيطاليا و هولندا والبرتغال وروسيا وإسبانيا والسويد والنرويج (توحدتا من ١٨١٤ إلى ١٩٠٥) وتركيا والولايات المتحدة الأمريكية. كانت الدول ممثلة بسفرائها ومبعوثيها وكان اللاعبون الأصليون في هذا المؤتمر هم البرتغال وفرنسا وبريطانيا وألمانيا، وهم المسيطرون على أغلب مستعمرات إفريقيا في ذلك الوقت.

يصف هوتشيلد في كتابه المؤتمر بقوله «في ١٥ نوفمبر ١٨٨٤ فإن ممثلي القوى الأوروبية اجتمعوا على مائدة كبيرة تطل على حديقة مقر بسمارك وقد جلسوا جميعا أمامهم خريطة ضخمة لإفريقيا وبدأوا عملهم.. إن مؤتمر برلين كان التعبير النهائي عن أن عصر الحماس من أجل الديمقراطية له حدوده الواضحة، وإن المسألة لا تتحقق بالتصويت، وحتى جون ستوارت ميل الفيلسوف الكبير للحرية الإنسانية كان من قبل قد كتب عن الحرية قائلا: «إن الاستبداد هو الأسلوب الشرعى للحكومة التى تتعامل مع البرابرة مادام الإصلاح هو غايتها». لم يوجد إفريقى واحد على مائدة برلين. وكان الملك ليوبولد الذى لم يحضر المؤتمر في وضع قوى، وكان على متابعة مستمرة لما يحدث.

قضية الكونغو:

قبل الحديث عن وقائع مؤتمر برلين ونتائجه التى غيرت تاريخ إفريقيا لا بد من الحديث عن قضية الكونغو التى كانت السبب الظاهرى لعقد المؤتمر.

تعرف الأوروبيون على الكونغو في السبعينيات من القرن التاسع عشر على أثر الرحلات

التي قام بها برازافيل ١٨٧٥ - ١٨٧٨ وستانلي ١٨٧٤ - ١٨٧٧ وأطلق عليه اسم الهند الجديدة الصالحة للتجارة والاستعمار. ومن ثم بدأت المطامع الاستعمارية، كان الجزء الشرقي من الكونغو خاضعاً لسيطرة عرب ومستوطنين من إفريقيا الشرقية عن يطلق عليهم السواحليين، وهم الذين عاشوا في منطقة خاضعة لسيادة زنجبار، وقد استطاع أحد هؤلاء حميد المرجبي الملقب بتيبوتيب العربي^(١) أن ينشئ مملكة هناك. ولد تيبوتيب في زنجبار لأب عربي وأم سواحيلية، وذهب إلى الكونغو وأسس مملكة في شرق الكونغو امتدت من ١٨٧٠ إلى ١٨٩٠.

كان اهتمام الأوروبيين منصباً على الكونغو الغربي بعدما وصل البحار البرتغالي ديوجو كاو إلى مصب نهر الكونغو في القرن الخامس عشر، وفي خلال القرون اللاحقة أقام البرتغاليون علاقات مع ملوك الكونغو وبشروهم بالمسيحية، وكانت مملكة الكونغو شاسعة تتضمن شمال أنجولا والكونغو حتى الجابون. وبسبب انتشار تجارة العبيد على الساحل الأطلسي تحول هذا القسم من الساحل الغربي لإفريقيا إلى مركز مهم لتجارة العبيد، وبقيت هذه التجارة طوال النصف الأول من القرن التاسع عشر وكان نصف العبيد تقريباً يأتون من هذه المنطقة (أنجولا والكونغو). وعندما ألغيت تجارة الرق من المستعمرات البرتغالية ١٨٥٨ - ١٨٧٨ ظهرت تجارة المنتجات الزراعية مثل زيت النخيل وبذور زيت النخيل بالإضافة إلى العاج والكاوتشوك، وقد انتشرت المراكز التجارية على طول الساحل الغربي الإفريقي ودلتا الكونغو وشاركت البرتغال في هذه الغنيمة فرنسا وإنجلترا وهولندا^(٢).

وهكذا تأسس في القرن التاسع عشر عدد من المنشآت الأوروبية على سواحل إفريقيا وتطورت الأمور أن يقوم على تحديد الأوروبيين لرقعة نفوذهم على الساحل من أجل إخضاع دواخل القارة لسيطرتهم حيث كانت سلطة الأوروبيين تنحصر في الساحل وكان من الممكن أن يكون الوضع على حاله لو لم يطرأ حدث غير عادي وهو ظهور مستعمرة أوروبية من العدم أسسها ليوبولد الثاني ملك بلجيكا بصفته الشخصية لا الملكية اعترفت بحدودها القوى الأوروبية، ونتج عن هذا الحدث وضع مختلف فلم تعد المستعمرات الفرنسية والبرتغالية الساحلية قادرة على التوسع داخل القارة. ونشأ الكونغو الذي سمي بدولة الكونغو الحرة التي

(١) كان تاجر رقيق وهو من أسس الوجود العربي في الكونغو، وكان له فضل إرشاد وحماية المستكشفين الأوروبيين أمثال برتون وليفنجستون.

(٢) تقسيم إفريقيا المرجع السابق ص ١٢٤.

أصبحت فيما بعد الكونغو البلجيكي. كل ذلك نتج عن تسلطات وطموحات سياسية تميز بها رجل واحد هو ليوبولد الثاني الذى لم تطأ أقدامه قط أرض الكونغو^(١).

إن قضية الكونغو هي الأغرب على الإطلاق من بين مختلف الأحداث الغربية في تاريخ إفريقيا؛ ذلك بأن تكتسب بلجيكا وهي إحدى أصغر الدول الأوروبية لإحدى أكبر وأغنى مستعمرات إفريقيا؛ علماً بأن بلجيكا لم تكن قادرة على احتلال مستعمرة بتاتاً.

فقبل عام ١٨٣٠ لم تكن بلجيكا دولة مستقلة بل كانت تشكل جزءاً من المملكة الهولندية التى تفككت فاستقلت بلجيكا بموجب معاهدة ضمنت حيادها الدول العظمى. وتولى ليوبولد الثاني عرش بلجيكا وكانت طموحاته الاستعمارية لا حد لها. ومن الصعب تحديد التاريخ الذى بدأ فيه ليوبولد التفكير في إفريقيا، فقد فكر في ملكية بلجيكية في الصين أو اليابان أو أمريكا الوسطى أو الساحل الإفريقي، وكان يعتقد أنه يستطيع الاختيار بين إحدى هذه المناطق، وفي عام ١٨٣٣ طرح مشروع إنشاء شركة إفريقية شرقية في موزامبيق البرتغالية، ولكن هذا المشروع باء بالفشل. وفي هذه الأثناء استرعى انتباهه الرحلات التى قام بها ليفنجستون وكامبرون وستانلى ودى برازا في منطقة الكونغو.

عندما بدأ ليوبولد يرسم مخططاته الإفريقية ١٨٧٥ كان كل هؤلاء المستكشفين لا يزالون داخل أدغال إفريقيا، وفي ذلك العام عقد في باريس مؤتمر جمعية الجغرافيا، حضره ليوبولد وفيه طلب الحصول على المعلومات الخاصة باستكشاف القارة الإفريقية، وفي العام التالى ١٨٧٦ عقد ليوبولد في قصره في بروكسل ببلجيكا إجتماعاً باسم مؤتمر الجغرافيا تميز بعدد ضخم من الحضور. تضمن جدول أعماله:

١- إقامة قواعد للعمل في زنجبار وعند مصب نهر الكونغو.

٢- رسم طرق الوصول إلى المناطق الداخلية.

٣- إنشاء هيئة دولية لتنسيق هذا العمل.

باشر المؤتمر أعماله دون انتظار ورحب المشاركون بفكرة إنشاء محطات أو مراكز تستقبل المسافرين وتضطلع بدور علمي أى تجميع المعلومات الجغرافية والعرقية، ونال الاقتراح ترحيباً

(١) تقسيم إفريقيا المرجع السابق ص ١٢٧.

وقرر المؤتمر إقامة أربع محطات وإنشاء مؤسسه دولية تسمى «الجمعية العالمية الإفريقية»^(١) ومقرها بروكسل ويرأسها الملك ليوبولد.

لجنة دراسة الكونغو الأعلى:

ولدت الجمعية العالمية الإفريقية بوصفها هيئة عالمية مئة ولم تخدع كلمة عالمية إلا القليل من الدول حيث كانت بلجيكا هي البلد الوحيد الذى حمل الجمعية على محمل الجد، إلا أن الدولة البلجيكية لم تشأ تحمل أية مسئولية فيما يتعلق بالمشاريع الإفريقية، لذلك لم تقم الجمعية بنشاطات واعتمدت ديناميكية جديدة عندما وصل ستانلى إلى الشاطئ الغربى بعد رحلته الطويلة عبر إفريقيا عام ١٨٧٥.

وصل الخبر إلى أوروبا فتحرك الملك ليوبولد على الفور، ووجد فى ستانلى الشخصية التى يمكن أن تحقق أهدافه وعرض عليه الانخراط فى خدمته بأن يقوم باكتشاف الكونغو وإنشاء محطات فيه على أن تتطور هذه المراكز وتتحول إلى منشآت بلجيكية حينما يحين الوقت وتسمح الظروف. وفى نوفمبر ١٨٧٨ عقد اجتماع فى قصر بروكسل تقرر فيه تأليف لجنة دراسات الكونغو الأعلى بهدف إنشاء محطات هناك تقام فيها خطوط نهرية، وكان المفهوم السياسى لتوجيهات ليوبولد يتعلق بدعوة بعض الزنوج الأحرار ليسكنوا فيها ليطل تأثيرها رؤساء القبائل المحيطة ومن ثم تجمع هؤلاء ضمن فيدرالية جمهورية للزنوج الأحرار وتكون تابعة لليوبولد ولا أحد سواه.

كان هذا المفهوم السياسى مبهماً ورآه ستانلى محالاً، ومع ذلك تبنى الفكرة التى تقوم على أنه من الممكن للمحطات أن تعتبر دولاً أو بالأحرى دويلات صغيرة ويكون الاتحاد الفيدرالى مثيلاً للدولة. وفى أغسطس ١٨٧٩ وصل ستانلى إلى الكونغو ووقع أولى المعاهدات التى كلفه ليوبولد بإبرامها.

وعلى الجانب الآخر كان دى برازا المستكشف الثالث للكونغو يجوب الكونغو لحساب وطنه فرنسا، ونجح فى أغسطس ١٨٨٠ أن يبرم معاهدة غيرت مجرى تاريخ الكونغو هى معاهدة برازا-ماكوكو، وماكوكو هو لقب يحمله الحاكم الإفريقى الذى كان يسيطر على المنطقة.

(١) نشط الملك ليوبولد الذى أطلق عليه التمدل الاستعمارى فى الكونغو بين السنوات التى فصلت مؤتمر بروكسل هذا ومؤتمر برلين ١٨٨٤. وعادت هذه المؤسسة بفائدة كبيرة حيث أتاح له الفرصة اكتساب هذه الدولة واعتراف الدول بحدودها.

ويموجب هذه المعاهدة تنازل ماكوكو عن أراضيهِ وعن حقهِ الوراثي بالسيادة، وأرسل برازا إلى الرؤساء المحليين الذين كان يعتبرهم فصائل للماكوكو بوضع يده على أراضيهم التي تقع على ضفة الكونغو اليمنى باسم فرنسا ورفع العلم الفرنسي عليها، وسلم نسختًا من الأعلام لكي يرفعوها في قراهم كرمز لتملك فرنسا الأرض، وأقر الرؤساء بالتنازل عن أراضيهم ووقعوا العقد وكان مجموع الموقعين ستة، برازا وخمسة زعماء محليين. وعلى الضفة اليسرى للكونغو كان ستانلي يبرم معاهدات مع الحكام المحليين بين أعوام ١٨٨٠-١٨٨٥، خمسمائة معاهدة باسم ليوبولد وجمعيته كانت عبارة عن استثمارات نموذجية لملثها وتوقيعها، وبمجرد وضع الزعماء الأفارقة إشارة صغيرة عليها يكونوا قد سلموا سيادتهم لمؤسسة ليوبولد المؤسسة الدولية للكونغو.

وهنا يثور السؤال هل كانت سلطة ماكوكو حقيقية؟ وما هي الأراضي التي كان يسيطر عليها تحديدًا، أم كان شأنه شأن الملوك الذين تصادفهم في إفريقيا كل خمسة كيلومترات، وهل كان فعلاً الزعماء أو الرؤساء المحليون فصائل تابعة له؟ وماذا كانت تعنى بالنسبة للإفريقيين كلمات وضع اليد وتنازل ونقل السيادة؟ إن الإفريقيين كانوا يعتبرون تلك المعاهدات مع البيض هي نوع من الاتفاقات التجارية. وقد أبرمت المعاهدات بمواثيق مختومة بالدم وفقًا للعرف الإفريقي، ولم يكن نص هذه المعاهدات في نظرهم تسليم أراضيهم لغرباء بل لتوثيق علاقة صداقة معهم.

وأيًا كان الأمر فقد شغلت مسألة الكونغو موقعًا متزايد الأهمية على الساحة الدبلوماسية الأوروبية إذ ظهرت البرتغال تطالب بأحقيتها في الاستحواذ على الكونغو، فالبرتغاليون كانوا أول من وطئت أقدامهم أرض الكونغو، وأول من عقدوا معاهدات واتفاقيات مع أهله منذ القرن الخامس عشر، ومع ذلك كله كان الوجود البرتغالي في إفريقيا محدودًا جدًا. وقبل أن تتخذ مسألة الكونغو بعدًا دوليًا ١٨٨٢ شهدت هذه المنطقة تنافسًا بين إنجلترا والبرتغال، وكانت بريطانيا ترفض كل مطالبات البرتغال في الكونغو بحجة أنهم أول من اكتشفوا المنطقة، وكانت ادعاءات البرتغاليين في نظر بريطانيا معدومة القيمة لأنهم أهملوا الطابع المادي وهو وضع يدهم الفعلي على الأراضي؛ في حين كان الإنجليز يمسكون بيدهم ورقة رابحة فقد أبرموا معاهدات مع الزعماء المحليين منحهم بموجب هذه المعاهدات وعدًا بإلغاء العبودية مقابل الاعتراف بسيادتهم ونفى سيادة البرتغال عليها. وباءت بالفشل كل محاولات البرتغال من أجل التوصل إلى اتفاق إنجليزي - برتغالي حتى ١٨٨١، ولكن في مطلع ١٨٨٢ تغير الوضع

جذريًا. ما إن وصل إلى مسامع الإنجليز خبر معاهدة - برازا ماكوكو حتى بدأت المفاوضات بين إنجلترا والبرتغال وأصبحت الادعاءات البرتغالية تلقى فجأة الترحيب وقدم الإنجليز بعض التنازلات للبرتغاليين بسهولة لتصد الادعاءات الفرنسية عدوة بريطانيا اللدود.

وفي فبراير ١٨٨٤ وقعت معاهدة اعترفت بريطانيا بموجبها بسيادة البرتغال على الساحل الممتد على كل منطقته مصب الكونغو، ولكن هذا الاتفاق وحد جهود كل من ألمانيا وفرنسا وليوبولد لمعارضته، وأحرز ليوبولد تقدمًا على الفرنسيين بفضل العمليات التي قام بها ستانلي، ففي غضون سنة واحدة أبرم ستانلي مئات المعاهدات مع أكثر من ألفي رئيس قبيلة. وفي الوقت نفسه بسط نفوذه الفعلي بتشكيل قوة عسكرية من مئات الجنود وألف بندقية وثلاث سفن تجارية، وجر هذه القوة الحربية الكبيرة وراءه صعودًا في النهر حتى وصل إلى شلالات ستانلي، وفي الوقت ذاته أعلن ليوبولد أن دولة الكونغو الحرة سوف تتمتع بحرية تجارية مطلقة، ولما كان مطلب حرية التجارة أهم مطلب فقد أعطت خطة ليوبولد ثمارها فتخلت إنجلترا عن البرتغال واستقبل المجتمع الدولي الدولة التي أسسها ليوبولد بصفتها دولة من دون جمارك، واعترفت إنجلترا وفرنسا بدولة الكونغو ويحدودها بعد أن وعد ليوبولد بتبني نظام الحرية التجارية المطلقة في دولته المستقلة، وبهذا حصل على دعم الانجليز الذين رأوا فيه ضامنًا للتجارة أفضل من هؤلاء البرتغاليين.

وعندما انتهى المؤتمر بالتوقيع على الاتفاق لم يكسب أحد مثلما كسب الملك ليوبولد، وعندما أشير إلى اسم ليوبولد في احتفال التوقيع وقف الحضور جميعًا مصفيين. وذكر بسمارك في خطابه الختامي للمندوبين «إن دولة الكونغو الجديدة يقدر أن تكون واحدة من أهم ما أنجزنا في هذا العمل الذي اجتمعنا من أجله، وأنا أعبر عن أطيبي الأمانى لتطورها السريع وأن تحقق الأهداف التي تتوقعها». وبعد شهرين جاءت سفينة تابعة للأسطول البحرية الأمريكية وظهرت عند فم نهر الكونغو وأطلقت ٢١ طلقة مدفعية احتفالًا بدولة الكونغو الحرة ورفع علمها الأزرق ذي النجمة الذهبية.

وأخيرًا صار ليوبولد الحاكم الفرد للشعب الذي قدره ستانلي بثلاثين مليون نسمة بغير دستور وبغير رقابة دولية وبغير أن يذهب هو نفسه إلى الكونغو. حصل على مستعمرة تبلغ مساحتها ٨٠ ضعف مساحة بلجيكا تبلغ ٩٠٥,٣٥٥ ميل مربع وأكبر من ١٣ دولة أوروبية معًا هي بريطانيا وبلجيكا وإيرلندا وهولندا والدنمارك والبرتغال وسويسرا وألمانيا وإسبانيا

وإيطاليا وأرمينيا وألبانيا (وهذا هو الحجم الكبير لدولة الكونغو) وهى ثالث أكبر دولة فى إفريقيا، القارة التى صارت بفضل مؤتمر برلين مستعمرة فى الأساس لست دول أوروبية: بريطانيا وفرنسا والبرتغال وإيطاليا وألمانيا وإسبانيا.

٣. نص قرارات مؤتمر برلين

نصت إتفاقية مؤتمر برلين التى وقعتها ١٤ دولة فى ٢٦ فبراير ١٨٨٥ على^(١):

الفصل الأول يتعلق بحوض نهر الكونغو:

مادة ١: يجب أن تتمتع تجارة الدول كلها بالحرية الكاملة.

مادة ٢: كل الأعلام بغير تمييز بين الدول لها حرية الوصول إلى كل سواحل الأقاليم.

مادة ٣: كل البضائع أيًا كان مصدرها التى ترد إلى كل الأقاليم تحت أى علم كان بالبحر أم بالنهر أم بالبر يجب ألا تخضع لضرائب أكثر مما يتقرر بوصفه تعويضًا عادلاً عن النفقات لصالح التجارة.

مادة ٤: البضائع المستوردة إلى هذه الأقاليم يجب أن تبقى معفاة فى الاستيراد والنقل، ويمكن تعديل هذا الحكم بعد ٢٠ سنة.

مادة ٥: ليس من حق أية دولة فى استخدامها لحقوق السيادة فى هذه الأقاليم أن تسمح بمنح احتكار أو ميزة من أى شكل فى مسائل التجارة.

مادة ٦: كل القوى التى تمارس حقوق السيادة أو النفوذ فى الأقاليم المعنية يلزمون أنفسهم بمراعاة مصالح القبائل المحلية وتحسين أوضاعهم المادية والمعنوية والمساعدة فى قمع العبودية وبخاصة تجارة العبيد، ويجب عليهم بغير تمييز فى العقيدة أو الوطن أن يجمعوا كل المؤسسات الدينية والعلمية والخيرية وغيرها، وأن يحموا بعثات التبشير المسيحية والعلماء والمستكشفين وأتباعهم، والملوكيات والجماعات كلها يتعين أن يكون مشمولاً بهذه الحماية الخاصة. وإن حرية العقيدة والوعى مضمونة لكل الأهالى بما لا يقل عن الرعايا والأجانب.

الفصل الثانى: الوثائق الخاصة بتجارة العبيد

مادة ٩: إن القوى التى تمارس حقوق السيادة والنفوذ فى هذه الأقاليم المكونة لحوض

(١) مجله New African عدد فبراير ٢٠١٠.

الكونغو يعلنون أن هذه الأقاليم لن يكون مسموحًا بأن تكون سوقًا لتجارة الرق أو وسيلة لنقلهم أيًا كان عنصر هؤلاء العبيد. وإن هذه القوى تلزم نفسها بأن تستخدم كل مالهيا من إمكانيات لإنهاء تجارة العبيد ومعاقبة من يرتبطون بها.

الفصل الرابع: النص الخاص بالملاحة في الكونغو

مادة ١٣: إن الملاحة في نهر الكونغو بغير استثناء من روافده أو فروعها يجب أن تبقى حرة أمام السفن التجارية للأمم كلها متساوية، وإن رعايا هذه الأمم والدول وإعلامها يجب في كل المجالات أن تعامل على قدم المساواة التامة، ولا يجوز منح مزية في الملاحة لأي من الشركات أو الاتحادات أو الأفراد لأي سبب.

الفصل الخامس: النص الخاص بالملاحة في نهر النيجر

مادة ٢٦: إن الملاحة في النيجر بغير استثناء لأي من روافده أو فروعها يجب أن تبقى حرة تمامًا بالنسبة للسفن التجارية من كل الجنسيات المتساوية (كل من بريطانيا وفرنسا التي لكل منها أجزاء في إقليم النيجر ويخضع لحمايتها يتعهدان بأن تطبقا حرية التجارة على أقاليمها).

الفصل الخاص بالنسبة للاحتلال الجديد لسواحل إفريقيا

مادة ٣٤: إن أي دولة تسيطر أو تحوز جزءًا من أرض في سواحل القارة الإفريقية بخلاف مانحوزه الآن يجب أن تعلن أنها تحت حمايتها وأن يصحب ذلك إعلان لكل الدول الموقعة على هذه الاتفاقية لتمكينها من الاحتجاج على هذا الصنيع إن كان ثمة ما يدعو لذلك.

مادة ٣٥: إن الدول الموقعة على هذا الاتفاق يعترف بوجود قيام سلطة في الأقاليم المحتلة على سواحل القارة الإفريقية تكون كافية لحماية الحقوق المقررة ولحماية حرية التجارة والانتقال بالشروط المتفق عليها.

مادة ٣٧: إن الدول الموقعة على هذا الاتفاق العام تحتفظ لنفسها بالحق في الاتفاقيات المتبادلة للتعديل والإصلاح وفقًا لما يتبين من الخبرة الجارية.

بتحليل هذه البنود يمكن القول أن المؤتمر نجح في تحقيق هدفين أساسيين هما:

أولاً: قيام دولة كبرى في قلب إفريقيا الاستوائية (دولة الكونغو الحرة) تكون من الناحية الاسمية مفتوحة لكل الشعوب وبعبدة عن المنافسات الدولية.

ثانيًا: وضع أسس التنظيمات الاقتصادية المتعلقة بالمناطق الداخلية للقارة، وهو ما دفع عجلة التكالب الاستعماري على القارة، هذا التكالب الذي يعنى بالضرورة الاحتكاك بالقوى الوطنية الإفريقية التي كانت هي الأخرى تسعى لإنشاء الممالك الإسلامية وشهدت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر سلسلة من الحروب بين القوى الإسلامية والدول الأوروبية التي سعت للاحتلال الفعلي في أقاليم القارة حسب قرارات مؤتمر برلين، وكان الصدام أمرًا محتّمًا ولم يتوقف حتى قيام الحرب العالمية الأولى^(١)

ع. أسلاب المؤتمر

قبل انعقاد مؤتمر برلين كانت الدول ذات الأثر الفعال في تلك الفترة هي إنجلترا وفرنسا، والبرتغال التي كانت تدعى السيطرة على مناطق شاسعة منذ أيام مجدها في فترة الكشوف الجغرافية في القرن السادس عشر، ولكن احتلالها الفعلي لهذه المناطق لم يكن مؤثرًا. كانت فرنسا قد استقرت في أوائل القرن التاسع عشر في الجزائر ثم بدأت تتطلع نحو الساحل الغربي من القارة نحو النيجر وبسطت نفوذها على جزيرة مدغشقر في الساحل الشرقي الإفريقي. كذلك اتجهت بريطانيا إلى جنوب القارة ومدت سيطرتها على منطقة زنجبار في الشرق، وتطلعت إيطاليا إلى تونس وطرابلس الغرب وقامت بوضع قدم لها في منطقة خليج عصب شال أوبوك.

تلك كانت الصراعات الدولية قبل أن تفجر ألمانيا مشكلة التكالب على إفريقيا بعد الثورة الصناعية التي كانت تتطلب الحصول على مناطق المواد الخام والأسواق لتصريف المنتجات الصناعية، ودخلت بلجيكا حلبة التنافس الاستعماري للاستيلاء على الكونغو، وكان احتلال بريطانيا لمصر مقدمة لمرحلة التكالب الاستعماري.

عندما افتتح مؤتمر برلين في ١٥ نوفمبر ١٨٨٤، كانت البرتغال واحدة من الداعين الأساسيين له، وقدمت في افتتاحه ما صار يعرف باسم الخريطة القرمزية (أي الخريطة ذات اللون الوردى) التي تشير إلى أن المستعمرات البرتغالية تمتد من أنجولا غربًا إلى موزمبيق شرقًا وتضم الأراضي الشاسعة التي صارت فيما بعد زامبيا وزيمبابوي مالاوي.

والغريب أن كل الدول المشاركة في المؤتمر فيها عدا بريطانيا وافقت على أن تكون البرتغال

(١) المسلمون والاستعمار الأوروبي لإفريقيا. د. عبد الله عبدالرازق إبراهيم - عالم المعرفة العدد ١٣٩ (سلسلة كتب يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (الكويت).

هى المالك الجدير بهذه الأراضى الشاسعة التى تبدأ من أنجولا على الساحل الغربى إلى قلب القارة الداخلى حتى موزمبيق على الساحل الشرقى. وبالنسبة للأنتى عشرة دولة الحاضرة فى المؤتمر صار ذلك صفقة متتهية، ولكن إنجلترا كانت لها تخطيطات أخرى.

فى عام ١٨٩٠ أى بعد خمس سنوات من المؤتمر فإن بريطانيا (لندن) أمرت البرتغال لتسحب من الأراضى الداخلية أو يكون عليها أن تواجه القوة البريطانية العسكرية بكاملها، وقد أطاعت البرتغال هذا الأمر وصارت هذه المنطقة بريطانية ومن ثم قسمت إلى روديسيا الشمالية (زامبيا) وروديسيا الجنوبية (زيمبابوى) ونياسالاند (مالاوى). وقد كانت بريطانيا مهتمة بالأساس باستبقاء مواصلاتها إلى الهند ومن ثم اهتمت بمصر وجنوب إفريقيا. ومع الاطمئنان إلى الوضع فى هذين الإقليمين (مصر وجنوب إفريقيا) بدأت تفكر بدافع من المخطط الاستعمارى سيسل رودس فى أن تحصل على تجميع للأراضى من القاهرة حتى كيب تاون وتقيم سكة حديد بين هاتين المدينتين، ونجحت بريطانيا فى السيطرة على مصر والسودان (السودان المصرى الإنجليزى) والصومال وأوغندا وكنيا (شرق إفريقيا البريطانى) ونياسالاند وروديسيا الجنوبية وبتشوانالاند (بتسوانا) وليسوتو وسوازيلاند وجنوب إفريقيا أى فى الوسط والجنوب الإفريقى، وفى غرب إفريقيا سيطرت بريطانيا على نيجيريا وساحل الذهب (غانا) وسيراليون وجامبيا.

أما فرنسا الراح الكبير الآخر فقد حصلت على الكثير فى غرب إفريقيا ووسط إفريقيا موريتانيا والسنغال ومالى وغينيا وبوركينا فاسو وكوت ديفوار والنيجر وتشاد وبنين (كل هذه الأقاليم كانت تسمى غرب إفريقيا الفرنسية) وذلك حتى الجابون، وجمهورية إفريقيا الوسطى وكونغو برازافيل. وهذه كلها تكون إفريقيا الاستوائية الفرنسية)، والصومال الفرنسى (جيبوتى حالياً) فى الساحل الشرقى ومدغشقر فى الجنوب الشرقى.

وبالنسبة للبرتغال فقد فقدت الاراضى الوسيطة ولم يبق لها سوى أنجولا على الساحل الغربى وموزمبيق على الساحل الشرقى، وجزر كيب فيرد Cap Verde فى إفريقيا الغربية.

وألمانيا فى عهد بسمارك وافقت أن تترك إقليم الكونغو الواسع للملك ليوبولد باعتباره ملكية خاصة له وحصلت فى مقابل ذلك على جنوب غرب إفريقيا (ناميبيا الآن)، وفى الشرق الإفريقى تضمنت ممتلكات ألمانيا تنجانيقا ورواندا وبورندى (وهى الآن تانزانيا ورواندا وبورندى)، والكاميرون وتوجو، ولسوء حظ الألمان أنهم فقدوا كل هذه المستعمرات الإفريقية بهزيمتهم فى الحرب العالمية الأولى.

أما إيطاليا فقد أخذت الصومال (الصومال الإيطالي) وجزءاً من اثيوبيا؛ في حين حصلت إسبانيا على إقليم صغير هو غينيا الاستوائية (سمى وقتها ريو موني Rio Muni، ثم بعد ذلك الصحراء الغربية.

ورغم أن النص الأصلي لمؤتمر برلين تضمن قراراً «بالمساعدة في قمع العبودية» فإن القوى الأوروبية لم تلتفت إليه ووجدت أن الاهداف الاقتصادية والاستراتيجية التي تحصل عليها من المستعمرات الإفريقية هي الأهم باعتبار أن المؤتمر وضع القواعد والأسس التي تجعل الثغور الخاصة بالكونغو ونهر النيجر والأحواض الخاصة بهما محايدة ومفتوحة للتجارة الأوروبية.

ولمنع الاحتيال والتبديد فإن النص الأساسي يطلب من القوى الأوروبية ألا تكون لها مستعمرات إلا ما تستطيع السيطرة عليه فعلاً باتفاقات تجريبها مع الرؤساء المحليين أو برفع الأعلام على الأرض وبنشاء إدارة لهذه الأراضي تستطيع حكمها وقوة بوليس لحفظ النظام. إن القوة الاستعمارية يمكن أن تستخدم المستعمرة من الناحية الاقتصادية، وإذا لم تستطع فعل هذه الأشياء يمكن لقوة أخرى أن تقوم بها وأن تحصل على هذا الإقليم. ولذلك صار من المهم إقناع الرؤساء المحليين بتوقيع اتفاقيات الحماية وإيجاد قوة بوليسية كافية في المنطقة.

ولإجابة هذه المطالب عملت القوى الأوروبية على إرسال حملات عسكرية تجبر الحكام الأفارقة على توقيع المعاهدات وتستخدم القوة عند الضرورة وكثيراً ما أدى هذا الأمر إلى وضع الرؤساء الإفريقيين بصمات أصابعهم على معاهدات كتبت بلغات غريبة لم يقرأوها ولم يفهموها. «إن المادة ٣٤ من اتفاقية برلين ذكرت أن أى دولة أوروبية تحوز ساحلاً إفريقياً أو تعتبر نفسها حامية له عليها أن تبلغ القوى المتعاقدة والموقعة على اتفاقية برلين بهذا الصنيع، وإذا لم يحدث ذلك فإن ما أعلنته لا يكون معترفاً به». وهذه المادة أدخلت ما عرف باسم نظرية «مجال النفوذ»، وإن عبارة السيطرة على الساحل تعنى انهم يسيطرون على الأراضي التي خلفه لمسافات غير محدودة. وذكرت المادة ٣٥ «إنه من أجل احتلال منطقة ساحلية فإن القوى الاستعمارية يتعين عليها أن تثبت أنها مهيمنة على السلطة في هذه المنطقة لتحمل الحقوق المكتسبة بالنسبة للحريات والتجارة والنقل، وهذا ما سمي بنظرية «الاحتلال الفعلي» وهو ما جعل غزو إفريقيا عملية أقل دموية بالنسبة للدول الأوروبية الاستعمارية .. إنها بالطبع أقل دموية بالنسبة للأوروبيين لا بالنسبة للإفريقيين».

٥. مضمون مؤتمر برلين

كانت عملية تقسيم إفريقيا تدور بين المنافسة والاتفاقات الثنائية، كان التقسيم يجري

بالمناصفة بين فرنسا وإنجلترا. وعلى صعيد آخر كانت أوروبا مسرحاً للتنافس الفرنسي الألماني. وفي أثناء البحث عن حلول لمسألة الكونغو ظهرت الدبلوماسية الجماعية بدلاً عن الدبلوماسية الثنائية مجسدة في مؤتمر برلين الدولي، فصورة المؤتمر الذي يرأسه زعيم ألمانيا ويجتمع فيه زعماء أوروبا لكي يخططوا لتقسيم قارة بأكملها كانت مدهشة، تم تنظيم المؤتمر تحديداً بسبب السباق الفوضوي في القارة من أجل الحصول على أكثر ما يمكن من المستعمرات وامتلاك أكبر ما يمكن من مناطق نفوذ، وحاول المؤتمر تنظيم هذه السيطرة فالمؤتمر كان يناقش الاتفاقات والاعتراف بالدول المستقلة ويعين حدودها بينما الضم الاستعماري في إفريقيا كان يتتابع بوتيرة متسارعة، وقد حاول المؤتمرون أن ينجزوا هذه الاتفاقات لكنهم لم ينجحوا سوى في مناطق الساحل التي كانت كلها محتلة أو معظمها تحت الاحتلال، أما في الداخل فقد استعر السباق للبحث عن «مناطق نفوذ» ودخل هذا المفهوم القانون الدولي.

الحجة الأولى في مذهب هذا القانون هي مبدأ «المنطقة الداخلية» يركز هذا المبدأ على أن أية قوة تطالب بأحد السواحل سيكون من حقها أن تغزو منطقته الخلفية (وقد تم تناول هذا المبدأ في مؤتمر برلين) والمشكلة الأساسية في هذا المبدأ أنه ليس معروفاً نقطة البداية ونقطة النهاية في المنطقة الخلفية. ظهرت طبيعة هذه المشكلة حين طالب الفرنسيون بضم نيجيريا ذاهبين أنها تشكل المنطقة الخلفية للجزائر! ورفض الانجليز الاعتراف بهذا المبدأ ورأوا أن الفرنسيين والألمان يستخدمونه لمد سلطتهم إلى كل البلدان وحتى القطب الشمالي (وعلى الرغم من ذلك فقد استخدمه البريطانيون في المباحثات ضد الألمان في إفريقيا الشرقية).

والحجة الأخرى التي جرى استعمالها هي حجة التملك حسب المعاهدات، وقد ظلت هذه المعاهدات والاتفاقات عرضة للاحتجاج والنقض في إفريقيا من قبل الدول الأوروبية. عبر بسمارك عن هذا الواقع بقوله «من السهولة بمكان أن تحصل في إفريقيا على قطعة من ورق يخريش عليها رجل أسود». وكان الدبلوماسيون يعرفون جيداً أن هذه المعاهدات والاتفاقات ليس لها أية قيمة فعلية. ولم يكن مبدأ «المنطقة الخلفية» ولا مبدأ احترام المعاهدات ذو قيمة وإنما المبدأ الأكثر فعالية هو مبدأ الاحتلال الفعلي.

بعد مؤتمر برلين خرجت المعاهدات الثنائية عن إطارها وتداخلت مطالب القوى الاستعمارية مما حدا بها أن ترسم مناطق نفوذها وحقوقها وهو ما جعل لورد سالسبوري يقول عبارته الشهيرة «لقد اعطينا لبعضنا جبالاً وأنهاراً وبحيرات. في حين أننا لم نكن نعرف أين تقع

هذه الأشياء بالضبط ولم يثر أية غرابة أو دهشة، وقد تبين في بعض الأحيان أن جبلاً وأنهاراً وبحيرات لم تكن موجودة أصلاً.

أصبحت المعاهدات مجرد لعبة سياسية ففى خلال الأعوام من ١٨٨١-١٩٠٥ عقدت فرنسا وإنجلترا ٤٢٩ معاهدة بشأن الحدود المشتركة فى إفريقيا الغربية وحدها^(١). وشهدت أوروبا سلسلة من المعاهدات والاتفاقات لم تشهد السياسة مثلها فى أى عصر من العصور فشهدت سنوات:

١٨٨٥ : اتفاقاً بين بلجيكا والبرتغال وآخر بين بلجيكا وفرنسا بشأن الكونغو.

١٨٨٦ : اتفاق ألمانيا وإنجلترا بشأن شرق إفريقيا.

١٨٨٧ : اتفاق بين بلجيكا وفرنسا بشأن الحدود فى منطقة الكونغو.

١٨٨٨ : اتفاق فرنسى إنجليزى بشأن الصومال.

١٨٨٩ : نزول الإيطاليين فى الصومال الإيطالى.

١٨٩٠ : اتفاقية تقسيم شرق إفريقيا بين بريطانيا وألمانيا بمقتضاها أصبحت أوغندا من نصيب بريطانيا.

اتفاقاً فرنسياً بريطانياً بشأن الصحراء، واتفاقاً بريطانياً برتغالياً بشأن اعتراف بنىاسالاند.

١٨٩١ : معاهدة إنجلترا مع ملك أوغندا، واتفاقاً انجليزياً وإيطالياً بشأن الصومال.

١٨٩٢ : احتلال أوغندا.

١٨٩٤ : اتفاقاً إنجليزياً إيطالياً بشأن أريتريا، ومعاهدة بين البرتغال وبلجيكا وإنجلترا بشأن حدود الكونغو، واتفاقاً ألمانياً فرنسياً بشأن الصحراء الكبرى^(٢).

ترتب على هذه المعاهدات والاتفاقات أن تغيرت خريطة إفريقيا تماماً وبدأت الدول الاستعمارية تمارس نفوذها الفعلى عقب انتهاء المؤتمر فى فبراير ١٨٨٥. ففى يونيو ١٨٨٥، بدأت بريطانيا تكوين محمية لها فى ساحل النيجر، وفى المنطقة الواقعة بين لاجوس والكاميرون، ثم توسعت شيئاً لئصل إلى الدول الإسلامية فى إمبراطورية الفولانى، وفى جنوب القارة

(١) مجلة New African عدد فبراير ص ٢٤.

(٢) الاستعمار الأوروبى لإفريقيا فى العصر الحديث - د. زاهر رياض ص ٢٤.

توسعت بريطانيا من مستعمرة الكاب شمالاً بإعلان الحماية على بتسوانالاند واعترف بادعاءاتها في زنجبار وكينيا وأوغندا والروديسيات، وحددت مناطق النفوذ البريطانى فى غرب إفريقيا على أربع مستعمرات هى جامبيا وسيراليون وغانا ونيجيريا.

وفى يونيو أيضاً عام ١٨٨٥ وقّعت اتفاقية ألمانية مع توجو وضعت بمقتضاها توجو تحت الحماية الألمانية.

وعقدت فرنسا معاهدة مع حكومة الكونغو يكون نهر أوبانجى فرع الكونغو الغربى هو الحد الفاصل بين الحدود الفرنسية وحدود دولة الكونغو، المنطقة الشمالية منطقة فرنسية والمنطقة الجنوبية دولة الكونغو الحرة. ووقعت فرنسا أيضاً معاهدة مع بريطانيا بخصوص نيجيريا مقابل اعتراف بريطانيا بالمحمية الفرنسية فى مدغشقر.

لم تكن هذه الاتفاقيات نهاية التمزيق والتفتيت والخضوع الإفريقى فعلى أثرها اشتعلت الحروب التى عمت أنحاء القارة. وتعد الفترة من عام ١٨٩١ حتى قيام الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ سنوات الحرب فى إفريقيا، شهدت هذه الفترة استعمار السودان للصالح البريطانى والحرب بين إيطاليا والحبشة وحروب جنوب إفريقيا، والحروب بين إمبراطورية التوكورور والفرنسيين، وحروب سامورى مع الفرنسيين، وحروب الشيخ محمد الأمين ضد الفرنسيين، وحروب المجاهدين المسلمين ضد القوى الأوروبية، وصراع محمد عبد الله حسن زعيم الجهاد فى الصومال ضد القوى الأجنبية ورابع فضل الله ضد الفرنسيين فى منطقة تشاد، وكل هذه الحروب حملت فى طياتها الطابع الدينى والجهاد الإسلامى ضد القوى الأوروبية^(١).

خلاصة القول أن مؤتمر برلين الذى مزق إفريقيا لم يجلب خيراً لها ولم يطورها. كانت لمخططاته الاستعمارية خلفيات اقتصادية وهى استخلاص ثروات القارة لصالح القوى الاستعمارية. وبالنسبة للإفريقيين الذين أضعفتهم العبودية وتناجها والحماية الدولية المزيفة ولم يكن ذلك يعنى فقط إنكار حقهم فى تقرير المصير، ولكنه يعنى أيضاً إخضاعهم لآلات الدول الاستعمارية التى أنكرت على الإفريقيين الحق فى استثمار اقتصادهم ومهدت الطريق للسيطرة الاقتصادية للدول الغربية.



(١) المسلمون والاستعمار الأوروبى - المرجع السابق ص ٣٠.

الفصل الثالث

اقتسام الفطيرة الإفريقية

- حتى الغزو.
- الاستعمار الفرنسي.
- الاستعمار البريطاني.
- الاستعمار البلجيكي.
- الاستعمار الألماني.
- الاستعمار الإيطالي.
- الاستعمار البرتغالي.
- الاستعمار الإسباني.

اقتسام الفطيرة الإفريقية

١- حمى الغزو

كانت الدوافع الاستراتيجية من أهم الدوافع التي حدثت بالأوروبيين لاستعمار إفريقيا، فأوضاع فرنسا بعد هزيمة بونابرت وعودة الملكية كانت من أهم الأسباب التي دفعت للتفكير في غزو الجزائر. كذلك الأوضاع الداخلية في ألمانيا وانتشار حركة التذمر وضغط الرأي العام الألماني على حكومته لتحذو حذو فرنسا وبريطانيا جعلت بسمارك يغير رأيه بعد أن كان محجماً عن الزج بألمانيا في ميدان الاستعمار فاندفع إليه ونادى بعقد مؤتمر برلين لبحث كيفية ممارسة الدول الاستعمارية نشاطها الاستعماري في إفريقيا دون أن يصطدم بعضها ببعض الآخر^(١).

لقد فتح مؤتمر برلين (الكارثة) الباب على مصراعيه للتنافس والصراع الدولي بين القوى الاستعمارية للاحتلال القارة. ونصت المادة ٣٤ من قرارات المؤتمر صراحة: «إن أى دولة تسيطر أو تحوز جزءاً من أراضي سواحل القارة الإفريقية بخلاف ما تحوزه يجب أن تعلن أنها تحت حمايتها، وأن يصبح ذلك إعلان لكل الدول الموقعة على هذه الاتفاقية لتمكنها من الاحتجاج على هذا الصنيع». وذكرت المادة ٣٥: «إنه من أجل احتلال نقطة ساحلية فإن القوى الاستعمارية يتعين عليها أن تثبت أنها مهيمنة على السلطة في هذه المنطقة». وإن عبارة السيطرة على الساحل تعنى أنهم يسيطرون على الأراضي التي خلفه لمسافات غير محددة. وبهذه البنود اندلعت حمى الغزو والتنافس الاستعماري لإفريقيا.

ويمكن القول أن مستقبل إفريقيا تقرر في مؤتمر برلين، وبه تدشن عصر جديد أنيط به عملية تقسيم القارة بالدبلوماسية الأوروبية، وتحول نشاط القوى الاستعمارية إلى اندفاع محموم لالتهام الفطيرة: فكيف تم ذلك، وكيف التهمت القارة وقطعت شلواً شلواً، وما هي

(١) الموسوعة الإفريقية - المجلد الثاني تاريخ إفريقيا - إصدار جامعة القاهرة البيوتل الذهبي لمعهد البحوث والدراسات الإفريقية مايو ١٩٩٧ ص ٣٣٢.

الدول التي فازت بالنصيب الأكبر؟ بإيجاز قامت فرنسا وبريطانيا بالدور الرئيسي في السباق على المستعمرات؛ في حين شغلت ألمانيا منصبًا ثانويًا ثم لحقتها إيطاليا.

وقد فضلت كل من بريطانيا وإيطاليا وألمانيا أن تلجأ أولاً إلى منح استغلال الأجزاء التي ترنوا إليها شركات تقوم الحكومة بمنحها بعض الحماية والمساعدة المالية، وذلك رغم اختلاف دواعي هذه السياسة، فقد كانت سياسة إنجلترا تتأرجح دائماً بين حرية التجارة التي يتبعها حزب الأحرار وسياسة بناء الإمبراطورية التي يتبعها حزب المحافظين. بينما لجأت ألمانيا إلى سياسة الشركات بسبب احجام الحكومة الألمانية عن القيام بمغامرات استعمارية لأنها كانت ترى أن هذه المستعمرات لن تكون إلا عبئاً على ألمانيا الناشئة، كما أنها قد تضطرها إلى الدخول في حروب تضرها وهي ما زالت في دور التكوين أكثر مما تنفعها. بينما كانت إيطاليا أفقر من أن تقوم بالمغامرات الاستعمارية، هذا بينما لجأت فرنسا إلى سياسة استعمارية صريحة معتمدة على عطف الدول عليها بعد هزيمتها في حرب السبعين.

٢- الاستعمار الفرنسي

كان جوهر الأفكار الإمبريالية الجديدة التي استمدت منها السياسة الرسمية للحكومة الفرنسية الموافقة على أن تضطلع الدول بدور أكبر في الشؤون الاستعمارية. وفي إنجلترا أيضاً بدأت هذه الأفكار تفرض نفسها، ودخلت ألمانيا هذا الصراع بعدما استولت على توجو. واحتدم التنافس حتى أصبح كل علم إنجليزي يجاوره علم فرنسي حتى بات الأمر يؤذن بوقوع حرب بينهما. وبما أن فكرة خوض حرب من أجل صحراء إفريقيا كما كان ينظر إلى هذه المنطقة (منطقة غرب إفريقيا) فقد تمالك المعسكران الفرنسي والبريطاني نفسيهما ووضعاً حاداً لتنافسهما بمعاهدة ١٨٩٨. ويمكن القول أن بريطانيا أول من أثار الاهتمام بإفريقيا الغربية إلا أن فرنسا تمكنت من نشر سيطرتها على هذه المنطقة، وذلك لأن الفرنسيين كانوا يريدون بناء إمبراطورية من خلال غزوات عسكرية؛ في حين كان الإنجليز يطبقون سياسة الاستحواذ من خلال التجارة، وإذا حصلت فرنسا على الجزء الأكبر من الأراضي فقد سيطرت إنجلترا على المنطقة الأثرى اقتصادياً^(١).

يعود الوجود الفرنسي في إفريقيا الغربية إلى القرن السابع عشر عندما أسس الفرنسي

(١) تقسيم إفريقيا - المرجع السابق، ص ٣٢٩

فما بعد مستعمرة فرنسية. وقام اقتصاد هذه المستعمرة على تجارة العبيد التي يتم الحصول عليهم من الداخل من مناطق تقع خارج منطقة النفوذ الفرنسي. وكان الفرنسيون يخافون من أن يقوم الإنجليز بإرسال حملة بهدف احتلال المنطقة، وأدى هذا الخوف إلى القيام بسياسة التوسع العسكري التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ إفريقيا. ورأت فرنسا في السودان الغربي والسنغال «كندا» الجديدة أو الهند الفرنسية التي ستكون تعويضاً متأخراً لهذه المستعمرات التي تنازلت عنها فرنسا لإنجلترا في القرن الثامن عشر.

ويطلق اسم السودان الفرنسي أو إفريقيا الغربية الفرنسية على المستعمرات التي تقع في غرب إفريقيا وهي موريتانيا والسنغال وغينيا وداهومى والنيجر وساحل العاج (كوت ديفوار) وفولتا العليا (بوركينا فاسو). وحتى عام ١٨٥٠ لم تكن هذه المستعمرات أكثر من مراكز تجارية أنشأها تجار بريطانيون وهولنديون وغيرهم. كانت فرنسا على اتصال بتجارها وتزويدهم بالحماية التي يطلبونها إذ كانت معظم المراكز تتعرض لهجمات الأهالي الوطنيين أو بعض الزعماء المحليين، وقد تعرضت هذه المراكز الفرنسية بالواقع في يد البريطانيين في خلال الحروب النابوليونية (١٧٩٥ - ١٨١٤) ولكنها أعيدت إلى فرنسا بعد مؤتمر فيينا ١٨١٥، وأخذت فرنسا منذ ذلك الوقت تتدخل تدخلاً مباشراً في هذه المراكز وترسل إليها رسلها ليتصلوا بالزعماء الوطنيين ليعقدوا معهم معاهدات يرضى فيها هؤلاء أن يضعوا أنفسهم تحت الحماية الفرنسية. وظلت هذه السياسة بطيئة حتى منتصف القرن، وظهرت واضحة عام ١٨٥٤ عندما عينت حاكماً عاماً على إقليم السنغال، ونشطت فرنسا في نشر نفوذها في إفريقيا عقب هزيمتها في حربها مع ألمانيا ١٨٧٠ من أجل استعادة مركزها المنهار وتعويض خسارتها في إقليمى الألزاس واللورين، وكان ذلك يجرى تحت سمع وبصر الدول الأوروبية الأخرى حيث كانت ألمانيا منصرفة إلى تدعيم وحدتها وترى في انشغال فرنسا بشئونها الإفريقية ما يلهيها عن الانتقام. وكانت بريطانيا منصرفة إلى تدعيم تجارتها، ولم تكن قد كونت بعد فكرة واضحة عن استعمار أجزاء من إفريقيا إذ كانت تجدد في إمبراطوريتها التي بنتها في كندا وجنوب إفريقيا وأستراليا عناء لا فائدة من ورائه.

تم دخول فرنسا إلى غرب إفريقيا عبر سياسة غزو منهجية وحروب دائمة؛ ذلك أن التوسع الفرنسي في هذا الجزء كان قائماً على سياسة غزو واضحة، وكان الهدف الاساسى تحويل السنغال إلى مستعمرة لإنشاء إمبراطورية فرنسية كبرى في غرب السودان تربط المناطق الفرنسية الثلاثة في إفريقيا الجزائر والكونغو الفرنسي وإفريقيا الغربية الفرنسية؛ لذلك فإن توسعاً من السنغال نحو الشرق باتجاه بحيرة تشاد كان أساسياً.

أما العنصر الثانى فهو اللجوء المنهجى إلى الوسائل التعاقدية. كان التوسع فى أماكن أخرى بشكل عام يتم بعقد اتفاقيات يقبل بموجبها الزعماء الأفارقة حماية القوى الأوروبية ويتنازلون لها عن سيادتهم، وقد أبرمت اتفاقات كهذه فى السودان الغربى إلا أنها لم تكن ذات قيمة كبيرة فتوسع القوى الأوروبية واجه مقاومة شديدة من الممالك الإسلامية التى كانت قائمة، وكان السودان معدوداً من بين البلدان الغنية والقوية التى تتمتع بجهاز عسكرى صلب وتربطها وحدة فكرية مرتكزة على الإسلام، وإن كانت هذه الممالك الإسلامية لم تتمكن من توحيد قواها فكان الانقسام نقطة ضعفها.

فمن وجهة نظر فرنسا كان المغرب العربى قلب الوجود الفرنسى فى إفريقيا وبذلك تصبح المنطقة السوداء هى الخلفية للإمبراطورية الإفريقية الفرنسية، وهذا يقتضى ربط إفريقيا بعضها ببعض؛ لذا يتعين الانطلاق من الجزائر لتجاوز الصحراء لربط منطقتى الغرب الإفريقى السنغال والسودان الغربى مع بعضها، ثم ربط هذا الجمع بالممتلكات فى إفريقيا الوسطى. باختصار إنشاء أكبر إمبراطورية استعمارية فى العالم، وهذا يقتضى العمل سريعاً على احتلال فعلى لهذه الأراضى وعقد اتفاقات دولية ومعاهدات مع زعماء البلاد الإفريقية واحتلال أراضيهـم وبالتالى تجديد الجهود العسكرية^(١).

وإذا ما عقد مؤتمر برلين وأباح للدول الغربية الاستيلاء على أجزاء من القارة حتى نشطت السياسة الفرنسية فى غرب إفريقيا واتخذت من السنغال قاعدة للانطلاق نحو المناطق الداخلية، ولم يقتصر النشاط الفرنسى على المناطق الداخلية الواقعة شرقاً وإنما امتد ليشمل منطقة ساحل غينيا حيث نجح الفرنسيون فى تأسيس مستعمرتين مستعمرة داهومى (بنين حالياً) ومستعمرة ساحل العاج (كوت ديفوار)^(٢).

وبادرت فرنسا بإعلان حمايتها على هذه المستعمرات الفرنسية وإعلان معاهدات الحماية التى عقدتها مع الزعماء المحليين. كانت إنجلترا وألمانيا بدأتاً أيضاً بالحصول على المستعمرات ومن ثم بدأ الصراع الفرنسى البريطانى الألمانى، وظهر هذا الصراع واضحاً فى التسابق نحو حوض النيل الأعلى حينما قاد الجنرال الفرنسى مارشان حملة حربية من الكونغو الفرنسى (كونغو برازافيل) من أجل الوصول إلى بحر الغزال، إلا أن الدولتين فرنسا وإنجلترا سرعان ما تفاهما

(١) بحوث ودراسات ووثائق فى تاريخ إفريقيا الحديث - د. إلهام محمد على ص ٨٦.

(٢) تقسيم إفريقيا - المرجع السابق ص ٣١٣ - ٣٢٩.

على تقسيم المناطق الإفريقية فاعترفت إنجلترا لفرنسا بحدود السنغال، واعترفت ألمانيا لها بحدود داهومي وغينيا، ومن ثم انصرفت فرنسا إلى مد النفوذ الفرنسى إلى بحيرة تشاد فخرجت حملة من السنغال لتقابل أخرى من الجزائر وثالثة من الكونغو.

كرست فرنسا جهودها للاستيلاء على تشاد، فأرسلت إلى بحيره تشاد ثلاث حملات، وانطلقت الحملات الثلاث ١٨٩٩ للتخلص من «رابح» سيد المنطقة قائد المقاومة الإفريقى، ووقعت المعركة الحاسمة ١٩٠٠ وانتهت بهزيمة «رابح» وقتله ووقعت المنطقة بين أيدي الفرنسيين، وحقت فرنسا مشروعها الكبير في تشاد. وأدرجت عملية سيطرة فرنسا على موريتانيا في الإطار نفسه، ولم تكن هذه المنطقة المرتبطة نظريًا بالسنغال موضعًا للمطامع فألحقت فرنسا موريتانيا بها بسهولة بموجب معاهدة فرنسية إسبانية. وأدت هذه الجهود إلى إخضاع إفريقيا الغربية لدائرة نفوذ الفرنسيين، وبدت الممتلكات الإسبانية والألمانية والبرتغالية القليلة المنشورة على خريطة إفريقيا الغربية جيوبًا صغيرة في منطقة النفوذ الفرنسى.

على أن أعظم ما وقف في وجه فرنسا كانت قوتان كبيرتان هما قوة رابح في السودان وقوة السنوسيين. كان رابح من أنصار الزير باشا الذى فتح دارفور تحت إمرة الحكومة المصرية، ولكن الزير اصطدم مع مصر فاعتقل في مصر، ومن ثم استقل رابح بجزء كبير من جيش سيده الزير واتجه نحو الغرب إلى دارفور ثم وداى واتخذ البلاد الواقعة حول بحيرة تشاد مركزًا له وغزا دولتي الباجرمى وبورنو وبنى لنفسه ملكًا مستقلًا ١٨٩٥ فكان لا بد أن يصطدم مع الفرنسيين الزاحفين من الغرب. ووجدت فرنسا في هؤلاء السلاطين الذين استولى رابح على ولاياتهم عضدًا فضمتهم إليها وبدأ الصدام الذى تقهقر فيه رابح نحو الشرق وتقدم الفرنسيون إلى وداى (تشاد)، واتفق الفرنسيون مع الإنجليز الذين دخلوا السودان المصرى في يناير ١٨٩٩ أن يقفوا عند حدود دارفور ويتركوا الغرب كله للفرنسيين، وخلص هذا الجزء لفرنسا نهائيًا فأصبح لها سبع مستعمرات هى السنغال وموريتانيا وغينيا والسودان الفرنسى (مالى) وداهومي والنيجر، ساحل العاج (كوت ديفوار).

وبالنسبة لإفريقيا الفرنسية الاستوائية فقد كانت فرنسا في عام ١٨٣٩ حصلت على حق الإقامة على الضفة اليمنى لنهر الكونغو من بعض الزعماء المحليين، وكان هذا الحق يشمل إقامة حامية لتأمين مصالح التجار الفرنسيين، وفي عام ١٨٤٩ أقيمت مدينة ليرفيل فكانت أول مدينة فرنسية، ولكن فرنسا اضطرت إلى ترك المدينة نتيجة هزيمتها في الحرب السبعينية ١٨٧٠ ثم عادت ١٨٧٥ إلى الاهتمام بهذا الجزء وأرسلت البعثات الاستكشافية لاستكشاف

نهر الكونغو التي جددت في عقد المعاهدات مع الزعماء المحليين، وغداة مؤتمر برلين أعلنت بلجيكا قيام دولة الكونغو الحرة فأعلنت فرنسا قيام الكونغو الفرنسى (كونغو برازافيل)، وأخذت تمتد حدود الكونغو الفرنسى إلى الشمال بعقد المعاهدات مع الزعماء المحليين حتى وصلت إلى بحيرة تشاد. وفي عام ١٨٩٧ احتدمت المنافسة بين بريطانيا وفرنسا من أجل منطقة أعالي النيل فخرجت حملة فرنسية من فرنسا الاستوائية بقيادة مارشان بغرض الوصول إلى أعالي النيل، ووصلت الحملة إلى فاشوده حيث رفعت العلم الفرنسى، ولكن وصول الحملة البريطانية المصرية لاسترداد السودان ١٨٩٨ أدى إلى انسحاب فرنسا بعد مفاوضات بين الطرفين^(١). وبعد الحرب العالمية الأولى ضمت فرنسا إليها محمية الكمرى التي كانت تابعة لألمانيا حتى ١٩١٦.

وفي الجزائر التي تعد من أقدم المستعمرات الفرنسية في إفريقيا يعود الاهتمام الفرنسى بها إلى أزمان بعيدة كان البحر المتوسط هو طريق التجارة بين الشرق والغرب منذ العصور القديمة وفي العصور الوسطى، وكان القراصنة من جميع الأجناس يسيطرون عليه، وفي عام ١٨١٥ حاولت الدول المجتمعة في فيينا أن تضع حدًا لاعتداءات القراصنة فاتخذت قرارًا بوجوب القضاء على القراصنة، فعولت فرنسا أن تقوم بتأديب هؤلاء خاصة أن الأسطول الفرنسى لم يكن لديه قواعد تطل على البحر في حين كان الأسطول البريطانى يمرح بين أجزائه بعد أن استولى على جزيرة مالطة عام ١٧٩٨ وأصبحت موانئ تركيا ومصر في الشرق مفتوحة أمامه بفضل الصداقة التركية البريطانية، فأرادت فرنسا أن تستولى على الجزائر لتتخذ من شواطئها قاعدة بحرية، فأرسلت حملة بحرية إلى سواحل البحر واستولت على مدينة الجزائر ١٨٣٠، وحتى عام ١٨٣٤ لم تكن فرنسا قد استولت على أكثر من ثلاث مدن ساحلية منفصلة عن بعضها، وذلك لمقاومة الأهالى الذين تجمعوا تحت قيادة الأمير عبد القادر الجزائرى، وقد اضطرت فرنسا في فبراير ١٨٣٤ إلى عقد معاهدة اعترفت بسلطة الأمير فى الداخل، ولكن تجدد القتال مرة أخرى ١٨٤٠ واستمر سبع سنوات حتى اضطر الأمير التسليم عام ١٨٤٧.

وبالنسبة لتونس فقد كانت مطمع كل من فرنسا وبريطانيا وإيطاليا، كل منها كانت تتصارع من أجل الحصول عليها، وجعلها مركزها الجغرافى فى متوسط البحر الأبيض قربة الاتصال بإيطاليا حيث كانت إيطاليا تود الاستيلاء عليها وتأسيس مستعمرة بها لأنها أقرب البلاد إليها.

(١) الاستعمار الأوروبى لإفريقيا - المرجع السابق ص ٧٢ - ٧٤.

كذلك كانت فرنسا تنظر إلى تونس كخطوة تالية لها بعد استيلائها على الجزائر ١٨٣٠ وتراها امتدادًا للجزائر، وانهزت مبررًا للغزو باعتداء قبائل من البدو على بعض جنودها واحتلت تونس ١٨٨١ ووضعتها تحت الحماية الفرنسية.

وفي مراكش (المغرب) بدأت فرنسا تتطلع إليها منذ أن احتلت الجزائر، ولكنها لم تبدأ خطواتها الجدية إلا بعد ١٨٨١ حيث انتهت من احتلال تونس. وفي ذلك الوقت كان هناك أكثر من دولة تتطلع إليها مثل إيطاليا التي ساءها احتلال فرنسا لتونس، وإسبانيا التي تواجهها على الناحية الأخرى من البحر، وإنجلترا التي تسيطر على جبل طارق والتي احتلت مصر ١٨٨٢، وكذلك ألمانيا التي بدأت تتطلع إلى المستعمرات، فبدأت فرنسا سلسلة من المعاهدات تؤمن لها طريقها فعددت مع إيطاليا اتفاقًا يطلق يدها في مراكش نظير إطلاق يد إيطاليا في طرابلس الغرب، ومع إنجلترا نظير إطلاق يدها في مصر، وأخرى مع إسبانيا يبيع لفرنسا احتلال مراكش إذا تركت جزءًا منها لإسبانيا. وأدرجت عملية سيطرة فرنسا على موريتانيا في الإطار ذاته، لم تكن هذه المنطقة المرتبطة نظريًا بالسنگال موضعًا للمطامع. وفي ١٩٠٠ ألحقت بفرنسا ولكن لم يهتم الفرنسيون جدًّا إلا بها بعد سنوات عديدة.

وفي مدغشقر لم يكن لفرنسا مصالح تجارية في شرق إفريقيا تدافع عنها، ولم تكن تطالب بأراضي في الضفة الشرقية الإفريقية، ولم تكن لديها منشآت أو وجود كما كان لإنجلترا، باختصار لم يكن هناك سبب يدعو لنفوذ فرنسي في شرق إفريقيا، ولكن بما أن القسمة هي لعبة تشترك فيها القوى العظمى وفرنسا تشكل جزءًا من تلك القوى فإنها شاركت في تلك اللعبة.

وبإسم الحق التاريخي طمحت فرنسا في الحصول على جزيرة مدغشقر، فقد كان لويس الثالث قد وضع يده على الجزيرة في القرن السابع عشر ثم تنازل عنها. وفي القرن التاسع عشر كانت مدغشقر جزيرة مستقلة تسمى الجزيرة الكبرى حيث كانت مساحتها تساوي مساحة فرنسا وبلجيكا مجتمعين، كما كانت فرنسا سبق أن وضعت يدها على بعض الجزر الصغيرة المنتشرة قبالة السواحل المدغشقرية.

عندما طالبت فرنسا أن تكون مدغشقر محمية لها رفضت حكومة مدغشقر الرضوخ لمطالبها، وكان في الجزيرة مملكة تعد من إحدى الممالك الكبرى التي كانت موجودة في تلك الحقبة التاريخية التي تم فيها اقتسام إفريقيا. وانهزت فرنسا مقتل أربعة من رعاياها في الجزيرة فتحرك الأسطول الفرنسي في مياه مدغشقر الإقليمية وأخذ يقصف سواحلها، وحل النزاع

بتوقيع معاهدة تاما تاق ١٨٨٥. وكانت هذه المعاهدة مثيرة للاستغراب لأنها نصت على أن فرنسا تعترف بسيادة الملكة رانا فالونا الثالثة على الجزيرة بأكملها في حين أنها لم تكن تملك أصلاً هذه الصلاحية. وبالإضافة إلى ذلك فإن مدغشقر وفقاً لهذه المعاهدة عهدت إلى مقيم فرنسي لإدارة علاقاتها الخارجية وبهذا تكون قد قبلت الحماية.

أثارت هذه المعاهدة جدلاً ولكن بعد خمس سنوات اعترفت بها بريطانيا وألمانيا وتم توقيع معاهدة غدت بها مدغشقر محمية فرنسية مقابل اعتراف فرنسا بحماية بريطانيا على إفريقيا الشرقية البريطانية (كينيا) وألمانيا على إفريقيا الشرقية الألمانية (تنجانيقا).

وعلى الساحل الشرقى الإفريقى أيضاً حصلت فرنسا على الصومال الفرنسى (جيبوتى) عندما ابتاعت الحكومة الفرنسية ميناء أوبوك من مشايخها عام ١٨٨٣.

الخلاصة أن فرنسا دخلت السودان الغربى عبر سياسة غزو منهجية وحرب قائمة بشكل مختلف عما كان يتخلله مشروع تقسيم إفريقيا؛ ذلك أن التوسع الفرنسى فى هذا الجزء كان قائماً على سياسة غزو واضحة، كان الهدف الأساسى تحويل السنغال إلى مستعمرة إلا أن مشروعاً أكثر توسعاً حل محل المشروع الأول بهدف إنشاء إمبراطورية فرنسية كبرى فى غرب السودان تمتد من السنغال إلى بحيرة تشاد لتربط المناطق الفرنسية الثلاثة فى إفريقيا وهى الجزائر فى الشمال والكونغو الفرنسى (كونغو برازا فيل) فى إفريقيا الوسطى وإفريقيا الغربية الفرنسية (السنغال) هذه الاستراتيجية بدأت تفرض نفسها فى أوساط المستعمرين الفرنسيين، وأعطت دفعاً لسياسة الغزو التى اعتمدتها فرنسا فى السودان، كانت سياسة التوسع فى السودان سياسة موجهة ومخطط لها من قبل الدولة الفرنسية، فلم يكن العلم الفرنسى يتبع التجارة كما كان سائداً بل العكس تماماً كانت فرنسا تتصرف فى إفريقيا كدولة دخلت بالقوة الأراضى الإفريقية على أمل أن تتبع التجارة لها.

أما العنصر الثانى للاستعمار الفرنسى فهو اللجوء المنهجى إلى الوسائل الحربية، كان التوسع فى أماكن أخرى يتم بعقد اتفاقيات يقبل بموجبها الزعماء الأفارقة حماية القوى الأوروبية ويتنازلون لها عن سيادتهم. وبما أن الفرنسيين كانوا رجال حرب شرسين فلم يلجأوا إلى الطرق الدبلوماسية واستعملوا القوة المباشرة، ولم تربح فرنسا تلك الحروب بسهولة ليس فقط بسبب مقاومة الأهالى الوطنيين بل بسبب طبيعة الأرض غير الممهدة والمناخ القاتل الذى يسود المنطقة. كما كان السودان الغربى ساحة لتمرين الضباط والكثيرون منهم بنوا مستقبلهم

المهني في تلك المنطقة، فالعديد من المارشالات والجنرالات الفرنسيين المعروفين بدأوا حياتهم العسكرية في الاشتراك في حروب الممالك الإفريقية في إفريقيا الغربية^(١).

كان الفرنسيون يريدون بناء إمبراطورية من خلال غزوات عسكرية؛ في حين كان الإنجليز يطبقون سياسة فرق تسد من خلال التجارة؛ لذلك حصلت فرنسا على الجزء الأكبر من الأراضي وسيطرت بريطانيا على المنطقة الأثرى اقتصاديًا.

٣- الاستعمار البريطاني

من المعروف أن القارة الإفريقية شهدت في الفترة ما بين ١٨١٥-١٨٨٠ نوعًا من الثبات النسبي فيما يتعلق بغزو القارة، فإذا أغفلنا طرفيها الشمالي والجنوبي نجد أن هذا الثبات يرجع إلى ثلاثة عناصر رئيسية هي: ١- تقلد بريطانيا الزعامة البحرية في تلك الفترة ٢- عدم اهتمام الدول الأوروبية باستثناء فرنسا وبريطانيا بالقارة ٣- وجود صيغة مقبولة للتعايش الإنجليزى الفرنسى دامت على مدى الفترة من ١٨٤٥ إلى ١٨٧٥، ولكن بحلول ١٨٨٥ كانت عناصر التوازن الثلاثة قد انهارت، فالزعامة البريطانية بدأت تأخذ في التدهور الأمر الذى شجع فرنسا على التخلي عن صيغة التعايش وبدأت بالمبادرة بسياسة التنافس في غرب إفريقيا، وحمل الجنود والمستكشفون الفرنسيون العلم الفرنسى إلى غرب القارة، وقبل حلول عام ١٨٩٣ أصبحت المنطقة الغنية بالغابات بين ليبيريا وساحل الذهب (غانا) تسمى جمهورية ساحل العاج الفرنسى، وأصبحت داهومى عام ١٨٩٢ تحت السيطرة الفرنسية.

هذا بينما كانت بريطانيا تكتفى بسياسة التفوق في النفوذ مهربًا من التورط في نزاعات داخلية محلية، فلم تكن لبريطانيا أية ممتلكات في منطقة النيجر، ومع ذلك كانت مصالحها مصونة بتفوقها البحرى؛ على أنه لم يكد يحل عام ١٨٨٢ حتى كان هذا العنصر من عناصر التوازن قد اعتراه الخلل وأصبح مجموع سفن الأسطولين الفرنسى والألمانى يضارع مالىدى بريطانيا.

وكان من المفترض أن يبدأ تقسيم إفريقيا من إفريقيا الغربية وهى المنطقة التى أقامت معها أوروبا علاقات طويلة الأمد أكثر من غيرها من بقاع إفريقيا. ولكن لم يبدأ الجدل الدولى حول إفريقيا الغربية إلا سنة ١٨٨٤ إثر مؤتمر برلين، واستحوذت فرنسا وإنجلترا وحدهما

(١) تقسيم إفريقيا - المرجع السابق ص ٣١٣-٣١٥.

على المنطقة، وتم التوسع الفرنسى من الغرب إلى الشرق وتمحور حول السيطرة على النيجر العلوى، أما التوسع البريطانى فامتد من الجنوب باتجاه الشمال وتركز على النيجر السفلى. وركزت بريطانيا بسبب طبيعتها البحرية وخبرتها الاستعمارية على أن تختار منطق نفوذها في مخارج الأنهار الكبرى (مصب النيجر في نيجيريا ونهر الفولتا في غانا وجامبيا). وتحت ستار محاربة الرق استطاع البريطانيون التوغل في الأنهار الإفريقية وعقدوا المعاهدات مع الزعماء والرؤساء المحليين وفرضوا حمايتهم وتدخلوا في الاقطار الإفريقية بحجة ضمان تنفيذ قوانين إلغاء الرق والنخاسة^(١).

لذلك بينما كانت فرنسا تنشئ إمبراطورية السودان الغربى كانت إنجلترا تركز دعائم مستعمراتها الأكثر أهمية في غرب إفريقيا وهى نيجيريا، وكانت نقطة البداية من الساحل في الدلتا الهائلة التى تتشكل من نهر النيجر وروافده، وبرغم وعورة أرضها فقد أصبحت هذه المنطقة أكبر مركز تجارى في إفريقيا الغربية منذ عام ١٨٣٠ بفضل تجارة زيت النخيل، فدواخل البلاد كانت غنية بالزيت وسمحت مجارى المياه بالوصول إليه بسهولة مما حدا بإنجلترا أن تطلق على هذه المنطقة تسمية «أنهار الزيت». وكانت منطقة أنهار الزيت إحدى مراكز النشاط التجارى التى استخدمتها بريطانيا، أما المركز الآخر فهو مملكة لاجوس الواقعة إلى الغرب، وكانت هذه المملكة مهمة للبريطانيين لسببين: الأول ممارسة تجارة العبيد والثانى أرباح زيت النخيل، وقد لعب الأفارقة دوراً مهماً في تجارة زيت النخيل ولم يسمحوا للأوروبيين بإقامة علاقات تجارية مباشرة في دواخل البلاد؛ لذلك كان الأوروبيون يقيمون علاقاتهم مع منتجى الزيت عبر وسطاء أفارقة يحتكرون دور الوسيط في النظام التجارى، وإلى جانب منطقة أنهار الزيت أقنع البريطانيون ملك لاجوس بالتخلي عن مملكته مقابل راتب سنوى، فاحتلت بريطانيا لاجوس ووقعت معاهدة حماية معها، وأصبحت لاجوس من الممتلكات البريطانية عام ١٨٦١.

احتدم التنافس بين فرنسا وبريطانيا، واتبعت بريطانيا سياسة الشطرنج أى أن تقيم مؤسسة بريطانية إلى جانب كل مؤسسة فرنسية. وكادت الأمور تؤذن بحرب، ولكن ما من أحد كان يرغب في دخول حرب من أجل «صحراء إفريقية تنفشى فيها الملاريا» حسب تصوره، وبالتالي

(١) تجارة العبيد في إفريقيا - عابدة العزب موسى - مكتبة الشروق الدولية ص ١٩٠.

تماسك العسكريان ووضعت فرنسا وإنجلترا حدًا لعشرين سنة من التنافس بينهما في الغرب الإفريقي^(١).

كانت اتفاقية التسوية هذه قد عقدت في ١٠ أغسطس ١٨٨٩ وهي التي حددت الحدود بين الممتلكات الفرنسية والبريطانية في غرب إفريقيا حيث تناولت المادة الأولى تحديد حدود جامبيا والسنغال، والمادة الثانية خاصة بتحديد حدود مستعمرة سيراليون البريطانية وغينيا الفرنسية، والمادة الثالثة خاصة بساحل الذهب البريطانية ومستعمرة ساحل العاج الفرنسية، والمادة الرابعة خاصة بساحل العبيد وتحديد الحدود مع مستعمرة لاجوس البريطانية وداهومى، والمادة الخامسة تكونت بقتضاها لجان بحث تحديد الحدود بين ممتلكات الدولتين. ولكن ليس معنى هذا أن اتفاق ١٠ أغسطس ١٨٨٩ كان هو الأخير لتحديد الحدود بين الدولتين فقد تبعه عقد عدة اتفاقيات أخرى اتخذت من الأنهار والبحيرات نقاطًا لتحديد الحدود^(٢).

تجسد جوهر تقسيم إفريقيا الغربية في المعاهدة الفرنسية البريطانية عام ١٨٩٨ ولم يبق أمام إنجلترا سوى عملية تنظيم نيجيريا فألحقت محمية ساحل النيجر (دلتا النيجر) بالنيجر الأدنى وأعيد تسميته بمحمية نيجيريا الجنوبية، ومنها ظهر أسم نيجيريا ووضع شمال نيجيريا تحت سيطرة بريطانيا بعد أن ترجم نظام الحماية البريطانية على أرض الواقع وضمت لاجوس لجنوب نيجيريا، وبذلك أصبحت نيجيريا تتألف من ثلاثة أجزاء.

ما كادت نيجيريا تستقر حتى ظهرت أزمة النيجر، كانت الحكومة البريطانية مترددة في موقفها تجاه النيجر، فقد كانت تخشى التبعات المالية والسياسية؛ في حين كان التجار البريطانيون يمارسون ضغوطًا لكي تنحل قوة الوسطاء الأفارقة بفعل تدخل عسكري، وفي عام ١٨٨١ أسست الشركة الإفريقية البريطانية التي سيطرت على النيجر السفلى وأصبح به عشرون قاعدة عسكرية متمركزة في نهر النيجر، وفي عام ١٨٨٣ وقعت معاهدات وصاية مع رؤساء القبائل بلغت ثلاثًا وسبعين معاهدة. ولكن الإدارة البريطانية تباطأت في أن تأخذ الأمر بشكل جاد، وفي تلك الفترة ظهرت ألمانيا وأمر بسمارك قنصله بالذهاب إلى ساحل إفريقيا الغربية وإبرام معاهدات في توجولاند ثم اجتاز نهر الكامبيرون وعقدت ألمانيا معاهدة وصاية معها؛ لذلك صُدم الإنجليز عندما علموا أن الألمان سبقوهم.

أجج سباق المعاهدات بين الإنجليز والألمان الحزازات بين الفريقين، ولكن لم تكن القضية

(١) تقسيم إفريقيا - المرجع السابق ص ٣٥٥.

(٢) بحوث ودراسات ووثائق في تاريخ إفريقيا الحديث - المرجع السابق ص ١٧٢.

تستوجب حرباً، فاتفق الطرفان في برلين ١٨٨٤ على أن تنال ألمانيا الكمرون وبريطانيا النيجر، وأعلنت الحكومة البريطانية وصايتها على النيجر. ووفقاً لقواعد مؤتمر برلين لم تكن الوصاية تكفى فالمهم هو الاحتلال الفعلي داخل البلاد، فوجدت بريطانيا نفسها منخرطة في مسألة النيجر في مواجهة الأطماع الفرنسية المستميتة حوله. وتعددت الأمور أكثر عندما عقدت بريطانيا مع ألمانيا معاهدة «زنجلار-هيلفولند» فاحتج الفرنسيون الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أنهم يملكون حقوقاً في زنجبار، وأدت هذه الاحتجاجات إلى مفاوضات إنجليزية فرنسية انتهت عام ١٨٩٠ باتفاق فرنسي بريطاني اعترفت فيه فرنسا بالوصاية البريطانية على زنجبار وبالمقابل اعترفت إنجلترا لفرنسا بالوصاية على مدغشقر.

أزمة فاشودة:

على أن أهم أزمة قامت بين الدولتين الاستعماريتين بريطانيا وفرنسا وكادت تعصف بالوفاق البادى على السطح هى أزمة فاشودة. استمدت العداءة الانجليزية الفرنسية أصولها من احتلال إنجلترا لمصر ١٨٨٢ وبلغت هذه الخصومة أوجها، وأوشكت على اندلاع الحرب في فاشودة. وفاشودة منطقة بسيطة تقع على الضفة العلوية للنيل الأبيض تأسست عام ١٨٥٥ كمحطة مصرية لمراقبة مكافحة تجارة العبيد.

وخططت السياسة الانجليزية أن تستأثر بمصر ثم النيل والسودان ورفضت فرنسا هذا المخطط وأرادت إجبار الانجليز على إعادة طرح القضية المصرية على بساط البحث، فعملت على ممارسة ضغوط عسكرية بالاستيلاء على موقع متقدم على النيل وزحفت باتجاه النيل إلى فاشودة.

في عام ١٨٨٩ أعلنت إنجلترا أنها تنوى البقاء في مصر وبالتالي عليها أن تسيطر على النيل، وبذلك تحولت مسألة السيطرة على وادى النيل هى هدف أساسى من أهداف السياسة الإنجليزية، ورفض الفرنسيون رفضاً باتاً الاعتراف باحتلال إنجلترا لمصر والاحتكار البريطاني لحوض النيل، فمنذ وضع نابليون بونابرت قدميه في مصر أصبحت مصر بمثابة الأرض الموعودة للفرنسيين، ثم ظهرت أطماع طرف ثالث هو ليوبولد ملك بلجيكا فبعد أن اعترف له بدولة الكونغو المستقلة طمع أن يؤسس إمبراطورية تربط الكونغو بالبحر الأبيض من خلال النيل، وأعد حملة بنية التوجه نحو النيل إلا أن بريطانيا رفضت أى تجاوزات لحظ تقسيم المياه بين الكونغو والنيل، فاتجه ليوبولد إلى فرنسا لإستدراجها للوقوف إلى جانبه

لتحقيق ما يرغب، إلا أن فرنسا استغلت فكرة ليوبولد لتحقيق أهدافها هي وجهزت حملة تتجه إلى النيل العلوى.

اعتبرت إنجلترا هذا التحرك عملاً عدائياً للسيطرة على منطقة كانت تصنفها بأنها بلد «المستنقعات والحمى»، ولكن هذه المنطقة اكتسبت أهمية خاصة بعد أن دخلت السودان في دائرة النفوذ البريطانى؛ إذ كانت بريطانيا تحلم بإنشاء سكة حديد تصل بين الكاب والقاهرة فتحكم السيطرة على القارة بالطول والعرض^(١)، وكادت أزمة فاشودة أن تؤدى بالدولتين إلى مواجهة عسكرية، ولكن لما كانت سياسة التقاسم في إفريقيا تقوم على أساس «التبادل والتعويض» فقد قبلت فرنسا الانسحاب من فاشودة وقبلت تمركز بريطانيا في مصر شرط أن تطلق يد فرنسا في المغرب، وهكذا أدت فاشودة إلى إعادة التفاهم الودى والتقاسم الاستعماري^(٢).

وبالنسبة لشرق إفريقيا كان الأمر مختلفاً، كان الساحل معرضاً للغزاة الأجانب وفي طليعتهم البرتغاليون والهولنديون والإنجليز والألمان، وقد اتخذت بريطانيا من محاربة الرق بتفتيش سفن الدول الأخرى ذريعة لتوطيد نفوذها في هذا الجزء من إفريقيا فقد كانت قد عقدت العزم أن تستأثر به.

كان شرق إفريقيا جزءاً من منطقة النفوذ التابعة لسلطان جزيرة زنجبار منذ أن قدم من مسقط وعمل على إنهاء دولته بتشجيع قدوم التجار الأجانب إليها سواء كانوا من الهنود أو الأوروبيين، ولكن التجار العرب الذين يعيشون على هذه السواحل منذ القدم كانوا عصب هذه التجارة، وقد استطاع السلطان أن يمد نفوذه إلى المنطقة الخلفية للساحل حتى البحيرات الكبرى وترك شعوبها في الداخل يقررون مصيرهم بأنفسهم.

كان النفوذ البريطانى في دوائر السلطان قوياً إلى حد أن كانت بريطانيا تستطيع أن تحكم كل بلاد السلطان إذا أرادت فقد كان نفوذها سابقاً لكل ما عداها وإن لم يعلن ضم رسمى أو حماية لأى جزء من أملاك السلطان. ولما مات السلطان سعيد اشتد التنافس البريطانى الفرنسى فتخلت بريطانيا عن حليفها سلطان زنجبار الوريث ونشأ حكم ثنائى إنجليزى فرنسى انتهى باتفاق تم بينها بأن تستحوذ بريطانيا على جزيرة زنجبار الصغيرة مقابل أن تحتل فرنسا جزيرة مدغشقر الكبيرة^(٣).

(١) تقسيم إفريقيا - المرجع السابق ص ٢٧١.

(٢) تقسيم إفريقيا - المرجع السابق ص ٤١٥.

(٣) تقسيم إفريقيا - المرجع السابق ص ٢٣٠.

وعلى أراضي الساحل كانت إنجلترا قد حصلت من سلطان زنجبار على حق السماح لشركة شرق إفريقيا البريطانية بالعمل في كل أراضي السلطان، وعلى المنطقة التي تمتد وراءها في منطقة البحيرات وأن يكون لها حق المندوبين لحكم المديرية باسمه وأن تعقد المعاهدات مع الزعماء والمشايخ لقاء جعل من الأرباح التجارية تدفعه الشركة للسلطان.

وعندما اشتد الصراع البريطاني الألماني الفرنسي حول هذه الممتلكات لجأت الدول الثلاث إلى تأليف لجنة حتى لا يتطور التنافس إلى نزاع مسلح، وانتهت اللجنة إلى أن سلطة السلطان تمتد إلى عشرة أميال فقط من الساحل وما وراء ذلك فهي سلطة اسمية ومن ثم تملك هذه الدول الأوروبية حرية العمل فيها، ولما كانت فرنسا قد ارتضت بجزيرة مدغشقر فقد اتفقت الدولتان الإنجليزية والألمانية على اقتسام هذه الأجزاء بموجب اتفاقية وقعت بينهما عام ١٨٨٦ ورسم خط وهمي يمتد من الساحل إلى بحيرة فكتوريا فاستولت بريطانيا على أراضي شمال الخط وألمانيا على جنوبه، وهكذا خلقت مستعمرة إفريقيا الشرقية البريطانية (كينيا) ومستعمرة إفريقيا الشرقية الألمانية تنجانيقا (تانزانيا) ولم تشمل الاتفاقية منطقة أوغندا، ولكن في عام ١٨٩٠ وقعت اتفاقية جديدة بين إنجلترا وألمانيا جعلت أوغندا من نصيب إنجلترا مقابل أن يمتد نفوذ ألمانيا إلى وسط القارة.

وهكذا أصبحت إنجلترا تتحكم في مصبات أنهار غرب إفريقيا وهي النيجر وال فولتا وجامبيا إلى جانب تحكمها في مناطق الثروات المعدنية والزراعية (الماس في سيراليون) والنحاس والفحم في روديسيا الشمالية (زامبيا) وروديسيا الجنوبية (زيمبابوي) وغيره من المعادن في جنوب إفريقيا، والمحاصيل الزراعية في شرق القارة في تنجانيقا وزنجبار وكينيا وأوغندا، وأحيث أحلام بريطانيا في إقامة خط طريق الكاب/ القاهرة عبر سلسلة من المستعمرات من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال ضمن العوامل التي حكمت وجودها في كل منطقة للجنوب والشرق وامتدادًا إلى السودان ومصر شمالاً^(١).

٤. الاستعمار البلجيكي

كانت لدى ليوبولد الثاني ملك بلجيكا أطماع ذاتية استعمارية في وقت كان يرأس أصغر دولة أوروبية ليست قادرة على احتلال مستعمرات بتاتاً. فبدأ بصفته الشخصية بالدعوة إلى

(١) دليل الدول الإفريقية (الجمعية الإفريقية) ص ٢٠.

عقد مؤتمر في بروكسل ١٨٧٦ من أجل القيام بعمل مشترك لكشف القارة. وأسفر المؤتمر عن إنشاء ما سُمي « بالهيئة الدولية الإفريقية » اتخذت مقرها في بروكسل، وفي العام التالي دعا ليوبولد إلى عقد مؤتمر آخر في بروكسل أيضًا تمخض عن إنشاء هيئة جديدة أطلقت على نفسها «هيئة دراسة الكونغو الأعلى» هدفها فتح هذا الجزء من إفريقيا، وكانت هذه الهيئة نقطة تحول في سياسة ليوبولد. كان برنامجها أكثر وضوحًا محدد الأهداف ينحصر عملها في الاتصال بأهالي الكونغو وعقد اتفاقيات معهم من أجل الحصول على امتيازات، وأوفد ليوبولد الرحالة ستانلي إلى الزعماء الوطنيين في المنطقة ونجح في الحصول على أكثر من ٤٠٠ معاهدة وافق فيها أكثر من ألفين من الزعماء أن تخضع أراضيهم لسيادة هذه الهيئة، وكان هذا العمل إعلانًا بقيام دولة الكونغو الحرة التي بادرت الولايات المتحدة إلى الاعتراف بها في إبريل ١٨٨٤ مقابل أن يترك باب الكونغو مفتوحًا للبضائع الأمريكية. اعترضت على ذلك كل من البرتغال وفرنسا وألمانيا وبدا النزاع على مسألة الكونغو لن يحل إلا عن طريق مؤتمر دولي دعت إليه ألمانيا يعقد في برلين فكان مؤتمر برلين الشهير الذي أعلن قيام دولة الكونغو الحرة، وأصبح الملك ليوبولد رئيسًا لهذه الدولة بصفته الشخصية ويات رئيس أصغر الدول الأوروبية رئيسًا للكبر وأغنى مستعمرات إفريقيا^(١).

ولدت قيام دولة الكونغو الحرة أطماع الملك ليوبولد إلى مزيد من الاختطاف الاستعماري لأراضي القارة، وتمثلت هذه المطامع في السعى ليكون له موطئ قدم عند منابع النيل ليتمكن تصريف منتجات الكونغو عن طريق نهر النيل بدلًا من المحيط الأطلسي. لذلك دخل في مناورة سياسية مثيرة مع العملاقين الاستعماريين بريطانيا وفرنسا، وحارب الثورة المهدية في السودان استرضاء لبريطانيا نظير حصوله على منطقة من بحر الغزال وجيب لادو على النيل الأعلى^(٢). لم يقد البلجيكيون بأى احتلال فعلى في هذه المنطقة ولكنهم بادروا باحتلال لادو ١٨٩٨ عقب واقعة فاشودة فأذن لهم الانجليز بالبقاء بشرط ألا يعتدوا على بحر الغزال، وبذلك جعلتهم بريطانيا بمثابة حارس مؤقت على باب بحر الغزال، ثم أوقفت توغلمهم في أعالي النيل بعد أن استتب بها الأمر بعد استرداد السودان وخاصة بعد اتفاق التسوية النهائي مع فرنسا ١٨٩٩ الذي حدد مناطق النفوذ بين بريطانيا وفرنسا في وسط القارة^(٣). وفشلت أحلام البلجيكي في التوسع في القارة.

(١) الاستعمار الأوروبي لإفريقيا - المرجع السابق ص ١١٥.

(٢) الموسوعة الإفريقية ص ٣٣٨.

(٣) الموسوعة الإفريقية ص ٣٥٥.

٥. الاستعمار الألماني

جرى تقسيم إفريقيا الشرقية في جو من التفاهم، لم تكن فرنسا ولا البرتغال تلعب دوراً فيه إذ كان التنافس يجري بين إنجلترا وألمانيا.

في إفريقيا الشرقية حصل الإنجليز على ما كانوا يطمعون فيه، وكان الساحل الإفريقي الشرقي قد اكتسب بعض أهميته للإنجليز نظراً لنفوذهم في المحيط الهندي، وبالنسبة لألمانيا كان التقسيم الذي تم بينهم وبين الإنجليز مصدر ارتياح لهم إذ أصبحت إفريقيا الشرقية الألمانية إحدى أكبر وأهم المستعمرات التي كانت تمتلكها ألمانيا^(١).

والمقصود بإفريقيا الشرقية المنطقة الممتدة من الصومال شمالاً إلى موزمبيق جنوباً. كانت هذه المنطقة قبل الاستعمار جزءاً من منطقة النفوذ التابعة لزنبار وهي تتكون حالياً من كينيا وتانزانيا ورواندا وبورندي.

في القرن الذي نتحدث عنه كان هناك فاصل شبه كلي بين الساحل والداخل، فالشعوب في الداخل كانوا يقررون مصيرهم، أما الساحل فكان معرضاً للغزاة الأجانب وفي طليعتهم البرتغال ثم الإنجليز والألمان. وفي الواقع كان الساحل ينتمي إلى المحيط الهندي أكثر مما ينتمي إلى القارة الإفريقية، والتأثير العربي فيه كبير يعود إلى الماضي السحيق.

كانت منطقة إفريقيا الشرقية حتى منتصف القرن التاسع عشر تخضع لإمارة زنجبار التي كانت تشمل جزيرة زنجبار الحالية وشرطاً من الساحل الإفريقي يمتد إلى عمق عشرة أميال. وضع السلطان سعيد يده على زنجبار التي كانت تتمتع بمرفأ جيد وموقع ممتاز لحركة التجارة، فقد كان سعيد ملكاً وتاجراً بكل ما للكلمة من معنى، شجع على زراعة القرنفل واحتكر من خلالها الأسواق العالمية وأصدر عملة لها وأعاد تنظيم الجمارك وعقد معاهدات تجارية مع أمريكا والدول الأوروبية وأقام الأسواق التجارية مما جعلها منطقة تجارية ومركزاً لسوق العبيد والعاج، وامتدت سلطته إلى كل الساحل الشرقي حتى منطقته البحرية. أما الوجه السياسي لسلطة سعيد فكان شأناً آخر، فقد كانت المدن الساحلية تخضع لحكام يمثلون سعيد رسمياً ولكنهم كانوا في الواقع مستقلين. وكانت الطرق التجارية الممتدة في الداخل مكتظة بمنشآت عربية تعترف بسلطة سعيد.

بعد موت سعيد تولى ابنه برغش حكم زنجبار الذي تعاون مع إنجلترا لتضمن له المنطقة

(١) تقسيم إفريقيا - المرجع السابق - ص ٢٨٦.

بأكملها حتى البحيرات الكبرى. لم يكن برغش هو الوحيد الذى يطالب بالحصول على المنطقة بأكملها ، كان التدخل الأوروبى فى هذه المنطقة تتجاذبه إنجلترا وفرنسا ثم ظهرت ألمانيا على الساحل.

ظهرت نزعة امتلاك مستعمرات ألمانية فيما وراء البحار بعد أن تمت الوحدة الألمانية عام ١٨٧١ وبعد هزيمة فرنسا فى حرب السبعين، وتأيدت هذه النزعة رغم أنه لم تكن لدى المستشار الألمانى بسمارك اتجاهات استعمارية، وزكى النزعة الاستعمارية المستكشفون الألمان الذين ساهموا بمجهود ضخم فى اكتشافات إفريقيا. وعلى سبيل المثال لا الحصر فردريك هورتمان الذى عبر الصحراء الكبرى من طرابلس إلى النيجر، وهنريش طوف بالسودان الغربى (وكلاهما كانا فى خدمة بريطانيا) وجورج شفاينفورت وجوبستاف نافتيجال اللذان طوفا منفردين السودان الأوسط، وكارل فون درديكين فى شرق إفريقيا وإدوارد مور وكارل ماوش فى حوض الزمبىزي^(١).

وزاد من إلحاح أنصار الاستعمار نحو الانتاج الصناعى فى ألمانيا وما حظيت به صناعة السفن من تطور كبير، فلو ظل الألمان بدون مستعمرات لتعرضت مصنوعاتهم للرسوم الجمركية المرتفعة التى تفرضها الدول على المصنوعات الأجنبية من أجل حماية صناعتها ومن ثم اتجه التفكير إلى المستعمرات لحل أزمة إيجاد أسواق للمصنوعات الألمانية وحل لأزمة الأسطول الألمانى الذى لا يجد ما يحمله. وكان بسمارك فى أول الأمر معارضا لهذه النزعة ويرى فى المستعمرات عبئا لا تتحمله طاقة الشعب الألمانى، ولكنه لم يلبث أن اتجه إلى الناحية الأخرى. وفى عام ١٨٨٣ وجه بسمارك إلى جمعيات التجار رجاء التقدم بمقترحاتهم بالحلول المقترحة من أجل صالح التجارة الألمانية وأصدر عام ١٨٨٤ كتابا أبيض عن سوء معاملة القناصل البريطانيين للتجارة الألمانية فيما نشط أنصار الاستعمار فى تأسيس جمعية المستعمرات الألمانية برئاسة كارل بيتزر للعمل فى شرق إفريقيا، فقام بعقد معاهدات مع المشايخ والسلطين من أجل الحصول على حق استغلال هذه الأجزاء ووضع بلادهم تحت الحماية الألمانية.

والحقيقة أن ألمانيا لم تكن غائبة كلياً عن إفريقيا الشرقية، كان فيها وفى زنجبار بالذات تجار ألمان، وفى سنوات ١٨٧٠ كانوا يسيطرون على أكثر من نصف صادرات زنجبار أى أكثر مرتين من صادرات إنجلترا. أما المشروع الأول لغزو أراضي إفريقيا الشرقية لصالح ألمانيا فقد أنشأته جمعية المستعمرات الألمانية التى ولدت فى برلين عام ١٨٨٤ قبل مؤتمر برلين بأشهر معدودة.

(١) الاستعمار الأوروبى لإفريقيا - المرجع السابق - ص ٢٧١.

كان كارل بيترز الذى اضطلع بإدارة الجمعية أهم الشخصيات فى تاريخ الإمبريالية فى إفريقيا، حاول أن يقنع الخارجية الألمانية والمستشار الألمانى بمواهبه الاستعمارية ولكن دون جدوى فقرر أن يغامر وحده عن طريق الجمعية، كان هدفه من قوله «الحصول على إمبراطورية له شخصيًا» فذهب إلى منطقة فى مواجهة زنجبار هو وثلاثة من معاونيه رغم أن القنصل الألمانى فى الجزيرة أبلغهم أن حكومة الرايخ (حكومة ألمانيا) لا تمنحهم أى شكل من الحماية، وكتب بيترز عن رحلته واستطاع أن يوقع إحدى عشرة اتفاقية مع زعماء القبائل. وبالطبع كانت معاهدات وهمية تتم فى حفلات مع القبائل الإفريقية يحصل بعدها بيترز على خربشة من أحدهم على ورقة معدة لهذا الغرض. وتجول بيترز حسب قوله فى كل إفريقيا الشرقية ثم عاد إلى برلين حيث كان مؤتمر برلين منعقدًا ووضع وثائق لدى وزارة الخارجية الألمانية موضحًا أن هذه الأراضى يمكن أن تشكل نواة «هند ألمانية» فى إفريقيا^(١).

وبالطبع لم يكن من المعقول أن يفاجئ الألمان المؤتمرين فى اللحظة الأخيرة بمطالبهم فى هذه الأراضى، فانتظروا إلى انتهاء المؤتمر وطلبت وزارة الخارجية الألمانية أن توضع كل هذه الأراضى تحت الوصاية الألمانية، ونظمت البحرية الألمانية عرضًا أمام ساحل زنجبار لإجبار سلطانها على التخلي عن مطالبه فى الأراضى التى حصل عليها بيترز والقبول بالوصاية الألمانية.

احتج سلطان زنجبار على هذه الحماية الألمانية فتألفت لجنة ألمانية إنجليزية فرنسية من أجل دراسة مدى ما يدعيه سلطان زنجبار من سلطة على الأراضى الداخلية وهى تنجانيقا (تنزانيا) وكينيا وجنوب الصومال. وبعد القيام بالتحريات قدمت اللجنة مذكرة إلى الحكومات الثلاث ذكرت فيها أن السلطان ليس له حقوق مشروعة إلا على جزر زنجبار وبمبا وارخبيل ولامو وشريط ساحلى لا يبلغ عمقه أكثر من عشرة أميال، واعتبرت الدول الثلاث ما جاء فى المذكرة أساسًا لنشاطها.

كان بسمارك يعلم أن مفتاح إفريقيا الشرقية هو زنجبار التى تقع فى حوزة بريطانيا؛ فى حين كانت الآراء فى بريطانيا منقسمة حول هذه الأراضى فلم يكن رئيس الوزراء البريطانى يهتم بهذه المنطقة وكان يطلق عليها «البلاد الجبلية الواقعة خلف زنجبار ذات الاسم الذى يصعب تذكره»، إلا أن بعض المسئولين السياسيين البريطانيين كانوا يخططون لاستراتيجية جديدة فى

(١) تقسيم إفريقيا - المرجع السابق - ص ٢٣٩.

إفريقيا ، وقد صيغت هذه الاستراتيجية للمرة الأولى في مذكرة المكتب الخارجى فى الخارجية البريطانية وظهرت فى ديسمبر ١٨٨٤ تقول الوثيقة «نظراً للسباق الذى بدأه الأوروبيون للسيطرة على أراضي الساحل الشرقى الإفريقى، وأخذاً فى الاعتبار أن المحيط الهندى الذى يحيط بالهند وأستراليا قد سبق أن احتلها البريطانيون إذا أضفنا لهما الساحل الشرقى الإفريقى فيصبح المحيط الهندى بحرًا داخليًا إنجليزياً - أو بحرًا متوسطًا بريطانيًا.

وفى ذلك الوقت كانت كل من بريطانيا وألمانيا تعملان لصد النفوذ الفرنسى، فأبرمتا اتفاقية على شكل تبادل ملاحظات بين ألمانيا وإنجلترا عام ١٨٨٦ كرست سيادة سلطان زنجبار على جزر زنجبار ويمبا ومافيا ولامو وكذلك منطقة الساحل المواجهة لهما، أما المنطقة الخلفية فقسمت إلى منطقة نفوذ المانية فى الجنوب ومنطقة نفوذ انجليزية فى الشمال، وبهذا تحقق أول تقسيم إنجليزى - ألمانى لإفريقيا الشرقية.

تطورت الوقائع بشكل مختلف فى منطقة النفوذ البريطانى فى شرق إفريقيا، كانت الخارجية البريطانية تطمح فى المنطقة الواقعة شمال بحيرة فكتوريا وأوغندا تحديدًا استكمالاً لاستراتيجيتها بشأن النيل، ولكن كان الألمان قد سبقوهم إلى أوغندا حيث أقاموا فيها نظام الحماية بفضل جهود كارل بيترز الذى أعاد عرش الملك المحلى «موانجا» فكافأه بعقد معاهدة معه سميت «المعاهدة التمهيدية» فى فبراير ١٨٩٠، وبهذا استولت ألمانيا على أوغندا ولكن بريطانيا لم تقبل به وأعد سالسبورى رئيس وزرائها خطة للسيطرة على وادى النيل كله الذى يحتل المركز الأول لاهتمامات إنجلترا.

مثلت المعاهدة التى عقدها بيترز فى أوغندا بالإضافة إلى المطالب الألمانية التى تقوم على هذه المعاهدات تهديدًا للطموحات البريطانية، وكان لا بد من منع ألمانيا من الاستقرار فى أوغندا، وفى حال وجودها يجب طردها. لم يؤد ذلك إلى مواجهة بين بريطانيا وألمانيا، إذ نجح سالسبورى بشكل مؤثر وفعال فى تقسيم إفريقيا دون أن ينتج عن هذا التقسيم صراعات، فقد توصل مع ألمانيا أن تترك أوغندا نظير أن تعترف بريطانيا لألمانيا بحيازة تنجانيقا ورواندا وبورندى.



وعلى الشاطئ الغربى الإفريقى كانت إفريقيا الجنوبية الغربية (ناميبيا) سببًا فى عداء بسمارك لإنجلترا نتيجة للسلوك الاستفزازى المتمثل فى رد الفعل غير الودى من جانب بريطانيا

لطلبه (التواضع) للحصول على مجال نفوذ في منطقة جنوب غرب إفريقيا. وحقيقة الأمر أن البريطانيين حاولوا منذ عام ١٨٨٣ استبعاد ألمانيا من مجال الاستعمار في تلك المنطقة، وعندما طلب بسمارك مساندة بريطانيا للاستحواذ على منطقة جنوب غرب إفريقيا لاذت بريطانيا بالصمت. وكان تاجر ألماني يدعى لودريز Lu deritz قد استقر في المنطقة وتملك عن طريق المعاهدات مع الزعماء المحليين ما يقرب من ٢١٥ ميلاً ورفع العلم الألماني عليها، فما كان من ألمانيا إلا إعلانها في يناير ١٨٨٤ وضع هذه الأجزاء تحت الحماية الألمانية ووضعت بريطانيا تحت الأمر الواقع فرضت بريطانيا واعترفت بها لألمانيا في أغسطس ١٨٨٤.

وحدث مثل هذا في توجو والكامرون ففي إبريل عام ١٨٨٤ أعلنت الخارجية الألمانية أن قنصلا ألمانيا سيزور غرب إفريقيا ليستعلم عن حالة التجارة الألمانية وليقوم بمفاوضات بشأن مسائل مختلفة، وعندما وصل رفع العلم الألماني على مدينتي باجيدا ولومي وأعلن قيام محمية توجولاند، ثم اتجه إلى الكامرون وكان التجار الألمان نحجوا في عقد مفاوضات مع الزعماء الذين رضوا أن يضعوا أنفسهم تحت الحماية الألمانية، فأعلنت ألمانيا حمايتها على المنطقة في يوليو ١٨٨٤ بينما كانت فرنسا تحاول الزحف إلى الكامرون عن طريق الجابون، وكانت بريطانيا في صراع محتدم مع فرنسا لذا تركت الأسبقية للألمان في المنطقة نكايه في فرنسا. في ذلك الوقت كانت فرنسا تريد أن تفرض حمايتها على مراكش لقاء إطلاق يد ألمانيا في الكامرون^(١).

وهكذا يمكن تأريخ ولادة الإمبراطورية الاستعمارية الألمانية عشية نهاية مؤتمر برلين فتملكت ألمانيا جنوب غرب إفريقيا (ناميبيا) والتوجو والكامرون ورواندا وبورندي في وسط القارة. (وقد فقدت ألمانيا كل هذه المستعمرات بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى، التوجو والكامرون ضمتا إلى فرنسا، ورواندا وبورندي ضمت إلى بلجيكا، وجنوب غرب إفريقيا ضمت إلى جنوب إفريقيا، وتنجانيقا كانت من نصيب بريطانيا).

٦. الاستعمار الإيطالي

كانت إيطاليا من أضعف الدول الأوروبية في مستهل القرن التاسع عشر، وبالتالي كانت أقلها نصيباً في حيازة المستعمرات في إفريقيا، كما أنها لم تكن لديها القوة العسكرية التي يخشى بأسها فكانت كل من بريطانيا وفرنسا تعامل إيطاليا في إفريقيا بمثابة مخلب قط أو بالأصح أداة للمساواة في عملية المطامع الاستعمارية. وظلت إيطاليا قانعة بما يفيض عن

(١) الاستعمار الأوروبي لإفريقيا - المرجع السابق - ص ٢٨٦.

حاجة الدول الكبرى. ولكن مع نجاح الوحدة الإيطالية خاصة بقوة السلاح أوجد ذلك لدى الشعب الإيطالي شعورًا بالعظمة والفخر بالسلف وبأنهم أحفاد وورثة الرومان الأقدمين والإمبراطورية الرومانية، وتطلع الإيطاليون شأنهم شأن الشعوب الأوروبية الأخرى التي أصابتها هي الاستعمار إلى حيازة مستعمرات.

بدأت الحكومة الإيطالية تحركها الاستعماري عام ١٨٨٢ بشراء منطقة خليج عصب بالقرب من خليج عدن، إذ كانت إيطاليا تطمح أن تجد مدخلًا للبحر المتوسط من خلال سيطرتها على البحر الأحمر، وكان في مخيلة دعاة الاستعمار فيها السعي لإقامة إمبراطورية استعمارية تضم كلاً من إثيوبيا ومنابع النيل. ثم خطت نحو تحقيق حلمها عندما انتهى الحكم المصري في السودان واعتبر أرضاً خلاء. أقدمت إيطاليا تساندها بريطانيا لاحتلال مصوع ونجحت تدريجيًا في وصل عصب بمصوع بشريط من الأرض الصحراوية يمتد بمحاذاة الساحل فأصبحت هذه الأجزاء تكون مستعمرة واحدة حملت اسم أريتريا^(١).

ثم رنت إيطاليا ببصرها نحو أراضي الصومال، وكانت تحت سيادة سلطان زنجبار، ونجحت شركة إيطالية في الحصول على عقد من السلطان باستثمار مناطق معينة على ساحل إفريقيا الشرقية. والواقع أن تنازل سلطان زنجبار لم يكن مباشرًا بل لصالح شركة إفريقيا البريطانية التي تنازل عنها للشركة الإيطالية، وكانت بريطانيا ذلك الوقت تحايي إيطاليا لتقف في صفها في التنافس الإنجليزي الفرنسي، فأيدت هذا التنازل بمحضر وقع عليه السلطان ١٨٩٢، ومن ثم كانت المساعدة البريطانية هي العامل الوحيد الذي مكن إيطاليا من الوجود في المحيط الهندي^(٢) وساحل البحر الأحمر.

ثم رنت إيطاليا ببصرها نحو إثيوبيا، وبدأ التغلغل الإيطالي في إثيوبيا عام ١٨٨٩ عندما أبرمت معاهدة أوتشالي Ucciali تضمنت منح إثيوبيا قرضًا من إيطاليا مقابل منح إيطاليا مدخلًا على البحر الأحمر عند ميناء مصوع. وطبقًا لتفسير المعاهدة المكتوبة باللغة الإيطالية تكون إثيوبيا تحت الحماية الإيطالية، ولكن الملك منليك إمبراطور الحبشة تنصل من المعاهدة ١٨٩٣ فكان الرد الإيطالي غزو إثيوبيا عام ١٨٩٦، ولكن الإثيوبيين هزموا الإيطاليين هزيمة ساحقة في موقعة «عدوة»، وعقدت معاهدة صلح في أديس أبابا حددت فيها الحدود نهائيًا بين

(١) الموسوعة الإفريقية - المرجع السابق ص ٦٤.

(٢) في عام ١٩٠٨ تحددت الحدود النهائية بين الصومال الإيطالي والصومال الكيني البريطاني، وكذلك الصومال الفرنسي بسيطرة فرنسا على ميناء جيبوتي.

مستعمره أريتريا وولاية تيجرى فى إثيوبيا؛ علاوة على الفدية الكبيرة التى دفعتهإيطاليا من أجل إطلاق سراح المعتقلين، وبذلك أصيبت سياسة التوسع الإيطالى بضربة قاضية وطويت صفحة من صفحات الاستعمار الإيطالى الحزين فى إفريقيا.

وعملت كل من بريطانيا وفرنسا على ملء هذا الفراغ فى إثيوبيا بتأييد الإمبراطور الإثيوبى الذى أصبح يشعر بحاجته إلى الحماية الأوروبية فاعترف بوجود مصالح بريطانية فى النيل الأزرق، ومنح فرنسا عقد امتياز يتيح لها مد خط حديدى من الصومال الفرنسى (جيبوتى) إلى أديس أبابا. وهذه الترتيبات لم تأخذ شكلها الرسمى إلا فى عام ١٩٠٦.

٧. الاستعمار البرتغالى

كان الاستعمار البرتغالى أقدم استعمار وطى أرض إفريقيا، فالبرتغاليون هم أول الأوروبيين الذين نزلوا إلى إفريقيا مع قيامهم بالحركة الكشفية فى القرن الخامس عشر، وبعدهم توالى الدول على طول السواحل الإفريقية.

بدأت خطط البرتغاليين بالالتفاف حول سواحل إفريقيا من الساحل الشمالى الغربى نزولاً إلى كل الساحل الغربى، فأبحروا إلى سيراليون ثم ليبيريا إلى ساحل العاج إلى بنين. وأقام البرتغاليون مراكز تجارية فى مملكة بنين وعلى ساحل غانا ثم نزلوا جنوباً إلى الكونغو حتى وصلوا إلى أنجولا، وأسسوا نقاطاً ساحلية مؤقتة سرعان ما تحولت إلى وجود دائم، ولكنهم لم يستطيعوا فرض سيطرتهم فى الداخل.

وفى شرق القارة أدت الرغبة لدى البرتغاليين فى وجود محطات فى الطريق إلى الهند إلى الاستيلاء على مراكز فى الساحل الشرقى لإفريقيا ودخلوا فى ممالك مع العرب الذين كانوا يسيطرون على تلك المناطق واستولوا على كلوه وزنجبار وبمبه ومبسه ومالندى ومقديشيو ووصلوا إلى موزمبيق عام ١٥٣٠ وأنشأوا حصوناً حربية ومراكز تجارية. وتوقفت الجهود الكشفية الاستعمارية البرتغالية فى شرق القارة بسبب ظهور الأسطول التركى فى مياه الساحل الشرقى الإفريقى^(١). ثم لم يلبث أن ظهر البريطانيون فى مياه المحيط الهندى وتبعهم الهولنديون الذين أسسوا مستعمرة جنوب إفريقيا، كما ظهر الفرنسيون فى جزيرة مدغشقر فكانت هذه كلها داعياً إلى هبوط شأن البرتغال فى الساحل الشرقى.

(١) العبودية فى إفريقيا - المرجع السابق ص ٤٥.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر عاد البرتغاليون إلى الاهتمام بشرق إفريقيا وحددت منطقة موزمبيق - وفقاً لمعاهدات عقدت مع إمام مسقط - لشركات برتغالية تحتكرها ومنع غير البرتغاليين من مزاولة أى تجارة هناك؛ في حين أن البرتغاليين كانوا لا يملكون سوى بعض الحصون المأهولة بحفنة من الجنود والتجار الصغار وكان وجودهم محدوداً داخل البلاد، ولكن توسعت بعد ذلك دائرة نفوذها لتشمل موزمبيق كلها.

وفي الساحل الغربى الإفريقى فى منتصف القرن بدأت الدول الأوروبية تتطلع إلى منطقة الكونغو فبادرت البرتغال بإقامة حاميات على الشاطئ والتوغل فى الداخل، ولكن جاء عقد مؤتمر برلين كارثة للبرتغاليين، فقد اهتز مركز البرتغال هناك إذ أنكر المؤتمر على البرتغال حقوقها فى مصب الكونغو ولم يعترفوا لها إلا بمنطقة كابندا وبمستعمرة أنجولا.

كذلك ظهر الوجود البرتغالى فى الساحل الغربى فى جزيرتى ساوتومى وبرنست منذ عام ١٥٧٠ فى خليج غينيا، وكانا يعتبران محطتان هامتان لتجارة ونقل الرقيق. وقد تأكد هذا الوجود عام ١٨٩٨ بعد توقيع البرتغال عدداً من الاتفاقيات بعد مؤتمر برلين^(١). وبالنسبة لغينيا بيساو وجزر الرأس الأخضر الواقعة على الساحل الغربى الإفريقى المطل على المحيط الأطلسى فقد وصلها البحارة البرتغاليون عام ١٨٤٦ ومارس المبشرون نشاطاً كبيراً لخدمة استقرار السيطرة البرتغالية على المنطقة، وكان الملوك البرتغاليون يعتبرونها ملكية خاصة بهم^(٢).

٨. الاستعمار الإسباني

بالرغم من أن إسبانيا كانت من أوائل الدول التى اندفعت إلى المجال الاستعمارى بل كانت الدولة الثانية بعد البرتغال إلا أن نصيبها فى المستعمرات الإفريقية كان ضئيلاً؛ ذلك أنها لم تقم بدور كبير فى استعمار إفريقيا بسبب انشغالها ببناء إمبراطوريتها فى أمريكا الوسطى والجنوبية، ولكن كثرة الإسبان فى جزر كناريا (الواقعة فى أقصى الشمال الغربى الإفريقى فى مواجهة المغرب) جعلها تكاد تكون إسبانية صرفة، وقد حاول البريطانيون فى بداية القرن التاسع عشر الاستيلاء عليها إلا أنهم فشلوا بسبب دفاع الأهالى ومعهم المهاجرون الإسبان. وفى عام ١٨٣٢ صارت الجزيرة جزءاً من إسبانيا.

اهتمت إسبانيا بالمنطقة الساحلية المواجهة لجزر كناريا ورفعت عليها علمها ١٨٨٥

(١) دليل الدول الإفريقية - المرجع السابق ص ٢٩٦ - ٣٠٨.

(٢) دليل الدول الإفريقية - المرجع السابق ص ٢٣٩.

وأطلقت عليه ديودورو، ثم قامت بضم الساحل الصحراوي الغربي بين رأس يوجادور حتى رأس بلانكو والساقية الحمراء وديودورو في منطقة إدارية واحدة وأطلقت عليها الصحراء الإسبانية (الصحراء الغربية) ثم احتلت منطقتي سبتة ومليلة من الأراضي المغربية. ومن الأملاك الإسبانية في إفريقيا أيضًا مستعمرة صغيرة على الساحل الغربي للقارة هي جزيرة غانا الإسبانية التي احتلتها إسبانيا عام ١٧٨٨ ومعها جزيرة فرناندوبو.



الخلاصة

خريطة إفريقيا الاستعمارية

إن الصورة النهائية لخريطة إفريقيا السياسية بعد أن اكتمل غزوها في نهاية القرن التاسع عشر اختلفت كلياً عما كانت عليه في بداياته، رسمت حدود وظهرت دول مصطنعة واختفت كيانات وممالك وإمبراطوريات عظيمة وصمت بالتخلف والبربرية لتبرر القوى الاستعمارية اغتصاب القارة واحتلالها . ويمكن تلخيص ما سبق أن الفرنسيين كانوا أنشط الأوروبيين في اتباع سياسة الغزو العسكري، فقد زحفوا من أعلى نهر النيجر إلى أدناه، وبذلك قضوا على إمبراطورية السوننكي في سنجامينا، وكذلك على إمبراطورية التكرور في سيجو، وواصل الفرنسيون زحفهم في سائر مناطق غرب إفريقيا فاستولوا على ساحل العاج وغزوا مملكة داهومي ثم الجابون وقضوا على المقاومة الإفريقية العتيدة في الأراضي الواقعة بين منطقة الساحل وبين الصحراء الكبرى، كما عززوا مراكزهم في شمال إفريقيا وغزوا مدغشقر.

وبالمثل كان الاستعمار العسكري البريطاني حافلاً بالأحداث وسفك الدماء، كما كانت ردود الفعل الإفريقية عنيدة ومديدة في أغلب الحالات. وقد استطاعت بريطانيا من خلال ممتلكاتها الساحلية في ساحل الذهب ونيجيريا أن توقف كل توسع فرنسي في اتجاه حوض النيجر الأدنى وفي أراضي الاثنتي الداخلية (غانا)، ثم ضمت لاجوس عام ١٨٩٨ وأعلنت حمايتها على الجزء الأكبر من بلاد اليوروبا. وبحلول عام ١٩٠٠ كانت بريطانيا قد ضمنت السيطرة على جنوب نيجيريا، ولكن الاحتلال الفعلي للمناطق الداخلية الشرقية لنيجيريا لم يتم إلا بعد عقدين من القرن العشرين، أما في الشمال فقد تم الغزو البريطاني لها عام ١٩٠٢^(١).

وفي شرق إفريقيا أعلنت بريطانيا الحماية على زنجبار ١٨٩٠ وأصبحت زنجبار هي

(١) تاريخ إفريقيا العام - المرجع السابق ص ٥٥.

القاعدة التي انطلق منها الغزو البريطاني للبقية الباقية من إفريقيا الشرقية، وكانت الغنيمة الكبرى لها أوغندا التي أعلنت عليها الحماية رسميًا ١٨٩٤، أما كينيا فقد قضت بريطانيا عشر سنوات قبل أن تتمكن من السيطرة عليها. وامتدت سطوتها إلى أريتريا فاحتلت جزءًا منها عام ١٨٨٣. كما استولت على الساحل الشرقي للصومال في أثناء تقسيم الإمبراطورية العثمانية ١٨٨٦، ثم أبرمت معاهدة عام ١٨٨٩ مع منليك الثاني إمبراطور الحبشة (إثيوبيا) التي عينت الحدود بين الحبشة وأريتريا.

وفي وسط القارة وجنوبها لم تسقط نهائيًا في أيدي الغزاة البريطانيين إلا بعد القمع الدموي لشعبي النديبيل والماشونانيين عامي ١٨٩٦-١٨٩٧. ثم غزت بريطانيا زامبيا وتم احتلالها عام ١٩٠١. كانت آخر حروب التقسيم التي خاضتها بريطانيا حربها ضد البوير في جنوب إفريقيا (مع ملاحظة أن الحرب بين الإنجليز والبوير ١٨٩٩-١٩٠٢ كانت حربًا بين الأوروبيين أنفسهم أي بين الإحتلال الإنجليزي والمستوطنين الأوروبيين في البلاد).

وبالنسبة لألمانيا فهي لم تتمكن من تثبيت حكمها الفعلي في جنوب غرب إفريقيا إلا في أواخر القرن التاسع عشر بعد أن أجرت حرب إبادة على شعب الهيريرو. وفي الكاميرون تم إخضاعها عام ١٩٠٢. على أن حروب غزو إفريقيا الشرقية الألمانية تنجانيقا (تانزانيا) كانت الأشد ضراوة وأطول أمدًا فقد استمرت من ١٨٨٨ إلى ١٩٠٧ وكانت أبرز حملاتها هي التي وجهتها ضد الزعيم بوشيري قلب الاسد ١٨٨٨-١٨٨٩ وضد الواهيي ١٨٩٨ وضد زعماء مقاومة الماجي ماجي ١٩٠٥-١٩٠٧.

وبالنسبة للاستعمار البلجيكي فقد واجهت دولة الكونغو الحرة صعوبات قبل أن تتمكن من الإحتلال العسكري الكامل. في البداية حاولت التحالف مع عرب الكونغو الذين كانوا يعادونها أشد العدا، وعندما أيقن ليوبولد عدم جدوى هذا التحالف شن حملة ضدهم ولم يتسن إخضاعهم إلا بعد ثلاث سنوات ١٨٩٢-١٨٩٥، كما لم يستكمل احتلال كاتنجا الذي بدأ عام ١٨٩١ إلا بعد أوائل القرن العشرين.

أما الشمال الإفريقي فقد قسم بين بريطانيا وفرنسا وإسبانيا وبذلك يمكن القول انه بحلول عام ١٩١٤ لم يكن قد بقي في إفريقيا دولة مستقلة - أسما - سوى ليبيا والحبشة (إثيوبيا).

والسؤال لماذا تمكنت القوى الأوروبية من قهر إفريقيا؟

تمكنت القوى الأوروبية من قهر إفريقيا لعدة أسباب، أولاً: كان الأوروبيون - يعرفون

إفريقيا وإصقاعها الداخلية تضاريسها وأرضها واقتصادها ومواردها ومواطن القوة والضعف في دولها ومجتمعاتها أكثر مما كان الإفريقيون يعرفونه عن أوروبا بالطبع.

ثانيًا: كان الأوروبيون بفضل التطورات في التقنيات الطبية لا سيما اكتشاف الكينين كدواء وافي من حمى المستنقعات (الملاريا) قد أصبحوا أقل تخوفًا من إفريقيا مما كانوا عليه قبل منتصف القرن التاسع عشر.

ثالثًا: كانت موارد أوروبا المادية والمالية أضخم بكثير من موارد إفريقيا؛ أدى ذلك إلى عدم التوازن التجاري بين هاتين القارتين حتى العقد الثامن من القرن التاسع عشر، بل وبعد ذلك تزايد مع سرعة الثورة الصناعية إذ كان بوسع القوى الأوروبية أن تنفق ملايين الجنيهات في حملاتها وراء البحار، ولم تكن دول إفريقيا تستطيع احتمال أية مواجهة عسكرية طويلة الأمد ضد هذه القوى.

رابعًا: اتسمت هذه الفترة في إفريقيا بالتصارع والتطاحن بين دولها وفي داخلها، الماندنجو ضد التكرور، الأشانتى ضد الفانتى، الباغندا ضد البنيورو، الباتورو ضد البنيورو أيضًا، الماشونا ضد النديبيل، وفي حين كانت الاقطار الإفريقية مشتتة كانت الدول الأوروبية - طوال فترة التقسيم حتى عام ١٩١٤ - تحل مشاكلها فيما بينها دون اللجوء إلى الحرب، وهكذا أبدت الدول الأوروبية المشتركة في التقسيم رغم حدة التنافس روحًا تضامنية حالت دون الحروب فيما بينها بل حالت أيضًا بين حكام إفريقيا ومجتمعاتها وبين الإيقاع بين دول أوروبية وأخرى حفظًا لمصالحها، فطوال هذه الفترة لم يحدث قط أن قامت دولة أوروبية بمساعدة دولة إفريقية ضد دولة أوروبية أخرى.

أما مسلك الدول الإفريقية فكان على العكس حيث انعدم التضامن والاتحاد والتعاون، بل إن البعض كان لا يتورع عن التحالف مع القوى الأوروبية الغازية ضد جيرانه مثل تحالف الباغندا مع البريطانيين ضد البنيورو، والباروتس مع البريطانيين ضد النديبيل، والبابابارا مع الفرنسيين ضد التكرور. ونتيجة لهذا كله بدت حركات المقاومة الإفريقية حركات معزولة غير منسقة حتى على الصعيد الإقليمي.

أما العامل الأخير وهو أكثر العوامل حسماً فكان تفوق أوروبا العسكرية الساحق على إفريقيا، فبينما كانت أوروبا تستخدم جيوشاً منظمة مدربة محترفة كان عدد الدول الإفريقية التي لديها جيوش دائمة قليلة جداً وكانت تجند الأفراد وتعبثهم للهجوم أو الدفاع على أساس

ارتجالي حسبما تدعو الحاجة؛ في حين كانت تستطيع الدول الأوروبية أن تستعين بمرتزقة ومجندين أفارقة وغيرهم. وفضلاً عن ذلك كله كانت الدول الاستعمارية قد اتفقت بمقتضى اتفاقية بروكسل ١٨٩٠ ألا تتبع سلاحاً للإفريقيين، ومعنى ذلك أن معظم الجيوش الإفريقية كانت مسلحة ببنادق قديمة لا تصلح للاستخدام؛ بنادق بقذاحة أو بنادق تحشى من الفوهة لتواجه بها الجيوش الأوروبية المسلحة بأحدث المدافع الثقيلة بنادق سريعة الطلقات ومدفعية ثقيلة لقواتها البحرية.

لكل هذه المزايا الاقتصادية والسياسية والعسكرية كان لا بد أن تتفوق دول أوروبا على الكيانات السياسية الإفريقية، فالمعركة لم تكن متكافئة مطلقاً؛ لذا لم يكن غريباً أن تقهر دول أوروبا بلاد إفريقيا بسهولة، والواقع أن توقيت الغزو كان أفضل توقيت بالنسبة لأوروبا وأسوأ توقيت لإفريقيا^(١).

وهكذا اختلفت تماماً الخريطة السياسية لإفريقيا بعد تعيين الحدود والاحتلال العسكرى في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين عما كانت عليه في بدايات القرن التاسع عشر.. قسمت القارة نحو ٤٣ وحدة سياسية مصطنعة وتعسفية ومتعجلة وعشوائية شوهت النظام السياسى الوطنى الذى كان قائماً قبل مجيء الأوروبيين. فنجد نحو ٣٠٪ من الطول الكلى للحدود مرسوم على شكل خطوط مستقيمة كثيراً ما تخترق حدوداً إثنية ولغوية.. غزو إفريقيا وفي عام ١٩٠٢ اكتمل وكان غزوا أهدرت فيه دماء وأرواح لا تحصى، وإذا كان غزو أوروبا لإفريقيا ورسم حدودها تم بسهولة فإن احتلال القارة وإقامة الإدارة الأوروبية لم يكن هيناً فيما بعد، فقد واجه المستعمرون اضطرابات وتمردات من الأهلى الوطنيين واندلعت حركات المقاومة فى كل أجزاء القارة، وهذا الجانب من التاريخ الإفريقى المشرف الغنى بالدول والممالك والامبراطوريات الإفريقية أسدل عليه ستائر النسيان وحين يشار إليه يوصم بالتخلف والدونية. وهذا ما يحاول الجزء التالى من الكتاب التعرض له والكشف عنه. وفيما يلي جدول يبين خريطة ممتلكات الدول الأوروبية للأراضى الإفريقية وتاريخ احتلالها.

(١) تاريخ إفريقيا العام - المرجع السابق - ص ٦٣.

المملكة المتملكة	عدد سكانها	المساحة مقدرة بالأجيال المربعة	الدولة التي غلبت عليها	تاريخ التسوية النهائية أو الاعتراف
الساحل، الشغال				
الجزائر	٥,٦٠٠,٠٠٠	١,١٠٠,٠٠٠	فرنسا	اتفاق ٥ أغسطس سنة ١٨٩٠ بين فرنسا وإنجلترا
تونس	١,٨٠٠,٠٠٠	٤٦,٠٠٠	فرنسا	ابتداء الاحتلال سنة ١٨٨١
مصر	١١,٣٠٠,٠٠٠	٤٠٠,٠٠٠	بريطانيا	ابتداء الاحتلال في سنة ١٨٨٢
المجموع	١٨,٧٠٠,٠٠٠	١,٥٤٦,٠٠٠		
الساحل الغربي				
المنطقة من رأس بوجادور إلى الرأس الأبيض	٢٠٠,٠٠٠	٧٥,٠٠٠	إسبانيا	إعلان الحماية في ٩ يناير ١٨٨٥
السنغال	١,٢٥٠,٠٠٠	٧٤,٠٠٠	فرنسا	تسوية ١٠ أغسطس ١٨٨٩ بين فرنسا وإنجلترا
غينيا	١٤٦,٠٠٠	٤,٠٠٠	بريطانيا	تسوية ١٠ أغسطس ١٨٨٩ بين فرنسا وإنجلترا
غينيا البرتغالية	٤٠٠,٠٠٠	١٤,٠٠٠	البرتغال	اتفاق ١٢ مايو سنة ١٨٨٦ بين فرنسا والبرتغال
غينيا الفرنسية	١,٧٣٧,٣٥٠	٩٣,٠٠٠	فرنسا	اتفاق ١٠ أغسطس سنة ١٨٨٩
سييرا ليون	١,٠٠٠,٠٠٠	٣٤,٠٠٠	بريطانيا	اتفاق ١٠ أغسطس سنة ١٨٨٩

الملكيات الأوروبية في إفريقية قفلاً عن كتاب «المنافسة الدولية في أعالي النيل ١٨٨٠ - ١٩٠٦ تأليف الدكتور علي إبراهيم عبده/ مطبعة الانجلو المصرية ١٩٥٨».

التاريخ التسوية النهائية أو الاحتلال	الدولة التي تحتلها	المساحة مقدرة بالأبوال المربعة	عدد سكانها	المنطقة المحتلة
اتفاق ١٠ أغسطس سنة ١٨٨٩	فرنسا	١٢٠,٠٠٠	١,٢١٦,٠٠	ساحل الملاج
اتفاق ١٠ أغسطس سنة ١٨٨٩	بريطانيا	٤٠,٠٠٠	٨٥٧,٠٠٠	ساحل الذهب
اتفاق أول يولية ١٨٩٠ بين بريطانيا وألمانيا	ألمانيا	٣٣,٠٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠	توجولااند
تسوية ٣ أكتوبر ١٨٩٠ بين فرنسا وداومومي	فرنسا	؟	؟	بوربونوفو
تسوية ١٠ أغسطس سنة ١٨٨٩ إعلان الحماية في ٥ يولية ١٨٨٥	بريطانيا	؟	؟	لاجوس
اتفاق ٥ أغسطس ١٨٩٠ بين فرنسا وبريطانيا وأول يولية من السنة نفسها بين ألمانيا وبريطانيا إعلان الحماية في ١٥ أكتوبر ١٨٨٤	بريطانيا	غير محددة	؟	نيجيريا
تسوية إبريل - يولية ١٨٨٥ بين ألمانيا وبريطانيا بروتوكول ٢٤ ديسمبر ١٨٨٥ بين ألمانيا وفرنسا بروتوكول ٢٤ ديسمبر ١٨٨٥ بين ألمانيا وفرنسا	ألمانيا	٢٩٥,٠٠٠	٣,٥٠٠,٠٠٠	الكامرون
اتفاق ١٢ مايو ١٨٨٦ بين البرتغال وفرنسا	فرنسا	؟	؟	الكنغو الفرنسية
معاهدات اعتراف ١٨٨٥ / ١٨٨٤	بلجيكا	٨٠٢,٠٠٠	١٥,٠٠٠,٠٠٠	دولة الكونغو الحرة
		٥,٩٩٦,٠٠٠	٧٤,٧٠٠,٠٠٠	المجموع الكل بالتقريب

تاريخ التسوية النهائية أو الامتلاك	الدولة التي تحتلها	المساحة مقدرة بالآبيل الرزمة	عدد سكانها	المنطقة المحتلة
اتفاق ١٢ مايو ١٨٨٦ بين فرنسا والبرتغال التصريح البرتغالي الأمانى في ٣٠ ديسمبر ١٨٨٦	البرتغال	٤٨٠,٠٠٠	٥,٠٠٠,٠٠٠	أنجولا
تصريح بالحماية ١٠ أغسطس ١٨٨٤ اتفاق ٣٠ ديسمبر ١٨٨٦ بين ألمانيا والبرتغال	ألمانيا	٣٢٢,٠٠٠	١٢٠,٠٠٠	جنوب غرب إفريقيا الألمانية
		٢,٥٠٠,٠٠٠	٣٣,٠٠٠,٠٠٠	المجموع بالتقريب الجنوب
بريطانيا قبل سنة ١٨٨٠	بريطانيا	٢٢٠,٠٠٠	٢,٤٦٠,٠٠٠	مستعمرة الرأس
اتحاد مع بريطانيا	بريطانيا	٣٥,٠٠٠	٢,٤٩٠,٠٠٠	ناتال
اتحاد مع بريطانيا	بريطانيا	١٠,٠٠٠	٣٥٠,٠٠٠	باسوتولاند
أمر مجلس وإعلان ٢٩ و ٣٠ سبتمبر ١٨٨٥	بريطانيا	٥١,٠٠٠	٩٩,٠٠٠٠	بسنوتالاند البريطانية
ميثاق مع الشركة في أكتوبر ١٨٨٩	بريطانيا	؟	؟	شركة جنوب إفريقيا البريطانية
		٥٠٠,٠٠٠	٤,٠٠٠,٠٠٠	المجموع بالتقريب الساحل الشرقى
التصريح البرتغالي الأمانى في سنة ١٨٨٦	البرتغال	٣٠٠,٠٠٠	٣,٢٠٠,٠٠٠	إفريقيا الشرقية البرتغالية

المنطقة المحتلة	عدد سكانها	المساحة مقدرة بالآمال الربعه	الدولة التي تحتلها	تاريخ التسوية النهائية أو الاحتلال
مدغشقر، إلخ	٣, ١٥٣, ٠٠٠	٢٢٦, ٠٠٠	فرنسا	التصريح الفرنسي البريطاني في ٥ أغسطس ١٨٩٠ والفرنسي الألماني في أول يولييه سنة ١٨٩٠
إفريقيا الشرقية الألمانية	٧, ٦٤٥, ٠٠٠	٣٨٤, ٠٠٠	ألمانيا	إعلان الحماية في ٦ مارس ١٨٨٥ والتصريح الألماني البريطاني في ٣٠ ديسمبر ١٨٨٦
إفريقيا الشرقية البريطانية	٤, ٠٠٠, ٠٠٠	٢٤٦, ٠٠٠	بريطانيا	الاتفاق الألماني البريطاني في أول يولييه ١٨٩٠ ميثاق مع الشركة البريطانية لشرق إفريقيا في ١٨٨٨ الاتفاق البريطاني الألماني في سنة ١٨٩٠
الصومال الإيطالي	٣٠٠, ٠٠٠	١٣١, ٠٠٠	إيطاليا	إعلان الحماية في سنة ١٨٨٩ إعلان الحماية في سنة ١٨٨٤
الصومال البريطاني	٣٠٠, ٠٠٠	٦٨, ٠٠٠	بريطانيا	مذكرات متبادلة بين فرنسا وبريطانيا في ٢٩ فبراير سنة ١٨٨٨ وأمر مجلس سنة ١٨٨٩
الصومال الفرنسي	٢٠٠, ٠٠٠	٤٦, ٠٠٠	فرنسا	مذكرات متبادلة بين فرنسا وبريطانيا في سنة ١٨٨٨
إريتريا	٢٨٠, ٠٠٠	٦٠, ٠٠٠	إيطاليا	حلفاء مع السلاطين المحليين في سنة ١٨٨٨
المجموع بالتقريب	١٩, ٠٠٠, ٠٠٠	١, ٤٥٠, ٠٠٠		*
المجموع الكلي بالتقريب	٧٤, ٧٠٠, ٠٠٠	٥, ٩٩٦, ٠٠٠		

الجزء الثانى

المقاومة الإفريقية ضد الغزو

- تمهيد.
- الخلفية التاريخية لإفريقيا الغربية:
 - ١- الاسلام.
 - ٢- الطرق الصوفية.
- الفصل الأول:
 - أولاً: السودان الغربى.
 - ثانياً: السودان الاوسط.
- الفصل الثانى: المقاومة فى السودان الغربى والأوسط.
- الفصل الثالث: السودان الشرقى - سودان وادى النيل.
- المقاومة الوطنية والثورة المهدية.
- الفصل الرابع: دول الساحل وممالك الغابات الإستوائية.
- مقاومة الممالك الزنجية ضد الغزو.

تمهيد

هذا الجزء الثانى من الكتاب يركز على المقاومة الإفريقية ضد المستعمرين وكيف قاومت الشعوب الإفريقية غزواتهم من أجل الاحتفاظ بأرضهم وسيادتهم، ثاروا وتمردوا وحاربوا وقتلوا وأبیدو وحيت قبائل وتغيرت الخريطة البشرية وهجرت شعوب قسراً ودمرت حضارات، ولكن لم تُسجل هذه المقاومة عن عمد وتجاهل معاً.

إن إفريقيا قبل أن يغتصبها ويلتهمها الاستعمار لم يكن أهلها وزعاماتهم كما وصفهم السياسى البريطانى الشهير «ونستون تشرشل» فى كتابه «حرب النهر»: «إن الإفريقين عقولهم بسيطة شرسون يعيشون عيشة إنسان ما قبل التاريخ يتزوجون ويموتون وأقصى طموحهم هو إشباع رغباتهم الجسدية، يعيشون أجواء تملؤها الأشباح والإيمان بقوة السحر وعبادات الإسلام، يحملون فضائل بربرية جهلاء وجهلهم مصدر براءتهم، تاريخهم جميعاً هو خليط من الشقاء وأسطورة من البؤس».

لم تكن إفريقيا أبداً عندما دنسها الاستعمار مثلما وصفها البريطانى الشهير، أقوام بسطاء سذج هملوا بالمستعمرين وباعوا أرضهم من أجل حفنة من الخرز الملون وكأس نبيذ، ووقعوا على معاهدات ساذجة كالتى تنص «أن تبقى هذه المعاهدات سارية إلى أن يبيد التراب ويشيب الغراب، كما يشيعه الغرب عنهم».

لنسترجع وصف أحد ملوكها لوبنقولا ملك قبائل الماتا بيلي (زيمبابوى) لأحد المبشرين كيف استعمرت مملكته عام ١٨٨٩ قال «أرأيت كيف تقبض الحرباء على الذبابة؟ إنها تزحف خلفها حتى إذا اقتربت منها كفت عن الزحف والتنفس فترة ثم تستأنف زحفها بطيئاً تقدم رجلاً أولاً وأخرى بعد حين وعندما تكاد تلامس الذبابة تنقض عليها بلسانها وتختفى الذبابة.. إن إنجلترا هى الحرباء وأنا الذبابة». إن هذا الفهم والتلخيص المذهل لأساليب الاستعمار ينم

عن ذكاء ووعى وإدراك كامل يدحض أكاذيب أن الإفريقيين كانوا من الهمج الشرسون بلا عقول يأكلون لحم البشر، وهى الأكاذيب التى روجها المستعمرون لكى يشعروا الإفريقى بالختجل من ماضيه ويبرروا سرقتهم له.

إفريقيا قبل أن يطأها الاستعمار بقرون كانت قارة ثرية بحضارات عظيمة وزعامات رائعة، قامت فيها عمالك كبيرة وروابط حضارية ومسالك تصل أطرافها بعضها ببعض، وعلاقات تجارية بالعالم الخارجى تمتد حتى الصين، ولكن لم يشهد المستعمرون بشئ من هذا ولزموا الصمت وأصروا على ازدرائهم ونظرتهم الدونية للإفريقيين.

إن كتب التاريخ مليئة بالأحداث والوقائع ولكن نادراً ما تشير إلى المقاومة الإفريقية ونادراً ما نجد أبحاثاً تبين هذا الجانب الهام، والسبب أن اغلب تاريخ إفريقيا كتب من منظور استعماري وقليل جداً ما كتبه إفريقيون بأقلامهم، وحتى ما كتب فيها استمدت هذه الأقلام معارفها ومصادرها من الكتابات الغربية. إن التاريخ الإفريقى لم يكتب بعد؛ لذلك طمست المواجهات الصامدة ضد المستعمرين ومحيت انتفاضات وحروب دامية، وأهيل النسيان على بطولات وشخصيات عظيمة دافعت عن استقلال أرضها حتى الموت.

إن القارة الإفريقية من الاتساع بما يصعب معه حصر تاريخ حركات المقاومة جميعها. لذلك أثرت أن أحصر بحثى فى المنطقة التى تشمل شمال خط الاستواء الممتدة من المحيط الأطلسى غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً، ليس لأن هذه المنطقة كانت مقاومتها أكثر فاعلية من غيرها فى بقاع أخرى إفريقية، ولا لأنها تميزت بكتابات أوفى، وليس لأن شعوبها كانوا أكثر وعياً وإحساساً بضياى سيادتهم على أراضيهم، وإنما لأنها أقرب إلينا جغرافياً وتاريخياً، وهذا لا يقلل من كفاح شعوب إفريقيا جنوب خط الاستواء ومقاومتهم الفذة وثوراتهم ضد حجاجل البرابرة المستعمرين، ولعل ثورة الهيريرو^(١) فى جنوب غرب إفريقيا (ناميبيا) فى أواخر القرن التاسع عشر التى كبدت الألمان خسائر فى الأرواح بلغت خمسة آلاف جندى ومستوطن ألماني ونفقة تبلغ ١٥ مليون جنيه استرليني خير شاهد على ذلك.

لم تكن الحرب المأساوية التى شنها المستعمرون الألمان على شعب الهيريرو والهدف منها إخضاع الأهالى فقط بل إبادتهم إبادة كاملة، وأدت ثورتهم التى عرفت بانتفاضة الهيريرو ضد الحكم الألمانى إلى حرب ضروس استمرت أربع سنوات صار بعدها الهيريرو الذين كانوا يبلغون ٨٠ ألفاً من الأهالى الأشداء لا يزيد عددهم عن ١٥ ألف من البشر المشردين.

(١) العبودية فى إفريقيا - المرجع السابق - ص ١٠٠.

كان من أسباب ثورة الهيريرو هو احتلال الألمان لأراضيهم، والوسائل الوحشية التي مارس بها الغزاة سيطرتهم، فقد كان قرار احتلال جنوب غرب إفريقيا يعنى لألمانيا شيئاً واحداً هو أن تقوم القبائل بتسليم الأرض التي كانت يرعى فيها أصحاب الأرض ماشيتهم ليتاح للرجل الأبيض امتلاك الأرض والماشية، وأيضاً الحصول على الماس الذى اكتشف بكميات وفيرة على سطح تربتها الرملية.

استبد الحكم الألماني بالأهالى الضعفاء واستولى على ماشيتهم وأرضهم التي كانوا يتجولون في أنحائها وعيون المياه التي كانوا يستخدمونها. وأدت مصادرة السلطة الألمانية لعدد كبير من الماشية إلى غضب الهيريرو ورغبة جامحة في القتال. يصف ذلك الكتاب الأزرق الذى أصدرته الحكومة البريطانية عن فظائع الاحتلال الألماني ضد الإفريقيين بعنوان «اتحاد جنوب إفريقيا تقرير عن أهالى جنوب غرب إفريقيا وتعامل الألمان معهم». وقد اصدرت بريطانيا هذا الكتاب بعد الحرب العالمية الأولى. لم يكن اصداره عملاً شريفاً منزهاً من جانب بريطانيا لإظهار الحق وإنما لتبرير انتزاع هذه المنطقة من الألمان ليأخذوها هم ويحلوا محلهم، كان هدفهم هو اقتلاع جذور الاستعمار الألماني وتثبيت الوجود البريطانى. يكشف الكتاب الفظائع التي ارتكبت وأمر الإبادة الذى أصدرته الإدارة الألمانية: «يحتم قتل كل رجل وكل امرأة وكل طفل من الهيريرو». ويحوى الكتاب أوصافاً تفصيلية وصوراً فوتوغرافية عن قتل المساجين من الجرحى وغير الجرحى ومن الرجال والأطفال الصغار والنساء، وحتى من استسلم منهم وهم في الرمي الأخير كان الجند الألمان يضربونهم بالسياط حتى الموت جزاء لهم على مقاومتهم، ومن استطاع الهرب أبادتهم الصحراء إذ من نجا من أبناء القبيلة هاموا في الصحارى وهلكوا من الجوع والعطش، وذلك بعد أن فقدوا أرضهم وقطعانهم وحريرتهم وحياتهم العائلية وتمزقت وحدتهم القبلية.

يصف الكتاب مشهد إعدام اثنين من زعماء الهيريرو طالبوا باسترداد أرضهم «بأنهما حملاً حملاً من عربة النقل وبكبرياء وبرأس مرفوعة مشياً نحو الشجرة التي ربطا فيها وبدون تغطية عيونهما أطلقت النار عليهما ودوت طلقات البنادق في وقت واحد عبر الجبال المجاورة كأنها الرعد وانتهت حياة المتمردين».

أشعل هذا الحادث الثورة في النفوس، وبدأت الحرب. كان جميع زعماء الهيريرو في ميدان القتال يحيط بهم زوجاتهم وأطفالهم ومواشيهم مما أعاق حركة قتالهم؛ في حين استدعت قوة إضافية من القوات الألمانية العسكرية وصدرت لها الأوامر أن يضرب كل هيريرو بالرصاص

سواء كان معه سلاح ام لم يكن، وسواء كانت لديه ماشية أو لم تكن، وأن لا يقبض على النساء والأطفال ولكن يبعدون إلى الصحراء حيث يموتون جوعاً وعطشاً أو يرمون بالرصاص. ولما كانت بنادق الألمان سريعة الطلقات فقد أجهضت الثورة وولت الجماعة كلها الأدبار إلى المناطق الجبلية النائية وهى أراضى رملية لا ماء فيها. وهكذا حُكم على الهيريرو بالموت وتبعثروا بلا حول ولا قوة وقد تحطمت أطرافهم وخارت قواهم وصار بعضهم جثثاً هامدة.

لقد أشرت إلى ثورة الهيريرو كمثال لأثبت أن إفريقيا كلها شهاها وجنوبها شرقها وغربها كانت طوال القرن التاسع عشر تنتفض بالثورات ضد المستعمرين.



إن واحداً من الحقائق البارزة عن الدول الإفريقية القديمة هو أنهم لم يغزوا قط من خارج القارة، وإن كان حدث ذلك فقد كان من النادر جداً. لقد قاوموا الغزو وبقوا بعيدين عن أن تنتهك أراضيهم. كان فقط على طول الساحل يمكن للمسلحين الأوروبيين أن يكسبوا موضع قدم ولكن أخفقوا أن يكسبوا المزيد، حتى الدول العربية الموجودة في شمال إفريقيا كان حظها قليلاً في غزواتها البرية إلى الجنوب وقد فشلوا في النهاية وأجبروا على الرحيل.

إن كتاب المرحلة الاستعمارية يميلون إلى تفسير هذه الحقيقة الخاصة بنجاح المقاومة الإفريقية بإرجاعها إلى المناخ والناموس، وفعلًا كانت الملاريا والشمس كانا مما يشبط عزائم الغزو الأجنبي، ومع ذلك فإن التقارير المبكرة تشير إلى أسباب أخرى وحصانات أخرى وجدت ضد الغزو وهى قوة الجيوش الإفريقية وأن العنصر العسكرى كان بين وقت وآخر يثبت أنه العنصر الحاسم^(١).

كان اهتمام الأوروبيين الأوائل مقصوراً على المناطق الساحلية، ولم يتوغلوا في الداخل إذ كان هدفهم التجارة لذلك اكتفوا بالمناطق الساحلية، واعتمدوا على الحكام ورؤساء القبائل المحليين لتزويدهم بمنتجات المناطق الداخلية، كانت سياسة الأوروبيين تنحصر في بناء قلعة أو حصن ساحلى. وقد أدرك الإفريقيون منذ اللحظة الأولى أخطار السماح للأجانب بامتلاك مكان حصين، فلم يسمح الرؤساء الإفريقيون للتجار الأجانب ببناء القلاع بل إنهم حينما سمحوا بها كما في حالة قلعة المينا (على الساحل الغربى الإفريقى) التى كانت مكاناً لإقامة العبيد المقتنصين إلى حين ترحيلهم إلى الأمريكيات وأوروبا، ادعى الإفريقيون السيادة عليها

وطالبوا أن تكون الموانى مفتوحة وبأن يكون باستطاعة أى شخص زيارتها. كما لم يكن يسمح للأوروبيين بالقيام بغارات لاقتناص العبيد وإنما كانوا يستطيعون شراءهم فقط حيث كانت السلطة فى يد دول الساحل. ومع إدخال الأسلحة الأوروبية وما جاء فى أعقاب التجارة من رخاء مادمى نمت قوة الدول الساحلية التى كانت تعتمد على التجارة وتوريد العبيد، لذلك لم يستطع الأوروبيون مد سلطاتهم فى الداخل.

إذن لم يكن الزوج الدين واجههم الأوروبيون همجاً أو يعيشون فى أحوال بدائية بل كانوا تجاراً ممتازين ولديهم دول حسنة التنظيم ومدن مسورة فيها حكام وملوك أقوياء حتى صغار رؤساء القبائل كانت لديهم رغبة كاملة فى استخدام القوة ضد الأوروبيين، وهذا يناقض الفكرة التاريخية القائلة بأنه قبل القرن التاسع عشر كان الأوروبيون فى غرب إفريقيا يعتبرون سادة وبأن الإفريقين يرهبونهم.

إن النظرة الأوروبية فى التاريخ هى من روجت بأن الإفريقين اعتبروا مجيء المستعمرين نعمة وخلاصاً لهم من الحروب الداخلية بينهم، ومن طغيان القبائل المجاورة بعضهم ببعض، ووصفت غير المقاومين بأنهم محبوبون للسلام وكل من قاوم بأنه متعطش للدماء.

كان المستعمرون على غير دراية بتفاصيل الأوضاع فى إفريقيا وكانوا يتتهجون استراتيجية الزحف والتقدم بشكل عشوائى وغير منسق فاصطدموا بالعديد من حركات المقاومة والتمرد والثورات وحروب العصابات. وما إن انتصروا حتى حاولوا أن يبينوا أن معظم الإفريقين تقبلوا «السلام الاستعماري» شاكرين، وتم تجاهل وقائع المقاومة الإفريقية الباسلة. وبالرغم من هزيمة الإفريقين فإن انتصار أوروبا لا يعنى أن المقاومة الإفريقية كانت هزيلة فى ذلك الوقت، فالمقاومة الإفريقية أثبتت أن الإفريقين لم يتقبلوا عملية الغزو الأوروبى فى هدوء ودعة، وأن مقاومتهم لم تكن يائسة ولا رعناء بل كانت رشيدة ومحددة، وأن حركات المقاومة هذه لم تذهب سدى وأنت بتتائج هامة وقتها ولم تزل لها أصداء حتى اليوم.

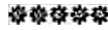
لقد قاومت المجتمعات الإفريقية بكل أشكالها تقريباً، والشعوب غير المنظمة مركزياً تمتعت بنفس قدرة الشعوب الأخرى المنظمة مركزياً على المقاومة العتيدة ضد البيض. ولكن شدة المقاومة كانت تختلف من منطقة إلى أخرى، فالمقاومة المسلحة فى روديسيا الشمالية (زامبيا) مثلاً لا تقارن فى اتساعها ولا فى مدتها بالمقاومة التى قامت فى روديسيا الجنوبية (زيمبابوى) ولا بمقارنة وادى الزيمبى ضد البرتغاليين^(١).

(١) تاريخ إفريقيا العام ص ٦٥ - ٦٧.

كما أن الصراعات بين حكام الدول الإفريقية جعلت الطبقة الحاكمة منعزلة وفي حالة انفصال عن الشعب لأن نتائج الحروب الأهلية لم تكن تؤدي إلى تغيير في النظام أو تغيير كیفى في مكانه، وظروف الناس ككل لم تكن نتیجتها أكثر من تغيير طبقة حاكمة مكان أخرى جديدة، وهذا أحدث عزلة بين الحاكم والمحكومين، لذلك ينبغي تفسير هزيمة المقاومة الإفريقية أمام الغزو الأوروبي ليس فقط من منطق ضعف التقنية للشعوب الإفريقية ولكن أيضاً من منطق الضعف الفطرى للتكوينات الاجتماعية الإفريقية خلال تلك الفترة^(١).

وقبل الحديث عن مقاومة الشعوب الإفريقية لغزاتهم لا بد من الإشارة إلى الممالك الإفريقية التى كانت قائمة قبل قدوم المستعمرين، ولكى يسهل فهم الموضوع قسمت القارة إلى عدة مناطق: غرب إفريقيا، شرق إفريقيا، وسط إفريقيا، جنوب إفريقيا إذ تختلف ظروف وآليات المقاومة فى كل منطقة عن الأخرى.

ومنطقة مجال البحث فى هذا الفصل هى شمال خط الاستواء وهى الحزام الممتد من المحيط الأطلسى حتى البحر الأحمر أو ما يطلق عليه السودان الكبير وهو ينقسم إلى ثلاث مناطق: السودان الغربى أو إفريقيا الغربية والسودان الأوسط والسودان الشرقى السودان وادى النيل الذى يمتد إلى الشرق الإفريقى حتى البحر الأحمر.



(١) السياسة والحكم فى إفريقيا الجزء الأول - المشروع القومى للترجمة - المجلس الأعلى للثقافة ص ٥٧.

- الخلفية التاريخية لإفريقيا الغربية.
- الإسلام.
- الطرق الصوفية.

الخلفية التاريخية لغرب إفريقيا

المقصود بمنطقة غرب إفريقيا ليس المعنى الجغرافى للمنطقة التى تمتد من سبتة المغربية فى الشمال حتى الكاب فى جنوب إفريقيا، فالمغرب والصحراء يعتبران قسماً من إفريقيا الشمالية، كما أن أنجولا وناميبيا يشكلان قسماً من إفريقيا الجنوبية، وتعد زائير والجابون والكاميرون جزءاً من إفريقيا الوسطى، يبقى ما أقصده بغرب إفريقيا مجال البحث هى مناطق السافانا التى تمتد حتى مشارف الشمال الإفريقى وجنوباً إلى ساحل المحيط، أى المنطقة التى تضم حالياً خمسة عشرة دولة مستقلة: موريتانيا والسنغال وجامبيا ومالى وغينيا بيساو والنيجر وساحل العاج (كوت ديفوار) وبوركينا فاسو (فولتا العليا) وبنين وتوجو ونيجيريا وغانا وسيراليون وليبيريا.

قبل أن تقسم هذه المنطقة إلى مستعمرات ومحميات كان يشار إليها بعبارة دول الساحل ودول ما وراء الساحل، وقد منح النهران الكبيران اللذان يجريان فيها نهر النيجر ونهر السنغال بعض الوحدة والتماسك لهذه الأراضى، وأيضاً جعلاً أكبر قوتين استعمارييتين أوروبيتين تتبعان مجرى هذين النهرين للولوج إلى إفريقيا فكان الفرنسيون يتبعون نهر السنغال والإنجليز نهر النيجر.

وتاريخ إفريقيا الغربية فى العصور الوسطى وحتى نهاية القرن التاسع عشر كانت تتحكم فيه ظاهرة الهجرات أو الغارات المتصلة لبعض قبائل المغرب العربى عند أطراف الصحراء وطرقها المستمر للوطن الزنجى فى الجنوب؛ هذا فضلاً عن الاتصال التجارى الحتمى الذى كان يتم بين المغرب العربى فى الشمال الإفريقى وبين أسواق إفريقيا، هذه القبائل المهاجرة كان ينتهى أمرهم بأن يفرضوا نفوذهم بالقوة على طوائف مسالمة من الزنوج المستقرين ثم يتشر نفوذهم انتشاراً سريعاً فى إقليم السافانا المكشوف وتكتفى بإخضاع الشعوب الزنجية

بقوة السلاح وتفرض ضريبة عليهم ثم يتم الاختلاط التدريجي بين الغالب والمغلوب عن طريق التزاوج وتنشأ طبقة جديدة من المولدين تغتصب الحكم وتقيم الإمبراطوريات والممالك الكبيرة التي شيدت في غرب إفريقيا^(١).

١. انتشار الإسلام

كان انتصار الإسلام المبكر في الشمال الإفريقي وكسبه الصحراء وامتداده إلى منطقة السافانا وأجزاء واسعة من شريط الغابات قد أحدث ثورة تاريخية في هذا الفضاء الإفريقي وسرعان ما تحول من كونه - في البداية - ديانة ملوكية إلى ديانة شعبية، ومن دعوة دينية إلى سلطة حاكمة أى من دين إلى دولة، ومن ديانة مركزية في المدن إلى عقيدة تنتشر في الريف. وقد حملت لواء نشره شعوب متعددة، فبعد المور (الموريتانيون) في الصحراء غرض بالدعوة التكرور ثم السوننكة فالفلاني والماندنجو، وبعد ذلك الكانمبو والكانوري ثم الديولا والهوسا والولوف. وتغيرت حواضره الإسلامية من كومبي صالح في غانا إلى فوتا في السنغال إلى نيانى في مالى ونجمي في كانم وبرنو ثم جاو في صنغى ومن بعدهم سكو تو وحمد الله. ولم تكن حواضر هذه الدول تأتي واحدة تلو الأخرى على نحو آلى، ولكنها كانت نتاجاً لحركة القوى المتنافسة في الإقليم تحت مظلة الإسلام^(٢).

ومن الصعب تحديد متى بدأ الإسلام ينتشر في غرب إفريقيا. تذكر بعض المصادر أن تجاراً من شمال إفريقيا والمغرب ومصر كانوا يترددون على الأسواق الرئيسية في غرب إفريقيا، ومن الطبيعي أن يكون بدايات الاسلام انتقل إلى المنطقة عن طريق هؤلاء.

هناك ثلاثة احتمالات لدخول الاسلام غرب إفريقيا

الاحتمال الأول على يد عقبة بن نافع ٦٦٦ حين توغل في الصحراء الكبرى حتى وصل إلى كوار Kwar الواقعة في الشمال الشرقى لجمهورية النيجر.

الاحتمال الثاني عن طريق التجار حيث كان للعرب علاقات تجارية مع سكان السودان الغربى قبل ظهور الإسلام، ثم استقر بعضهم وكان لهذا الاستقرار اسهام في نشر الاسلام إذ كانوا هم الوسطاء في حركة التجارة بين بلاد غرب إفريقيا والبلدان الأخرى. وكانت هناك عدة طرق تربط غرب إفريقيا بشمالها وهى طريق الواحات من بلاد كانم إلى بلاد السودان

(١) الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا د. حسن أحمد محمود - دار النهضة العربية ص ٢١٩.

(٢) الإسلام وتداخل الثقافات في السنغال (جامعة إفريقيا العالمية) د. مهدي ساتي ص ٣٦.

الغربي، وطريق الصحراء من مصر إلى ليبيا إلى أغاديس في النيجر حيث كانت مركزاً تجارياً كبيراً وموضع تقاطع الطرق التجارية بين شبال إفريقيا وبحيرة تشاد، وطريق في المغرب من سلجمانية إلى أودغشت ثم نهر النيجر.

والاحتمال الثالث على يد المرابطين ١٠٧٦ بعد إسقاطهم مملكة غانا القديمة، وقد أسهم هؤلاء إسهاماً فعالاً في نشر الإسلام ودفع حركة المد الإسلامي إلى مساحات واسعة في السودان الغربي^(١).

ويمكن تقسيم توغل النفوذ الإسلامي إلى غرب إفريقيا وأواسط السودان في ثلاث مراحل، الأولى يغلب عليها الاحتكاك السلمي وكان التجار العرب والبربر دعامة، والمرحلة الثانية يغلب عليها جهاد المرابطين الذين أعطوا النفوذ الإسلامي بعداً اقتصادياً وثقافياً وسنداً سياسياً، وتجمع المرحلة الثالثة بين السلم والحرب، وفي هذه المرحلة انتقلت الزعامة الدينية والقيادة السياسية والاقتصادية والريادة الثقافية إلى السكان الوطنيين من السود بعد أن تشبعوا بروح الإسلام، واقرنت المرحلة الأخيرة أيضاً بقيام عدد من الممالك الإسلامية السودانية الزنجية تعاقبت على حكم المنطقة (مالى وصنغى وإمارات الهوسا)^(٢).

هذه الدول الإسلامية كان ملوكها من أهل البلاد الاصيلين ذوى الدم الزنجي الخالص أو الذين اختلطت دماؤهم بدماء البربر مثل دولة مالى التى أسسها شعب الماندينجو ودولة الصنغى (صنغاي) التى أسسها أسرة من شعب صنغى اختلطت أيضاً بدماء البربر^(٣).

وقد لعبت هذه الدول الإسلامية دوراً غطت به أجزاء واسعة في بلاد غرب إفريقيا في تاريخها الوسيط والحديث بدءاً بدولة غانا القديمة ثم مالى ثم صنغى وكانم وبرنو في العصور الوسطى ودولة الشيخ عثمان بن فودى في العصر الحديث، ثم لعبت دوراً عظيماً في تاريخ المنطقة فهذه الدول والممالك التى أنشأها الإفريقيون المسلمون ساهمت إسهاماً إيجابياً في نقل الحضارة والفكر الإسلامى داخل القارة في هذا الجزء البعيد عن العالم الإسلامى ، ونقلت أصول ومعالـم الحضارة الإسلامية إلى بلاد السودان الأوسط والغربى وهى تشمل مجموعة من

(١) مجله التواصل - المرجع السابق - ص ١٢٦.

(٢) العرب والدائرة الإفريقية - مركز دراسات الوحدة العربية - سلسلة كتب المستقبل العربى العدد ٤٥ ص ٣٩.

(٣) المؤتمر الدولى الإسلام فى إفريقيا (الكتاب الخامس - الإسلام فى بلاد التكرور فى غرب إفريقيا فى القرن التاسع عشر د. حندوقة إبراهيم فرج).

النظم والقوانين والمبادئ والتعاليم التي قام عليها الحكم الإسلامى فى تلك البلاد التى تمتد من تشاد شرقاً إلى السنغال على شاطئ المحيط الأطلسى غرباً^(١).

وقد تسابقت الجماهير فى إفريقيا الغربية إلى اعتناق الدين الجديد تحت ضغوطات مختلفة، كانت فى الأساس حسب المفهوم الإفريقى زيادة القوى الروحية لحماية الشخص وأسرته فى نطاق واسع، وكان هؤلاء الأفارقة الوثنيون لا يجدون تناقضاً فى أن يؤمن المرء بالله إله الإسلام وهو فى نفس الوقت يؤمن بأله قومه، وأن يجرم محرمات الإسلام كالخمر والخنازير، وفى ذات الوقت يلتزم بمحرمات طوطمة كالامتناع عن أكل اليامة بل حتى لمسها^(٢).

وينبغى أن نشير إلى أن الصحراء الكبرى لم تكن حائلاً دون انتشار الإسلام وانتقال المؤثرات العربية إلى غرب إفريقيا. وقد حاول كثير من ملوك تلك البلاد أن يحاكوا المظاهر الإسلامية فى حياتهم ونظمهم، وظلت ممالك تلك البلاد ودولها مزدهرة منذ نشأتها فى القرن الحادى عشر حتى مطلع القرن العشرين^(٣).

وينبغى أن نشير أيضاً إلى أن العلاقات الإسلامية العربية الإفريقية لم تؤد إلى ما أحدثته الثقافة الأوروبية عندما وصلت إفريقيا، ولم تظل العربية مغتربة مثلما ظلت الفرنسية والإنجليزية ومختلف اللغات الأوروبية فى مستعمراتها، بل إن الثقافة الإفريقية ظهرت بإنتاج العلماء والفقهاء فى كتب باللغة والأحرف العربية، وكتب التاريخ تزخر بها خزائن كانوا وتمبكتو ولادوزنجبار وغيرها من مراكز الثقافة الإفريقية. ومن الناحية السياسية فإن علاقة العرب والمسلمين بإفريقيا أو الحضور العربى فى إفريقيا لم يؤد إلى سقوط السياسة التقليدية فى المجتمعات الإفريقية كما حدث مع الاستعمار الأوروبى^(٤).

كما تقدم نجد أن إفريقيا الغربية تعرضت منذ العصور الوسطى لظهور إسلامى أو فتوحات إسلامية أو حركات جهادية كما يطلق عليها أدى إلى ظهور عدة ممالك إسلامية

(١) المؤتمر الدولى الإسلام فى إفريقيا الكتاب الثامن بحث «بلاد غرب إفريقيا عبر التاريخ» السيد أحمد العراقى ص ٤٣.

(٢) المؤتمر الدولى - الإسلام فى إفريقيا المرجع السابق الكتاب الخامس / موضوع فى إفريقيا نهاية أم بداية لمرحلة أخرى. الحسن سعيد جالو ص ٣٣٨.

(٣) المرجع السابق ص ٤٤.

(٤) سمنار العرب فى إفريقيا الجذور التاريخية والواقع المعاصر. دار الثقافة العربية/ المغربيون العرب فى إفريقيا حلمى شعراوى ص ٣٠٩.

عاصرت بعضها البعض، وتبدلت بين هذه الممالك السيادة والشهرة والنفوذ. ولكن كتب على ممالك هذه المنطقة أن تتعرض لغزوين مدمرين رغم النضال البطولي الذي أبداه شعوبها. الغزو الأول هو الغزو المراكشي في القرن السادس عشر الذي كان من أشد المحن على السودان الغربي (وسنعرض له فيما بعد)، والثاني هو الغزو الأوروبي في القرن التاسع عشر.

وبالطبع هناك فرق بين الغزوين، فالمسلمون الذين جاءوا أصلاً من مراكش وانتقلوا إلى ربوع إفريقيا الغربية التحموا بشعوب المنطقة الذين دخلوا في الإسلام إما عن اقتناع أو بالفتح وتزاجوا منهم وأصبحوا من أهل البلاد، وهم من قاوموا وقادوا حركات الجهاد ضد الغزو الاستعماري الأوروبي في القرن التاسع عشر. أما الأوروبيون فقد كانوا غزاة أجنب جاءوا من أقاصى قارات أخرى ليحتلوا الأرض الإفريقية ويستبدوا شعوبها بعدما سرقوا أبنائها ورحلّوهم إلى أمريكا وأوروبا. وظل هذا الاستنزاف البشري الأوروبي لإفريقيا أربعة قرون، وعندما تشبعوا من الأيدي العاملة الإفريقية عندهم جاءوا إلى القارة مستعمرين مسلحين ليسرقوا مواردها الطبيعية. وأنا هنا لا أقارن بين الغزو باسم الإسلام أو الغزو باسم الاستعمار فالنتيجة أن شعوب المنطقة طحنت من الغزوين.

٣. الطرق الصوفية

لا يمكن فهم تاريخ المقاومة الإفريقية دون الإشارة إلى الطرق الصوفية ودورها في مقاومة الغزو الأوروبي. إن الطرق الصوفية هي بلا شك ذات أصول وتوجهات دينية، ولكنها بلا مراء كانت سياسية في وظيفتها، وقد كانت هذه الطرق الصوفية دائماً منظمات دفاعية تقف في وجه الأخطار المحدقة من الخارج، وعندما كانت الدولة نفسها قوية كانت هذه الطرائق جزءاً من أجهزة الدولة، أما في حالات ضعف الدولة نفسها وتفككها فإنها كانت تستقل بذاتها وتأخذ زمام المبادرة بيدها، وعلى هذا النسق نجد أنه عندما تخلت الأستانة (القسطنطينية) عن سيادتها صارت الطريقة السنوسية نواة مقاومة الإيطاليين في برقة وفي صحراء ليبيا وعندما أصبحت الدولة المغربية عاجزة عن التصرف قامت الطريقة الكتانية باستنفار القوى المعادية للفرنسيين في شنقيط وفي الشاوية. وكانت الطرق الصوفية ترفض كل اتصال بالسلطات الاستعمارية رغم كل المغريات، فإذا انتهى الامر باستسلامها لم يبق أمامها إلا سبيل واحد وهو أن تمارس رد الفعل إزاء السياسة الاستعمارية، وهذا ما كان يضيء عليها طابع القوة المستقلة^(١).

(١) تاريخ إفريقيا العام - المرجع السابق - ص ١٠٥.

انتشر الاسلام في إفريقيا الغربية وصار حقيقة واقعية في أغلب دولها بفضل رجال الطرق الصوفية والزوايا التي أنشأها زعماء هذه الطرق التي كانت بمثابة ركائز لنشر الدعوة الإسلامية بين الشعوب الوثنية في غرب إفريقيا. فقد قاومت هذه الحركات الصوفية التوسع الأوروبي في القارة، وقاومت حركات التبشير المسيحي وكان لها الفضل الأكبر في نشر الدين الإسلامي بين الوثنيين والدفاع عنهم أمام التيار الأوروبي الجارف في القرن التاسع عشر^(١).

كان التصوف في القارة الإفريقية جزءاً أساسياً من البنية الإسلامية ومحور الحركات الإصلاحية ودعامة جهادها. وكان السبب الرئيسي لانضمام الناس إليها هو أن الطرق ظهرت في الوقت الذي تعرض فيه المجتمع التقليدي للتفكك والانحيار بسبب الغزو الأجنبي، وكان أكثر هذه الطرق شمولاً ثلاث طرق هي: الطريقة القادرية المنسوبة للشيخ عبد القادر الجيلاني، يليها الطريقة التيجانية المنسوبة لأحمد التيجاني، ثم الطريقة المريدية ومؤسسها أحمد بمبا.

١- الطريقة القادرية: مؤسسها عبد القادر الجيلاني، تعد من أهم الطرق الصوفية في غرب إفريقيا، انتقلت الطريقة من مراکش (المغرب) إلى جماعات الفولاني في الهوسا (نيجريا) ثم إلى منطقة النيجر. وأيدت قبائل الطوارق هذه الحركة ثم امتدت تدريجياً نحو حوض السنغال ثم إلى الجنوب الشرقي إلى بلاد الهوسا، ووصلت القادرية إلى إمبراطورية كانم عن طريق شمال إفريقيا^(٢).

٢- الطريقة التيجانية: مؤسسها أحمد التيجاني، ويرجع انتشارها في بلاد الهوسا وغرب إفريقيا إلى الحاج عمر الفوتي الذي ولد في قرية على حدود السنغال ثم استقر في فاس ومنها انتقلت الطريقة إلى موريتانيا، وحملها أبناؤه إلى بقية غرب إفريقيا حيث أعلن الجهاد ضد الوثنيين، وتصادف إعلانه الجهاد مواجهة القوات الفرنسية وملاحقتها له فاضطر أن يغير مجرى جهاده نحو النيجر الأوسط ومناطق البمبارا الوثنية، وقد انتشرت الطريقة التيجانية على نطاق واسع عبر السودان الغربي والأوسط من السنغال إلى برنو^(٣).

٣- الطريقة المريدية: أسسها الشيخ أحمد بمبا عام ١٨٨٦ وانتشرت الحركة بين جماعات الولوف وقت أن كانت بلادهم تتعرض للاحتلال الفرنسي؛ لذا صار الشيخ بمبا في نظر أعوانه

(١) د. عبد الرحمن بدوي - تاريخ التصوف الإسلامي ص ١٢ نقلاً عن كتاب الطرق الصوفية في إفريقيا ص ٢٦.

(٢) الطرق الصوفية في القارة الإفريقية د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم - دار الثقافة والنشر والتوزيع - ص ٣٨.

(٣) الطرق للصوفية في القارة الإفريقية - المرجع السابق - ص ٦٦.

ومريديّة المخلص من الاستعمار الأجنبي. وتصدت الطريقة لمحاولات الفرنسيين في السيطرة على السنغال، ووجد الناس في هذه الطريقة الوسيلة الشرعية التي تجمعهم لمقاومة هذا التوسع الاستعماري الذي أدى إلى تدمير نظم الحياة المعيشية عند الولوف، وانقسم مجتمع الولوف إلى وحدات متغيرة وتحول عدد من الحكام المحليين إلى جانب السلطة الفرنسية، ومن كان يقاوم من الوطنيين يتعرض للهزيمة أو الفناء أو الهجرة، فكان الانضمام إلى الطرق الصوفية خير بديل للنظام التقليدي الذي سحق في أماكن كثيرة من القارة. وكانت الطريقة المريديّة من أسهل الطرق الصوفية التي وجد فيها المريدون بديلاً عن مجتمع الولوف الذي دمّرت الإدارة الفرنسية، ولقيت هذه الطريقة تأييداً في المناطق الريفية يفوق سكان الحضر والمدن؛ ذلك لأن الطريقة كانت أكثر تسامحاً في الملاءمة بين التقاليد الإسلامية والعادات المحلية الوطنية. وبالرغم من أن الشيخ أحمد بمبا أعلن مراراً أنه لا يرغب في الدخول في المسائل السياسية، وأنه يهتم فقط بالأمور الدينية إلا أن السلطات الفرنسية اعتبرت نشاطه تهديداً مباشراً لسيادتها على السنغال ونفته مرتين الأولى إلى الجابون مدة سبع سنوات والثانية في موريتانيا.

لا جدال أن الطرق الصوفية قامت بدور كبير في المجال السياسي والعسكري، وتصدت بعنف للموجة الاستعمارية التي اجتاحت العالم الإسلامي والعربي، وكانت القارة الإفريقية بعد طرد المسلمين من الأندلس ١٤٩٢ هدفاً للدول المسيحية لضرب المسلمين ونشر الثقافة المسيحية في القارة. ومن يطالع تاريخ إفريقيا يجد أن رجال الطرق الصوفية تصدوا للاستعمار والمستعمرين ووقفوا لهم بالمرصاد في كل مرحلة من مراحل كشف القارة، وكلما اكتشف الأوروبيون منطقة من القارة وحاولوا نشر الديانة المسيحية بها كان المسلمون من رجال الطرق الصوفية ينافسونهم ويتصدون لمحاولاتهم، بل في كثير من المناطق أغلق المسلمون الباب أمام التحركات المسيحية، وقاموا بدور كبير في تحويل السكان الوثنيين إلى الدين الإسلامي، وأقاموا دويلات إسلامية تعلن الجهاد الإسلامي، وصارت القارة الإفريقية في القرن التاسع عشر خلية عمل متصل من الجهاد في مواجهة جحافل المستعمرين الأوروبيين ورجال التبشير الأوروبي، وتاريخ إفريقيا حافل بالبطولات الإسلامية.

ولكن بالرغم من الدور المشهود للطرق الصوفية في المجال الثقافي والديني والاجتماعي والسياسي والاقتصادي في القارة الإفريقية إلا أن هذه الطرق بسبب اختلاف مداركها وتعدد انتماءاتها لم تحاول تكوين جبهة ضد العدو الأجنبي، ووصل التنافس بينها إلى حد التعاون مع القوى الوثنية ضد حركات الجهاد الإسلامي الأخرى، وتحالف بعض رجال الصوفية مع

القوى الأجنبية حفاظًا على مكانته أمام منافسة الطرق الأخرى. وقد أضعف هذا التنافس فيما بينها جهودها أمام التيارات الاستعمارية الأوروبية^(١).

وموجز القول أن التصوف في القارة الإفريقية كان أساس البنية الإسلامية ومحور حركاتها الإصلاحية ودعامة الجهاد الإسلامي، وقاد زعماء ومشايخ الصوفية حركات مقاومة عنيدة ولكن جهود هؤلاء لم تجد ما تستحقه من صفوة المؤرخين ووصفوا إيمان هؤلاء بالغيبات؛ هذه الغيبات جعلتهم لا يعيشون الواقع ولا يقدرّون حقيقة توازن القوى بين الجيوش الاستعمارية والمحاربين المحليين، وظلّوا يتوقعون المعجزات التي ترد زحف الغزاة، وكانوا متفرقين غير متحدين يفتقدون الثقة في بعضهم البعض مما جعلهم يرفضون قبول ما بدا أنه أمر محتوم.

والسؤال هل يمكن أن نعتبر أن هذه الحركات كانت بالية التفكير وغير مجدية، وأن استسلامها أمام قوة عسكرية جارفة استسلامًا حقيقيًا.. إن الأمانة تقتضي أن نعتبر هذه المقاومة المشتتة والمحلية شكلاً من الأشكال المبكرة للوطنية وبداية ظهور الروح القومية.



(١) الطرق الصوفية - المرجع السابق - ص ٢٢٥-٢٣٠.

الفصل الأول

أولاً: السودان الغربي

الممالك الإسلامية في السودان الغربي:

١- مملكة غانا القديمة.

٢- سلطنة مالي.

٣- سلطنة صنغى.

٤- الغزو المراكشى.

ثانياً: السودان الأوسط

١- مملكة كانم وبرنو.

٢- سلطنة الببالة الإسلامية في حوض بحيرة تشاد.

٣- بلاد الهوسا.

٤- دولة رابح.

أولاً: الممالك الإسلامية في السودان الغربي

قامت الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا (السودان الغربي) بدور مشهود لا يمكن نكرانه أو تجاهله في مقاومة المستعمرين الغربيين عندما غزوا القارة في القرن التاسع عشر، وأقدم هذه الممالك مملكه غانا القديمة.

١- مملكة غانا القديمة (١٠٧٦-١٢٠٧م):

وهي غير غانا الحالية التي تقع على الساحل، وتعد أقدم ممالك إفريقيا الغربية شمال نطاق الغابات، قيل إنها كانت إمبراطورية خضع لها معظم بلاد السودان الغربي، مدى اتساعها ليس معروفاً بالضبط. يصفها د. إبراهيم طرخان في كتابه «إمبراطورية غانا الإسلامية»^(١). إنها كانت صاحبة السيادة والنفوذ في الأراضي الواقعة بين نهر النيجر والمحيط الأطلسي، وإنها امتدت من ناحية الشمال وخضعت لها غالبية القبائل الصحراوية وامتدت شرقاً إلى جنوب تمبكتو وجنوباً بغرب أعالي السنغال وأعالي النيجر، وتقع أطلالها اليوم بقرب الحدود الموريتانية ضمن أراضي جمهورية مالي الحديثة. كان بها جيش كبير قواته مائتي ألف محارب، ٤٠ ألفاً منهم مسلحون بالأقواس والسهم، كانت مملكة صحراوية يستخرج منها الذهب لذلك كان رخاؤها رهناً ببقاء طريق الصحراء مفتوحاً، ومع توالي الغزو العربي من شمال إفريقيا ظهر خطر اضطراب هذا الطريق، فعندما أحكم بنو أمية قبضتهم على مراكش قاموا بشن هجوم على المنطقة المسماة غانة، وكان هذا الهجوم أول حملة مراكشية ضد إحدى دول إفريقيا الغربية، ولم تكلل الحملة بنجاح^(٢). ومع تزايد قوة القبائل الصحراوية أطاحت بهذه الإمبراطورية وبالممالك المستقرة حولها. وفي القرن الحادي عشر تمكن المرابطون بقياده ابن ياسين (القادم من جزيرة في نهر السنغال حيث أسس رباطاً) من إخضاعها، واستمرت

(١) إمبراطورية غانا الإسلامية د. إبراهيم طرخان ص ٣٠.

(٢) الوثنية والإسلام تاريخ الإمبراطوريات الزنجية في غرب إفريقيا (طبعة ثانية) كهاهو بانكار ترجمة فؤاد بليغ ص ٨٠.

غانة تقاوم غزو المرابطين حتى سقطت عام ١٠٧٦م بعد حرب تواصلت دون انقطاع وبسقوط الحكومه الغانية الوثنية أصبح يؤرخ لها بغانة الإسلامية حتى اختفت من الوجود كقوة عظيمة وأخذت المقاطعات التابعة لها تستقل عنها واحدة تلو الأخرى.

٢- سلطنة مالي ١٢٠٠-١٤٩٦م

مالي من أعظم ممالك السودان الإسلامية أسسها شعب الماندنغو فى القرن الثالث عشر واشتهرت باسم بلاد التكرور، تقع جنوب المغرب متصلّة غرباً بالمحيط الأطلسى وشرقاً ببلاد برنو وشمالاً بالصحراء وجنوباً بالممالك الوثنية، اشتملت على خمس أقاليم كل منها كانت مملكة مستقل هي: ١- مالي واتخذت الإمبراطورية هذا الاسم، ٢- صوصو إلى الغرب من إقليم مالي، ٣- بلاد غانة غرب إقليم صوصو وتجاور المحيط، ٤- بلاد كوكو شرق إقليم مالي، ٥- بلاد التكرور، وهكذا تجد أن مالي قامت فى قلب السودان وفى حوض النيجر وأصبحت غانة بعد ضعفها أحد اقاليم امبراطورية مالي الإسلامية^(١). وجمهورية مالي الحديثة هي جزء من دولة مالي الإسلامية التي كانت تعرف قبل استقلالها باسم السودان الفرنسى لذلك عندما تظهر مالي فى التاريخ فإنما تظهر كجزء من غانة القديمة وكبلد وثنى اعتاد الشماليون الإغارة عليه.

لا يعرف إلا القليل عن نشأة مملكة مالي، وكل ما ذكر عنها أنه فى منتصف القرن الحادى عشر اعتنق ملوك الماندنغو الإسلام، ولكن أهل المملكة ظلوا على وثنتهم. وفى القرن الرابع عشر فاقت شهرتها دولة غانة القديمة من حيث القوة والثراء والانتاع، وضمت داخل حدودها مناجم الذهب والملح وتحكمت فى طريق القوافل بين هذه المناجم شمالاً وجنوباً^(٢).

وبدون الدخول فى التفاصيل الكثيرة غير المؤكدة يعتبر سنديانا هو مؤسس مالي وإن اعتبر المؤرخون ابنه منسى موسى هو البطل العظيم الذى حرر مالي من سيطرة جيرانها وبخاصة شعب الصوصو، وكان منسى شديد التمسك بدينه الإسلامى شديد البذخ والسخاء. يقال إنه عندما ذهب إلى الحج عام ١٣٢٤م دخل مصر ومعه ثمانين حملاً من تبر الذهب زنة كل منها ثلاثمائة رطل، وحاشية تراوح عددها بين ستين ألفاً حسب تقدير المؤرخ السعدى

(١) الوثنية والإسلام - المرجع السابق - ص ٨٧.

(٢) الموسوعة الإفريقية - تاريخ إفريقيا - المجلد الثانى ص ١٧٧.

وعشرة آلاف حسب تقدير المقریزی. ومات منسى عام ١٣٣٧ م، وخلفه ابنه الذى لم يستمر حكمه سوى أربع سنوات ثم خلفه أحد إخوة منسى موسى الذى حكم تسع عشرة سنة، وفى عهده تمزقت الإمبراطورية من جراء الخلافات الداخلية، واندلعت حرب أهلية ثم استولى على السلطة مارى جازه الذى كان رقا ثم أصبح رئيسا للرقيق وقائدا للجيش، وكان قائدا قديرا تمكن من أن يعيد نفوذ الإمبراطورية، وكان هذا آخر حاكم قوى لمالى، وظلت مالى بعده لمدة قرن آخر دولة قوية ولكن الاضطرابات وتمرد شعبى الموسى والصنغى أدى إلى إضعافها وفقدت مالى مقاطعتها الشرقية وقامت دولة الصنغى ١٣٧٥، ومع ذلك ظلت مالى إمبراطورية حربية كبرى فى الغرب ودولة حربية قوية قادرة على الصمود فى وجه الغزوات الأجنبية. ثم قام حاكم الصنغى بمهاجمة مالى وعجزت مالى عن مقاومة النهب الذى تعرضت له حاضرتها تمبوكتو، وكانت تمبوكتو تأسست فى أواخر القرن الثانى عشر حاضرة الثقافة العربية فى غرب إفريقيا لا تقل عن القيروان أو فاس فى المغرب الأقصى وقرطبة فى الأندلس أو القاهرة فى مصر. ويسقط تمبوكتو فى أيدي الطوارق انتهى وجود مالى كإمبراطورية بيد أنها استمرت تمارس السيادة كسلطة إمبراطورية على المناطق الغربية، وإن كانت فقدت الروح العسكرية وبدأت الأقاليم الخاضعة لها تستقل الواحدة تلو الأخرى. وفى عام ١٤٨٠ استنجد ملوكها بالعثمانيين الذين كانوا قد استقروا فى المغرب وطلبوا حمايتهم، ثم استنجدوا بالبرتغاليين، ولكن لا العثمانيين ولا البرتغاليين أسعفهم من سلاطين مملكة صنغى الذين توغلوا فى ديار مالى، وأصبحت فى القرن السابع عشر مجرد دولة صغيرة حتى ابتلعها الفرنسيون عام ١٨٩٨.

٣- سلطنة صنغى الإسلامية ٧٧٧- ١٠٠٠هـ / ١٣٧٥- ١٥٩١

قامت إمبراطورية صنغى الإسلامية بالتدريج منذ ١٣٧٥ على أنقاض البعض من إمبراطورية مالى، كانت جزءا من سلطنة مالى حتى عام ١٣٧٥ م عندما تحرك ملوك الصنغى متتهزين فرصة الضعف الذى أخذ يظهر فى دولة مالى واستردوا استقلالهم وأصبحت بلاد الصنغى من أوسع الدول التى قامت فى غرب إفريقيا ووحدت كل ما يعرف اليوم بغرب إفريقيا.

بدأت سلطنة صنغى دولة صغيرة لا تختلف فى قيامها عن سلطنة مالى وغانة، فقد سبق أن تدفقت بعض قبائل مغربية فى حوالى منتصف القرن السابع الميلادى على الضفة اليسرى لنهر النيجر وسيطروا على الزراع من أهل صنغى، ورحب بهم هؤلاء الزراع ليحموهم من

الصيادين الذين كانوا يعتدون عليهم، وكونوا أسرة حاكمة استفادت من العلاقات التجارية مع غانه وتونس وبرقة ومصر. كانت هذه العلاقات التجارية ذات أثر كبير في تحول ملوك صنغى إلى الإسلام فى بداية القرن الحادى عشر الميلادى إبان الحركة الضخمة التى اضطلع بها المرابطون فى ذلك الوقت لنشر الإسلام فى غرب إفريقيا.

رأى ملوك الصنغى أن ينقلوا حاضرة ملكهم إلى جاو، وهى مدينة تقع على نهر النيجر كانت تعد من أفضل مدن السودان الغربى وأكبرها وأخصبها، وكانت جزءاً من سلطنة مالى حتى عام ١٣٧٥ حينما سيطروا عليها وتوسعوا أكثر حتى امتدت حدود بلادهم وشملت المسافة الواقعة إلى منحنى النيجر وجاورهم الطوارق من الشمال، ومن الغرب الماندينجو وهم جماعات وثنية من أهل السودان ، كما امتدت بلادهم شرقاً حتى اتصلت ببلاد كانم وبرنو وتشاد وشملت مدينه تمبكتو وخضعت لهم مملكة الموسيقى الوثنية، وتسرب نفوذهم إلى شمال نيجيريا.

ويعد أول ملوكها سنى على أو السنى على (١٤٦٤-١٤٩٢) من أعظم ملوك الصنغى ومؤسس إمبراطوريتها الإسلامية، واتسم عهده الذى استمر ٢٧ عاماً بالحروب المتواصلة التى أسفرت عن توسيع إمبراطوريته فى كل اتجاه من بلاد الماندينجو والفولانى ومعظم ممتلكات مالى الإسلامية حتى مواطن الطوارق، وبذلك فإن سنى على كَوّن إمبراطورية صنغى الإسلامية.

كانت قوة الصنغى شديدة الوطأة على جارتها الدولة الزنجية دولة الموسيقى الذين ربما كانوا الشعب الوحيد الذى قارب أن يكوّن قومية فى غرب إفريقيا، كانوا شعباً أكثر اتحاداً ويتمتع بتماسك تفتقر إليه الشعوب الأخرى فى غرب إفريقيا، وظلت هذه الدولة تمارس التهديد على دولة الصنغى حتى أن سنى على فكر فى شق قناه على إحدى مجارى النيجر ليوقف غارات الموسيقى، ولكن لم يخرج هذا المشروع إلى التنفيذ إذمات سنى على فجأة فى ظروف غامضة.

خلف سنى على أحد قواده اسكيا محمد(واسكيا تعنى لقب القاهرة) الذى قاد حركة جهاد لتوسيع رقعة بلاده ونشر الإسلام بين الوثنيين من جيرانه الماندينجو والفولانى فى الغرب والطوارق والبربر فى الشمال وقبائل الموسيقى الزنجية فى الجنوب والهوسا فى الشرق ومدن كاتسينا وغويرير وكانووزنفر وزاريا، وقد خضعت له هذه المدن عام ١٥١٣، وكان خضوعها بداية ظهور الثقافة الإسلامية فى مدن كانو وكاتسينا كمراكز للثقافة الإسلامية فى هذا الجزء من شمال نيجيريا.

وبعد موت اسكيا محمد نشبت الصراعات بين ملوك الصنغى مما أضعف الدولة وطمع فيها سلاطين مراكش (المغرب) الذين كانوا يتطلعون إلى مناجم الملح فى تغازة والسيطرة على تجارة الذهب، وظل ملوك الصنغى يصدون سلاطين مراكش حتى عام ١٥٨٥ حينما انقسمت البلاد على نفسها فاستغل سلطان المغرب أحمد المنصور الذهبى هذا الظرف وسير جيشاً عام ١٥٩٠ وأستولى على العاصمة جاو. ولكن نصر المغرب لم يحقق أغراضه التى قاتل من أجلها وهو السيطرة على مناجم الذهب فى غرب إفريقيا لأن ثروة صنغى لم تكن نتيجة امتلاكها الذهب بقدر ما كانت نتيجة سيطرتها على تجارته القادمة من جنوب مملكة صنغى، وهى تجارة لا تزدهر إلا فى ظل الأمن والسلام الذى قضى عليه سلاطين مراكش الذين لم يستطيعوا أن يمدوا نفوذهم إلى ما وراء المدن الرئيسية. ولما أدرك السلاطين المغاربة ضعف المزاي التى عادت عليهم من وراء هذا الفتح الذى كلفهم الكثير كفوا عن إرسال الجند والمؤونة اللازمة لقواتهم هناك وتركوا هذه القوات تقرر مصيرها بنفسها فنشأت أسر محلية من الباشوات تدين بالتبعية الاسمية لسلطان مراكش وتعتمد على عنصر خليط من البربر وأهل البلاد.

هؤلاء الباشوات كان همهم منصرفاً إلى جمع المال وحمل الزعماء المحليين على دفع الإتاوة، وبالتدريج ضعفت قوة بقايا الجيش المغربى مما اضطر الباشوات أنفسهم إلى دفع الجزية إلى الحكام الوثنيين من ملوك البمبارا (جنوب حوض النيجر). وظل الأمر على هذا النحو حتى جاء الفرنسيون والتمهوا المنطقة بأسرها وسموها إفريقيا الاستوائية الفرنسية^(١).

الغزو المراكشى

كان الغزو المراكشى من أشد المحن على السودان الغربى، كان بداية النهاية لدول النيجر ومقدمة لانهاى القانون والنظام فيها بل واندثار نظام الدولة فى بلاد السودان الذى ظل قائماً منذ تأسيس دولة غانة.

وتعد علاقة الشمال الإفريقى بالسودان الغربى الذى اشتهر بذهبه علاقات وثيقة وقديمة، وكان غزو هذه المنطقة منذ وقت طويل موضع تفكير حكام مراكش، ولكن كان عبور الصحراء يشكل أول العقبات، كما كانت تقديرات قوة إمبراطوريات السودان كبيرة بدرجة

(١) الموسوعة الإفريقية - المرجع السابق - ص ١٨٢-١٨٨ .

تكفى للتغلب على أية حملة تتمكن من عبور الصحراء. وإذا أخفقت الحملة كان معنى ذلك أن تقطع العلاقات التجارية مع السودان، ويتحول تدفق الذهب عبر مسالك أخرى.

لذلك كانت سياسة المراكشيين هي الإبقاء على الصحراء في حالة اضطراب، وكانوا يوجهون البربر مثيري الفتن إلى الاغارة على الصحراء فقد كانوا يقدرّون أن خط عبور الصحراء يشكل حاجزاً لا يمكن التغلب عليه، وأن أرباح التجارة مع السودان تتدفق على خزائهم دون غزو. ومن جهة الإفريقيين لم يكن الصنغى يتوقعون الغزو المراكشى وغامرهم احساس بأن الصحراء الكبرى يمكن أن تحمي ظهورهم مما اعطاهم شعوراً زائفاً بالامن فلم يتخذوا الاحتياطات اللازمة من قبيل تسميم آبار الطريق مثلاً.

وعندما تولى السلطان أحمد المنصور الملقب بالذهبي سلطاناً على مراكش ١٥٧٨ عقد العزم على غزو السودان للفوز بذهبه الكثير، وكانت فكرة غير موفقه من ذلك السلطان الطموح لأن بلاد السودان كانت تقوم فيها دولة الصنغى وهى دولة قوية وبها رجال أقوياء أشداء يعيشون فى صراع دائم مع الوثنيين فى حين أن المغرب الأقصى كان يجنى الثمرات من تجارته مع السودان دون مشقة. وكان على السلطان المنصور الذهبي أن يقدر أن حملة تعبر الصحراء وتقطع ألوف الكيلومترات فى الصحراء لا بد أن تكلف مالا طائلاً ولا تعود بما يساوى ذلك العناء والتكلفة.

جهز السلطان حملة ١٥٨١ سارت فى فوضى شاملة وهلك فى رمال الصحراء من رجاله المئات، كان هدفها الأول مناجم الملح فى تغرة إذ كانت مصدراً كبيراً من مصادر الإيراد لسلطان الصنغى. وبعد خمسة أشهر من رحلة مهلكة فى الصحراء وُصِلت الحملة إلى بلاد الصنغى، ودارت معارك بين الطرفين ما بين انتصار وهزائم حتى دخل الجيش المراكشى عاصمتها جاو فوجدها خاوية وقد غادرها أهلها، وشعر رجالها بخيبة أمل كبيرة عندما علموا أن مناجم الذهب مازالت بعيدة جداً عنهم وأنهم لا بد أن يسيروا قدر ما ساروا فى أرض صحراوية حتى يدخلوا الغابة حيث مناجم الذهب.

ينس سلطان المغرب من بلاد السودان واكتفى بمقادير الذهب الكبيرة التى أرسلتها إليه الحملة الأولى، وترك أمر السودان للجند المغاربة فعاثوا فى البلاد فساداً ودمروا مدينتى تمبكتو وجاو مركز حضارة الصنغى، وظهرت عصابات المأجورين التى أخذت فى تخريب القرى ونهبها، وكان ذلك أشد البلاء لعامة الشعب من محاربة الدول بعضها ببعض. وقد

اغتنى السلطان أحمد المنصور من وراء هذه المغامرة التي قضى فيها على دولة إسلامية مجيدة في فجر عصر الاستعمار، وذلك بمقادير الذهب التي كان معظمها ليس من مناجم الذهب وإنما من نهب المدن ومصادرة أموال التجار والناس وأصبحت الثلاثمائة سنة التالية في تاريخ السودان فترة ممالك سريعة الزوال وحروب مستمرة وغارات من جانب المراكشين والطوارق، ولم يعرف السودان الغربى عند منحى النيجر طعم السلم مرة أخرى حتى احتلها الفرنسيون في القرن التاسع عشر^(١).

كان غزو المراكشين للسودان هو المقدمة لانتهاء القانون والنظام في بلاد السودان الذى ظل قائماً منذ تأسيس دولة غانة، وكانت الفترة ما بين الغزو وبداية القرن التاسع عشر فترة فراغ كبيرة في تاريخ هذه البلاد؛ فترة حاول فيها كل من موسى والبيبر والبولانى والطوارق والبربر الاستيلاء على العاصمة جاو، ومع ذلك لم تتوقف المقاومة الإفريقية على الإطلاق.

لم تتوقف المقاومة الإفريقية، وأبدى الصنغى مقاومة مشهودة، وعلى الرغم من أن النصر لم يكن حليفهم فإنهم لم يتيحوا للمراكشين فرصة لتدعيم قوتهم بل زادت من تصميمهم على النضال. وفي عام ١٥٩٣ أوقع الصنغى هزيمة بالمراكشين، وكان للمراكشين متاعبهم في الأراضى التي سيطروا عليها، ولكنهم انتصروا مرة ثانية واستولوا على تمبكتو وأنزل المراكشيون بأهلها وعلمائها مظالم وإجراءات بالغة القسوة واستولوا على ثروات البلاد. على أن الاستفادة الكبرى لمراكش هي أسر العدد الكبير من الزنوج الذين شكلوا منذ ذلك الوقت جزءاً هاماً من جيشها.

لم يكن باستطاعة مراكش أن تحتفظ في السودان بقوات تكفى لإقرار السلام في منطقة الصنغى. وفي عام ١٦١١ زحف جيش الصنغى نحو الغرب وأخذ المراكشين على غرة وأوقع بهم هزيمة، وبحلول عام ١٦٢٠ كان المراكشيون قد طفح بهم الكيل تماماً من السودان.

وبالرغم من أن تمبكتو استمرت تحت حكم المراكشين فإن نفوذ السلطان المراكشى صار موضع هزء وسخرية، وعمد البولانى والطوارق والبيمبارا إلى تخريب القرى ونهبها.

ولم يحاول المراكشيون التغلغل في البلاد حتى عام ١٦٣٥ عندما هزموا الصنغى

(١) أطلس التاريخ الإسلامى / الزهراء للإعلام العربى ص ٣٧٦.

مرة أخرى، ومع ذلك بحلول عام ١٦٦٠ كان الحكم المراكشى قد انتهى حتى من الناحية الاسمية^(١).

أدى الغزو المراكشى إلى انكماش دولة الصنغى ثم القضاء عليها، وظلت مراكش تحتفظ بنفوذها فى هذه البلاد ترسل منها الامدادات حتى أرهقتها، وأصبح هذا الاحتلال الذى لم يحقق أحلام المراكشيين أو أهدافهم عبثاً ثقيلاً حتى توفي السلطان منصور صاحب الفكرة ووددت بوفاته فتخلى المراكشيون عن أحلامهم وتركوا السودان يواجه مصيره. وقد أساء الغزو المراكشى بما أعقبه من احتلال وما صاحبه من فرضى ليس إلى الناحية الاقتصادية فحسب بل أيضاً إلى الناحية الثقافية، فإحتلال المراكشيين لتمبكتو ولغيرها من المراكز الثقافية لا يكاد يختلف من حيث آثاره ونتائجه عن غزو المغول لبغداد^(٢).

كما أتاح الغزو المراكشى فرصة تاريخية لسيادة الوثنية القديمة من جديد حيث تسبب هذا الغزو غير المبرر فى سقوط صنغى آخر أكبر الإمبراطوريات الإسلامية الكبرى فى العصور الوسطى إثر موقعة شارك فيها عدد من اليهود والمرتقة المسيحيين، وكان من آثار هذا الغزو أن وقعت المجتمعات الإسلامية فى ظل السيادة الوثنية التى استعادت قوتها سريعاً، واختفى المسلمون فى المجتمعات التقليدية بثقافتهم التى فقدت الريادة بفقدانها السلطان السياسى، وتقلص النفوذ الإسلامى وهجر العلماء والمصلحون المنطقة وبهجرتهم تلاشت جهود التأصيل وأصبح المجال مفتوحاً للتخليط، وبذلك تم تحييد الإسلام وإفراغه من كل مقومات التحدى لنمط الحياة التقليدية وبدأ المسلمون يكيفون حياتهم على النمط السائد فى المجتمعات الزنجية.

وسعى الاستعمار إلى تطوير هذا الإسلام المشوب ببعض شوائب الوثنية الإفريقية، وعكف لتمكنه فى السنغال وسائر الغرب الإفريقى على العمل بصورة مباشرة وغير مباشرة، لذلك سيظل الخليط أو الاسلام الأسود كما يسميه الغرب صنيعة استعماريه، فعملت على اضعاف اللغة العربية وصادرت المطبوعات العربية وفرضت حصاراً على حركة اتصال المسلمين فى تلك البلاد بإخوانهم فى مصر وشمال إفريقيا والحجاز، وبعد ذلك بدأت فى محاولات إكساب الممارسات الوثنية التخليطية وزناً تاريخياً باعتبارها إرثاً ينبغى الحفاظ عليه^(٣).

(١) الوثنية والإسلام - المرجع السابق - ص ١٧٦.

(٢) الإسلام والثقافة العربية فى إفريقيا - المرجع السابق - ص ٣٨٠.

(٣) الإسلام وتداخل الثقافات فى السنغال/ جامعه إفريقيا العالمية. د. مهدي ساتي ص ١٦٥ - ١٦٦.

ثانيًا: الممالك الإسلامية في السودان الأوسط

١ - مملكة كانم وبرنو الإسلامية ١٠٨٦-١٨٤٦:

هذا ما كان من أمر السودان الغربي في العصر الوسيط، أما بالنسبة للسودان الأوسط الذى يتكون من حوض بحيرة تشاد وما حولها من بلدان تمتد من نهر النيجر غربًا إلى دارفور فقد قامت فيه دول إسلامية كان أهمها وأعظمها سلطنة كانم وبرنو الإسلامية وكذلك سلطنة البلالة وإمارات الهوسا الإسلامية. وكانت منطقة تشاد مهد سلطنة كانم وبرنو التى قامت حول البحيرة مما جعلها مركزًا هامًا لالتقاء طرق القوافل المارة إلى أنحاء القارة.

إن دوله كانم وبرنو التاريخية لم يعد لها وجود فى العصر الحاضر، فقد تم تقسيمها فى عام ١٨٩٤ بين إنجلترا وفرنسا وألمانيا فى غمرة التوغل الاستعماري الأوروبي، وكان مهد هذه الإمبراطورية منطقة تشاد شرق ممالك الهوسا أى شمال شرق النيجر ونيجيريا. ومن الدول التى تقوم الآن على أنقاضها أو تضم أجزاء منها: ١- جمهوريه تشاد وقد شملت أغلب الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية وإقليم كانم بأكمله، ٢- جمهورية إفريقيا الوسطى التى تقع جنوب تشاد وتضم الأطراف الجنوبية من إمبراطورية البرنو، ٣- جمهورية النيجر وتضم أغلب الأجزاء الشمالية والشمالية الغربية من إمبراطورية البرنو، ٤- جمهورية نيجيريا وتضم البرنو الأصلية غرب تشاد، كما تضم جميع ممالك الهوسا، ٥- جمهورية الكمرون وتضم الأجزاء الجنوبية والجنوبية الغربية من برنو^(١).

ضمت دولة كانم وبرنو الإسلامية عددًا كبيرًا من القبائل، قبائل الصو والبربر المنحدرين من الصحراء الكبرى التى تقع شمالها، وقبائل الكانورى التى تتكوّن من خليط من العرب والبربر والزنوج وهم يكونون أغلب سكان هذه السلطنة، وكذلك بربر الطوارق العرب الذين يعرفون باسم الشوا، وأدى اختلاط هؤلاء إلى ظهور عناصر جديدة هم البلالة والتنجور والسالمان وغيرهم^(٢).

وينقسم تاريخ هذه السلطنة إلى عصرين، عصر سيادة الكانم ثم عصر برنو، ويقع إقليم كانم فى الشمال الشرقى للبحيرة وإقليم برنو غرب البحيرة. وقد قامت هذه الدولة فى القرن التاسع الميلادى فى إقليم كانم، واستطاعت أن تسيطر على حوض بحيرة تشاد. ومنذ عام

(١) الوثنية والإسلام - المرجع السابق - ص ١٧٧.

(٢) الموسوعة الإفريقية - المرجع السابق - ص ١٩١.

١٠٨٩ أصبح الدين الإسلامى هو الدين الرسمى للدولة ولم يتولّ حكم كانم بعد هذا التاريخ أى ملك وثنى وأصبحت دولة اسلامية.

اتسعت دولة كانم حتى وصلت إلى مشارف وادى النيل وغرباً قرب نهر النيجر، ولم يكن لدولة كانم حدود واضحة فهي تقع بين منحنى النيجر ودارفور؛ لذلك كانت حدودها المفتوحة فى كل الجهات هى التى أدت إلى ظهور كانم كقوة حربية كبيرة فكان عليها لكى تعيش فى أمان أن تخضع الآخرين الطوارق وغيرهم من قبائل الصحراء الذين كانوا دائماً ما يفتكون بالسكان المستقرين، كان على كانم إما أن تخضع هؤلاء أو يتمكنوا هم من إخضاعها، لذلك بذلت ما فى وسعها لغزو الآخرين.

وشهد القرنان التاليان توسعاً سريعاً لدولة كانم إذ دعمت قبضتها على حوض تشاد والصحراء الجنوبية، وفى القرن الثالث عشر ظهرت كانم كدولة عظمى وامتدت فى القرن الرابع عشر إلى النيجر غرباً.. وكان اتساع المملكة يحمل فى طياته بذور التفتت والانقسام فمن الشرق تدفق البدو والتجار العرب، وترتب على إغاراتهم أن أخذ الضعف يدب فى أركان الدولة، كما واجهت كانم أعداء آخرين فى مقدمتهم وثنىو الجنوب الاقوياء الذين شكلوا اتحاداً اكتسب درجة كبيرة من القوة فى بداية القرن الرابع عشر.

دب الوهن فى هذه المملكة نتيجة الخلافات والانقسامات بين الأسرة الحاكمة وقيام قبائل الصو التى كانت تسكن إقليم برنو الذين هاجموا عاصمتها، وانتهى الصراع إلى طرد الأسرة الحاكمة فى كانم ففرت إلى إقليم برنو الذى يقع غرب بحيرة تشاد. وكانت مملكة برنو أكثر الممالك شهرة فى غرب إفريقيا ووسطها؛ أسستها أسرة سيفى التى تنسبها الأساطير إلى سيف بن ذى يزن، وظلت هذه الأسرة تحكم حتى القرن التاسع عشر.

وشعب الصو هم السكان الأصليون لحوض تشاد، وحتى بداية القرن الثالث عشر كانت جارتها دولة كانم هى السائدة وبرنو مجرد إقليم فى الأطراف، وكان مركز الإمبراطورية هو حوض تشاد. وبعد القرن السادس عشر فترة عظمة برنو فقد امتدت سيادتها من دارفور إلى الحدود الغربية لبلاد الهوسا، وكان لدى برنو جيش لا يضارعه جيش آخر فى إفريقيا الزنجية كلها. ثم ما لبث أن ظهرت فى حوض البحيرة سلطنة صغيرة هى البلالة بدأت تناوئ البرنو، وجرت بين البرنو والبلالة حروب كثيرة انتهت بانتصار برنو حيث وصلت إلى أقصى اتساعها وقوتها وازدهارها على مدى قرنين من الزمان، ثم دب الوهن فيها بتوالى حكام

ضعاف، وحدث عدد من المجاعات المتلاحقة بلغت خمس مجاعات استمر إحداها أربع سنوات وأخرى سبع سنوات، وأدى تكرار حدوث هذه المجاعات إلى تدهور وضعف عام ونقص الغذاء وأهملت الزراعة وكثرت الفتن والاضطرابات؛ فضلاً عن ظهور قبائل وثنية اجتاحت برنو الغربية.

٢- سلطنة البُلالة الإسلامية في حوض بحيرة تشاد

٧٦٦-١٣٨١هـ / ١٣٦٥-١٩٠٠م

قامت هذه السلطنة في بلاد السودان الأوسط في حوض بحيرة تشاد، وظهرت كدولة منذ عام ٧٦٦هـ / ١٣٦٥م، واستمرت حتى بداية القرن العشرين عندما سقطت المنطقة كلها في يد الاستعمار الفرنسي. ورغم طول مدة بقاء هذه السلطنة إلا أنها كانت تابعة لسلطنة كانم وبرنو في كثير من فترات حياتها، ويعنى اسمها بُولالا أو بُلالة الأمراء النبلاء. وأصل البُلالة جاء من تصاهر عناصر من البربر والسودان والزنج، وظل البُلالة وثنيين حتى القرن الثانى عشر عندما تحولوا إلى الإسلام.

ظهر خطر البُلالة على سلاطين دولة كانم الإسلامية، وظلوا يتقلبون بين التبعية والتحرر من كانم حتى عام ١٣٦٥م عندما حققوا الاستقلال التام واتخذوا «ماسيو» عاصمة لهم. ونتيجة لعوامل كثيرة أدت إلى ضعف سلطنة كانم وقّع إقليم كانم بأسره فى قبضة البُلالة مما جعلهم يحكمون دولة واسعة تمتد من حدود دارفور الغربية وبلاد النوبة السودانية حتى شواطئ بحيرة تشاد الشرقية.

حكم البُلالة إقليم كانم، ثم بدأ الضعف يدب فى أوصالها وبدأت الفتن والاضطرابات والحروب القبلية والصراع الطويل الذى كان بينهما وبين حكام برنو فأخذت تسير فى طريق الانهيار، خاصة أن سلطنات أخرى ظهرت مثل سلطنة واداي التى تقع فى الشمال الشرقى لدولة البُلالة وسلطنة باجرمى التى تقع جنوبها وأخذت هاتان السلطتان تغيران عليها، ورغم ذلك ظلت البُلالة قائمة حتى بداية القرن العشرين حينما سقطت عام ١٩٠٠ فى قبضة الاستعمار الفرنسى مثلما وقعت بقية السلطنات الأخرى التى كانت قائمة فى حوض بحيرة تشاد، ومع ذلك استمر بعض سلاطين البُلالة يحكمون تحت راية هذا الاستعمار وظلوا كذلك حتى نالت البلاد استقلالها عام ١٩٦٠، ودخلت بلاد البُلالة ضمن حدود جمهورية تشاد الحديثة^(١).

(١) الموسوعة الإفريقية - المرجع السابق - ص ٢١٦-٢٢١.

٣- بلاد الهوسا

بلاد الهوسا دولة إسلامية تتكون من عدة دول اشتهرت فى التاريخ باسم دول الهوسا السبع التى أصبحت الآن نيجيريا. وشهدت اغلب هذه الدول الإسلامية حركة الكشف الجغرافية وحركة الاستعمار الأوروبى. التى طوت صفحة التاريخ القومى لتلك البلاد، ومن هذه الدول ما اصطدم بالاستعمار اصطدامًا طويلاً مريراً^(١).

تشمل بلاد الهوسا ما يعرف الآن بشمال نيجيريا وجزء من جمهورية النيجر. كانت فى العصور الوسطى تقع فى المنطقة المحصورة بين سلطتى مالى وصنغى غرباً وسلطنة البرنو شرقاً، وقد أعطى لها موقعها امتيازاً خاصاً فإمبراطوريات السودان تحمى مشارفها الشمالية وتقف برنو حائلاً لها من بلاد الشرق، ولم يكن من المستطاع التغلغل فى بلاد الهوسا دون الإطاحة بالممالك البالغة القوة فى بلاد السودان الغربية. ولم يمارس الهوسا قط سيطرة سياسية على جيرانهم بل كانوا دائماً خاضعين لهم ولكن كان لهم تاريخ حضارى متميز خاص بهم.

ينحدر شعب الهوسا من امتزاج جماعات قبلية وعرقية كثيرة أهمها السودانيون أصحاب البلاد الأصليين والطوارق والبربر والفلولا وبعض العرب المهاجرين. وقد منحها موقعها الجغرافى موقعاً تجارياً فريداً عوضها عن افتقارها إلى قوة سياسية فعالة، وزادت سيطرتها على التجارة فى بلاد السودان بعد انهيار سلطنة صنغى أمام الغزو المراكشى عام ١٥٩١م مما أدى إلى تحول المجرى الرئيسى للحركة التجارية مع شمال إفريقيا إلى بلاد الهوسا.

وممالك الهوسا كانت أربع عشرة مملكة، سبعة ممالك أصلية شكلت النواة الأساسية لبلاد الهوسا، وإلى جوارها ممالك سبع أخرى تعرف بأنها أشباه الهوسا^(٢)، والهوسا مجموعة لغوية أكثر منها مجموعة قبلية، وهى المنطقة التى التقى فيها السودان بثقافة بنين الخصبة ونقطة التقاء التأثيرات الشرقية والشمالية، كما كانت حدوداً عرقية بين القبائل الشمالية التى تختلف عن القبائل الجنوبية الشرقية، وظل كل صراع يقوم بين هذه القبائل يدفع بأعداد

(١) المؤتمر الدولى الإسلامى فى إفريقيا / الكتاب الثامن / بحث بلاد غرب إفريقيا الإسلامية عبر التاريخ / السر سيد أحمد العراقى ص ٣٦.

(٢) مجموعة ممالك الهوسا الأصلية عرفت باسم هوسا باكوأى (أى ممالك الهوسا السبع) هى غريب، زكرك، دورا، كانو، كاتسينا، جاراف جابا، رانو. والمجموعة الفرعية وتعرف باسم بانزا باكوأى (أى الممالك السبعة الفرعية) هى زنفرا، كب، ياور، نوبى، يرب أو ايلورين، بزغ، غرم. وكانت كل إمارة مستقلة، وكانت الحروب تندلع فيها بينها نتيجة لأطباع حكامها فى فرض سيطرتهم كل على الآخر.

كبيرة من الناس إلى بلاد الهوسا، وكان عامل التوحيد الرئيسى هو لغة الشعب وثقافته اللتان مكتتاه من امتصاص القادمين الجدد، وبرغم أن الهوسا لم يمارسوا قط سيطرة سياسية على جيرانهم وأنهم كانوا دائمًا خاضعين لهم فإن لهم تاريخًا ممتعًا يفسر حالة الحضارة فى غرب إفريقيا. وكانت ثقافة الهوسا تقف جنبًا إلى جنب مع ثقافة اليوروبا والبرنو وهى الثقافات التى تواصلت على الرغم من الهزائم والفتوحات العسكرية، وعند حلول القرن الثانى عشر اعتنق ملوكها والطبقات العليا فيها الإسلام فى حين ظل الشعب على عقيدته الوثنية.

وقد تميزت بلاد الهوسا على مدن منحنى النيجر بوقوعها فى قلب أكثر مناطق السودان إنتاجية، وبقربها الشديد من المناطق الاستوائية، ورغم أن الحروب العديدة التى قامت بين الهوسا إلا أنها كانت حروبًا لا تعدو كونها وسيلة لمنع ظهور أية قوة منافسة، كانت ممالك الهوسا أشبه بالمدن الدولة فى إيطاليا خلال عصر النهضة هدفها الرئيسى هو الرخاء التجارى.

٤- دولة رابح فضل الله

رابح فضل الله من زعماء المسلمين الذين قاموا بدور هام فى نشر الإسلام فى وسط إفريقيا وغربها، واستطاع أن يؤسس مملكة إسلامية واسعة وأن يقف أمام التوسع الأوروبى وخصوصًا الفرنسى فى تلك المنطقة حتى سقطت دولته بعد سبع سنوات من النضال المستمر والكفاح المتواصل ضد القبائل الوثنية تارة والممالك المحلية تارة أخرى والفرنسيين وأعدائهم من الحكام المحليين الذين تأمروا عليه، واستطاع أن ينتقل من السودان وادى النيل إلى وسط القارة وغربها حيث كان مقره حول بحيرة تشاد التى صارت مقرًا لدولته الإسلامية التى لم تعمر طويلًا، وكان من الممكن لهذه الدولة أن تعيش أطول لولا تصادف قيامها مع التوسع الأوروبى وابتلاع المنطقة بأسرها^(١).

ولد رابح عام ١٨٤٦ فى إحدى قرى بحر الغزال، وكان ابنًا لأحد ملوك القبائل التى استوطنت حوض بحر الغزال، ونشأ على التربية العسكرية حيث كان والده قد انضم إلى السلك العسكرى المصرى، ثم انضم رابح إلى جيش الزبير باشا رحمت صاحب السلطة الحقيقية فى منطقة (بحر الغزال) والتى أجبرت مصر على الاعتراف بوضع المنطقة تحت حكم الزبير. استفاد رابح كثيرًا من انضمامه إلى الزبير واكتسب منه الخبرة التى جعلت منه

(١) المسلمون والاستعمار الأوروبى فى إفريقيا ص ١٨٦.

القائد الذى سيلعب دورًا كبيرًا فى ممالك غرب إفريقيا فى كل من البرنو ووداي وعلى شاطئ بحيرة تشاد، وقد حاول الخليفة محمد أحمد المهدى فى السودان أن يعترف رابح بسلطته ولكنه لم يرد على خطاب الخليفة واتجه إلى الجنوب الغربى من دارفور. انطلقت من دارفور وبحر الغزال حركة رابح فضل الله بعد أن رفض الانصياع للمهدى واختار المقاومة، وتحرك بجنوده إلى أن وصل إلى كانم وبرنو، وحينما قرر الإنجليز التخلص من المهدى فى السودان كان رابح قد ملك كل ما كان يعرف بدارفور التى أصبحت تضم مساحة كبيرة من النيجر ومعظم تشاد وأجزاء من الكاميرون؛ إذ استطاع رابح بجيشه الصغير أن يهزم سلطان وداى وأصبح الطريق إلى بحيرة تشاد ممهدة أمامه، وفى عام ١٨٨٩ أقام رابح فى المنطقة حكومة على درجة عالية من الاستقرار وامتد نفوذه إلى نهر شارى^(١)، ثم اتجه إلى مملكة وداى وتوالت انتصاراته وتوسعاته فى المنطقة حتى دانت له كل بلاد برنو وبلغت دولته حوالى ١٥٠ ألف كيلو متر مربع وتضم أكثر من خمسة ملايين نسمة، وكان من الممكن أن يتوسع رابح أكثر إلا أنه اضطر لمواجهة قوة فرنسية تقدمت نحو برنو من الجنوب، وكان هذا بداية الصراع مع الفرنسيين.

رابح والصراع مع القوى الأوروبية:

صارت دولة رابح العقبة الأولى أمام توسعات الدولتين الاستعماريتين فرنسا وبريطانيا اللتان تتنافسان على المنطقة، وكان رابح يمثل مشكلة كبرى أمام لجان تحديد الحدود بين الممتلكات الأوروبية فى غرب إفريقيا، فكان التفكير فى القضاء عليه من أهم أسس الاستراتيجية الأوروبية بشكل عام والفرنسية بشكل خاص، ومن هنا بدأ الصراع بين رابح والقوات الفرنسية، وفرنسا التى كانت قد خططت لضم المنطقة والاتجاه شرقًا نحو بحيرة تشاد والقضاء على قوة رابح. أرسلت عدة حملات ضد رابح استمرت سبع سنوات. كانت المعركة الأخيرة أن أصاب رابح القائد الفرنسى «لامى» بطلقه أردته قتيلاً وأصيب هو الآخر بجرح مميت، وانتهت المعركة بأن لفظ كل من «رابح» و«لامى» أنفاسهما الأخيرة.

واصل ابن رابح «فضل الله» النضال بجيش منهك وسلاح يكاد يكون معدومًا وكان الصراع حينذاك بين الفرنسيين والبريطانيين على أشده فى كل بقاع غرب إفريقيا، فحاول فضل الله أن يتصل بالبريطانيين لعله يجد منهم عونًا وجرت بينهما سلسلة من المراسلات.

(١) الوثنية والإسلام ص ٣١٧.

أدركت فرنسا أن هذه العلاقة قد تقوض جهودها من أجل السيطرة على دولة رابح، فجذّت في تعقب فضل الله واشتبكت معه في معركة عنيفة أسفرت عن مقتله مع عدد كبير من الضحايا.

سقطت مملكة رابح بعد نضال بطولى استمر سبع سنوات من مايو ١٨٩٣ إلى إبريل ١٩٠٠ بعد صراع دموى على أراضيهِ وتكالب محمود بين فرنسا وإنجلترا وألمانيا، كان جهاد رابح هو وابنه فضل الله - الذى حمل لواء النضال من بعده - صورة من صور جهاد المسلمين ضد الأوروبيين؛ تلك الصورة التى طمسها الكتابات الأوروبية وأشارت إليها فى عبارات ثانوية على أنها تمرد انتهى مع أول هجمة أوروبية، ولكن تاريخ الرجل سجلته وثائق عديدة ومعارك مدونة فى تقارير رسمية محفوظة فى دور الوثائق الأوروبية تنبض بروح الجهاد وحركات مقاومة إسلامية قادها زعماء أفارقة مسلمون وأفارقة ضد الهجمة الأوروبية الشرسة على القارة الإفريقية فى أواخر القرن التاسع عشر^(١).



(١) المسلمون والاستعمار الأوروبى فى إفريقيا ص ٢١٧.

الفصل الثانى

المقاومة فى السودان الغربى والأوسط مقاومة الممالك الإسلامية فى القرن ١٩

- ١- مقاومة إمبراطورية الفولانى.
- ٢- مقاومة اليوروبا.
- ٣- مقاومة إمبراطورية التكرور والبمبارا.
- ٤- مقاومة سامورى تورى للغزو الفرنسى.
- ٥- ثورة الشيخ المحارب محمد الأمين.

مقاومة الممالك الاسلامية فى القرن ١٩

كانت الفترة الممتدة من ١٨٠٠- ١٩٠٠ هى الفترة التى بلغ فيها الغزو والاحتلال الاوروبى لغرب إفريقيا مداه، فلم يحدث من قبل على مر التاريخ المعروف للقارة أن شهدت مثل هذا النشاط العسكرى من الغزوات والحملات ضد الدول والمجتمعات الإفريقية، وفى هذه الفترة كان الإفريقيون جميعًا يتوخون نفس الهدف ألا وهو الدفاع عن سيادتهم وأسلوبهم التقليدى فى الحياة. كانت المقاومة الإفريقية أطول أمدًا، ويرجع السبب إلى الإسلام الذى كان منتشرًا بين شعوب تلك المنطقة، فإن تلك الشعوب عمدت إلى مقاومة الأوربيين بحماس وإصرار كان يفتقد إليهما معظم من لا يدينون بالإسلام.

وهذا الفصل يتعرض لمقاومة الممالك الاسلامية للغزو الأوروبى فى القرن التاسع عشر، وهو يشمل ممالك السودان الغربى والأوسط أى المساحة الواسعة الممتدة من الساحل الغربى الإفريقى حتى السودان الشرقى سودان وادى النيل؛ لذلك لا يمكن تجزئة المقاومة أو تحديدها بين غرب السودان ووسطه إذ كانت تلك مساحة واحدة ليست محددة الحدود كما هو الحال الآن، دخل شعوبها الإسلام وشيدوا ممالك إسلامية عظيمة كما سبق البيان فى الفصل السابق، وهؤلاء هم من قاوموا الغزو الاستعمارى ببطولة وروح استشهاد سجلها لهم التاريخ.



دخل الإسلام إقليم غرب إفريقيا عن طريق موجتين إسلاميتين، فى الموجة الأولى انتشر بطيئًا وامتد إلى سبعة قرون ابتداء من القرن الحادى عشر الميلادى، وكانت طلائع الموجة الأولى من الملتهمين (الطوارق) الذين نشروا الإسلام سلميًا، أما الموجة الإسلامية الثانية فكانت على أيدي قبيلة الفولانى، وفاقت هذه الموجة خلال قرن واحد - القرن التاسع عشر - ما حققته الموجة الأولى فى سبعة قرون .

كان انتشار الإسلام في غرب إفريقيا في البداية بفضل هجرات القبائل العربية وقبائل البربر التي أخذت تهجر إلى غرب إفريقيا باحثة عن ظروف تتشابه مع الحياة السائدة في بيئتها الأصلية، وترتب على هذا التحرك والهجرات أن اضطرت القبائل المحلية من البربر والزنوج إلى التوسع جنوبًا، وكانت هذه القبائل حلقة الاتصال بين المغرب بشعوبه وثقافته والمحيط الزنجي الذي يمتد إلى بحيرة تشاد. ولما قامت دولة المرابطين في المغرب زحف دعائها جنوبًا إلى السنغال حيث تمكن زعيمها الروحي عبد الله بن ياسين من تكوين نواة المرابطين في جزيرة صغيرة عند نهر السنغال على مقربة من ساحل المحيط الأطلسي، كانت هذه الجزيرة حجر الأساس لقيام دولة المرابطين التي امتدت من السنغال إلى غينيا حتى ساحل العاج والنيجر ودخلوا إمبراطورية غانة الوثنية وفتحوها وصارت إمبراطورية إسلامية. ويعزى إلى دولة المرابطين تأسيس مدينة تمبكتو عند منحني نهر النيجر (في دولة مالي الحالية) التي أصبحت حاضرة عربية إسلامية على درجة كبيرة من الأهمية العلمية والدينية والاقتصادية في إفريقيا الغربية^(١).

لم يكن دخول الإسلام في جنوب الصحراء على يد المرابطين بغرض نشر الإسلام في المنطقة فحسب وإنما إنشاء كيان إسلامي فيها يعينهم على بسط سيطرتهم على المنطقة بكاملها. مكنتهم الجزيرة الصغيرة النائية على نهر السنغال أن يجمعوا أتباعًا أكثر من جنسهم الصهناجة وجيرانهم الولوف والسونكي والفلانيين وغيرهم من شعوب المنطقة ولولا هذا التجاوب من الأهالي لما تمكنوا من إنجاز مهمتهم^(٢).

انتشر دعاة المرابطين من السنغال إلى غينيا حتى ساحل العاج والنيجر ودخلوا إمبراطورية غانة الوثنية القديمة في النصف الثاني من القرن الحادي عشر وفتحوها وصارت إمبراطورية إسلامية حتى انتهت في القرن الثالث عشر، وقامت على آثارها إمبراطورية مالي الإسلامية ثم دولة صنغهي الإسلامية التي توسعت جنوبًا، ولولا الغزو المغربي في أواخر القرن السادس عشر لكان لهذه الدولة شأن كبير في بلاد الزنج^(٣).

(١) مركز دراسات الوحدة العربية - الجماعات العربية في إفريقيا - دراسة في أوضاع الجاليات والأقليات العربية في إفريقيا / د. عبد السلام بغدادى ص ٢٠٧.

(٢) المؤتمر الدولي «الإسلام في إفريقيا» - المراجع السابق - الكتاب الخامس سعيد جالو ص ٢٣٢.

(٣) Islam's Black Slaves Ronald Segal. P 164.

١- مقاومة إمبراطورية الفولاني

بعد تفكك دولة صنغى ساد منطقة السودان الغربى فترة من الفوضى استمرت حوالى قرنين من الزمان حتى نهض الفولاني وقاموا بثورتهم الكبرى مع إشراقة القرن التاسع عشر.

أخذت قبائل الفولاني تنتشر بالتدريج فى السودان الغربى وأعلى السنغال وشقوا طريقهم إلى بلاد الهوسا فى نهاية القرن الثالث عشر، وصاروا قوة مهيمنة بعد نجاح حركة الجهاد الفولاني بزعامة الشيخ عثمان بن فودى.

والفولاني شعب من الرعاة وبقوا شعباً رعوياً بعد أن استقروا فى الإقليم الشمالى لنيجيريا وعاشوا حياة المدن وصاروا مسلمين وبعضهم تعمق فى الثقافة الإسلامية ومن هؤلاء كان الشيخ عثمان بن فودى الذى قاد ثورة ضد ملوك الهوسا رغم إعلان هؤلاء انتماءهم للإسلام ولكن أنكر ذلك عليهم واعتبرهم وثنيين، وقاد حركة التجديد الإسلامى لتصحيح الإسلام الذى كان قد امتزج بالتقاليد الوثنية. وفى بداية القرن التاسع عشر صارت ثورته جهاداً وانتشرت فى كل أنحاء بلاد الهوسا.

ولد الشيخ عثمان بن فودى عام ١٧٥٤ فى ولاية سكوتو (شمال نيجيريا) من قبيلة الفولاني. أقام فى النيجر وهو يعتبر أول داعية فى إفريقيا قام بتغيير المنكر بالسلاح وأقام دولة تحكم بكتاب الله والسنة على نمط الحكومات الإسلامية الأولى فى صدر الإسلام، ورفض أن يكون المهدي المنتظر على الرغم من استعداد الناس لتقبل ذلك منه لو ادعاه، وظل يلقب أمير المؤمنين حتى توفى عام ١٨١٧، واستمرت دولته التى خلفه فيها أبنائه تحكم بلاد الهوسا قرناً من الزمان من ١٨٠٤-١٩٠٤^(١).

فى مطلع القرن التاسع عشر وبالتحديد عام ١٨٠٤ بدأت الثورة الفودية تحت قيادة الشيخ عثمان فى سكوتو، وكان مجتمع الهوسا يتكون من المسلمين والوثنيين والمختلطين بين العادات الجاهلية والإسلام. وبدأ الشيخ فى استنفار الطاقات الإسلامية ومهاجمة النظام السياسى فى بلاد الهوسا والحكم بعدم إسلاميته ونادى بضرورة الإطاحة به. وتوجت ثورته بإقامة الخلافة الفودية الإسلامية فى سكوتو وألقت بظلالها على معظم الغرب الإفريقى حتى السودان الشرقى الذى شهد ثورة المهدي فيما بعد.

(١) الشيخ عثمان بن فودى - إصدار جامعة إفريقيا العالمية ومنظمة اليونسكو ص ٤١.

وفي عام ١٨١٢ تأسست إمبراطورية الفولاني على النهج الإسلامي وعلى مبدأ الخلافة، وصار الشيخ عثمان خليفة ولكنه ابتعد عن الحكم من أجل التفرغ للدرس والوعظ وتأليف الكتب الدينية. وانقسمت الإمبراطورية بين شقيقه عبد الله الذي حكم النصف الغربي وابنه محمد الذي حكم النصف الشرقي، ومع وفاة الشيخ عام ١٨١٧ خلفه ابنه وشرع في دعم الإمبراطورية كخليفة لكل البلاد، ولم يكن الطموح للتوسع مما يمكن وقفه فتحركت جيوش الفولاني في اتجاه الغرب إلى يوروبا لاند (أرض اليوروبا) حيث سيطروا على الأقاليم الشمالية من الإمارة الجنوبية «أويو» وأخضعوها وأسسوا إمارة ايلورين Ilorin وكانت هذه القاعدة التي انتشر فيها الإسلام بين اليوروبا، وتاريخيًا فإن جيوش الفولاني تحركت شرقًا وصارت إمبراطوريتهم في حالة حرب مع مملكة بورنو، وانتشرت في المناطق الشاسعة التي تصل إلى أنهار النيجر والسنغال^(١).

وعاشت إمارات الدولة الفولانية (نيجيريا الشمالية) طوال القرن التاسع عشر في حملات جهاد مستمرة ضد الوثنيين، وكانت على دراسية بخطط المناطق التي يعلنون فيها حروب الجهاد، وبعبارة أخرى عرف المسلمون نظم الحرب لدى القبائل التي يشنون عليها حروبهم.

وضعت قرارات مؤتمر برلين مناطق نيجيريا الشمالية والجنوبية ضمن مناطق النفوذ البريطاني، وبدأت بريطانيا تعمل على بسط نفوذها على المناطق الشمالية الإسلامية التي كانت الشركة البريطانية «شركة النيجر الملكية»^(٢) عقدت مسبقًا سلسلة من المعاهدات مع حكام نيجيريا الشمالية.

(١) تجارة العبيد في إفريقيا - المرجع السابق - ص ١١٨.

(٢) الشركات التجارية الأوروبية تلخص قصة الاستعمار الغربي كله الذي بسط سيطرته على العالم في القرون الماضية، أعملت هذه الشركات أسوأ أشكال النهب الاستعماري والعنف العنصري الهمجي المنهج بهدف استنزاف خيرات الشعوب واسترقاقها وتدمير مقومات الإنسانية. كانت الشركات تأتي في العلن بهدف التجارة ولكنها بقيت من أجل الحكم، وقد وقفت الاستراتيجية البريطانية خلف هذه الشركات ومنحتها امتيازات شبه سيادية من بينها حق سك العملة في فروعها الخارجية والاضطلاع بالسلطة القضائية في المستعمرات وحق تكوين الجيوش المسلحة بل وحققها في شن الحروب.

كانت الشركات التجارية الضخمة تقوم بالاستحواذ على ثروات شعب بأكمله لمصلحة شركة وحيدة تصب في النهاية في الدولة الاستعمارية. وكانت الشركات على استعداد لارتكاب جرائم مروعة لأنها كانت تعلم جيدًا أنه لا يوجد من القوانين في بريطانيا ولا في العالم ما يمنعها أو يحاسبها على ارتكاب تلك الجرائم. ويذكر أن شبه القارة الهندية في عام ١٧٥٠ كانت تنتج ربع الإنتاج الصناعي من الأقطان في العالم في حين كانت بريطانيا تنتج فقط ٩ ٪ من الإنتاج العالمي. وكانت هذه الأقطان الهندية بضاعة حيوية تتم مقايضتها بالحمولات البشرية من العبيد. لقد استخدم مبدأ تحرير التجارة والتجارة الحرة لتبرير السياسات الاستعمارية غير الإنسانية.

[مقتطفات من كتاب «الشركة التي غيرت العالم» نك رويترز / مطبوعات مكتبة الشروق الدولية].

قامت بريطانيا بحملات مسلحة بالبنادق سريعة الطلقات ورشاشات مكسيم على ممالك الشمال، وتمكنت بعد مقاومة عنيفة من إخضاع الإفرقيين الثائرين سلالة الشيخ عثمان بن فودي، ومما أدهش البريطانيين أن سائر حكام الشمال لم ترهبهم هذه الأسلحة بل قرروا بدافع من كراهيتهم الشديدة للغزاة الكفار أن يقاتلوا حتى الموت دفاعاً عن أرضهم ودينهم.. كان الحكام على مستوى التحدى ولكن لم يكن لديهم ردّ فعّال على رشاشات مكسيم والبنادق والمدافع وغيرها من أسلحة العدو المتطورة. ومع ذلك قاوموها بمواجهات بطولية شهد بها المستعمر نفسه.

دارت المعارك بين طرفين غير متكافئين؛ طرف يحمل أحدث الأسلحة وأحدث ما وصل إليه العلم من وسائل حرية متطورة وتنظيمات عسكرية وجيوش مدربة على أحدث نظم القتال، وطرف سلاحهم الإيمان بالله والدين الإسلامى هدفهم الصمود حتى النهاية دفاعاً عن الدين وحماية لأرض المسلمين ضد الغزاة الأوروبيين حتى سقطت الخلافة الإسلامية فى أيدي البريطانيين ١٩٠٤.

ولما سقطت الدولة ودخلت فى ظل الحكم البريطانى عجز البريطانيون عن تغيير النظم الإسلامية التى ترسخت فى النفوذ ومارسها الشعب طوال قرن. ولم يجد البريطانيون بديلاً أفضل من تلك النظم الإفريقية القائمة فتركوها وأبقوا عليها، ومازال المسلمون فى نيجيريا يشكلون أغلبية السكان، ومازالت نيجيريا حتى الآن أكبر دولة إسلامية فى غرب إفريقيا بل فى القارة الإفريقية كلها، وذلك بفضل جهود خلفاء دولة الفولانى الإسلامية، وبفضل روح النضال والكفاح الذى بذلوه طوال قرن من الزمان، ويفضل حملات الجهاد وإنشاء مدن المرابطين الإسلامية التى كانت ركائز لنشر الدين الإسلامى فى أعماق الصحراء وعلى حواف الغابات الاستوائية.

٢- مقاومة اليوروبا ضد الغزو الإسلامى والبريطانى

كان اليوروبا أكثر الشعوب الوثنية مقاومة للفولانى بالرغم من أن أحوال اليوروبا فى ذلك الوقت كانت مضطربة للغاية بسبب الحروب المهلكة فيما بينهم والتى أنهكتهم، وغزوات جارتهم داهومى لهم من ناحية وهجمات الفولانى عليهم من ناحية أخرى. وظن الفولانى الذين أسكرتهم انتصاراتهم على ممالك الهوسا فى الشمال أن بلاد اليوروبا فى الجنوب قد دان قطوفها وأن بإمكانهم محاربة اليوروبا بسهولة، ولكن كان هذا الاعتقاد وهمًا فلم

تكن قوة الفولاني تركز على أساس صلب إذ كانوا مشتتين على امتداد منطقة فسيحة للغاية وكان إحكام قبضتهم عليها هزيعاً، وكل ما فعلوه باجتياحهم هذه الأراضي هو إدخال بعض الأهالي في الإسلام في حين كان اليوروبا رغم الحروب فيما بينهم قد وقفوا متحدين في جبهة واحدة أمام الغزو الفولاني واعتبروهم غزاة أجنبي، وأصبحت حرب اليوروبا ضد الفولاني نضالاً من أجل صيانة الوجود القومي^(١)، ويعد ذلك بداية ظهور وعى قومي إذ عُد القتال من أجل طرد الفولاني التزاماً قومياً ووقفوا في وجههم جبهة واحدة بالرغم من أنهم استمروا في ذات الوقت يحاربون بعضهم بعضاً، وهكذا كانت نتيجة عدوان الفولاني نهوض قومية اليوروبا وظهور فكرة القومية إلى الوجود في غرب إفريقيا.

توغل النفوذ البريطاني إلى معظم بقاع اليوروبا بفضل نشاط المبشرين، وكان عدد من المعاهدات التجارية ومعاهدات الحماية قد أبرم بين البريطانيين وكثير من حكام اليوروبا، ذلك أن شعب اليوروبا كان قد ملّ من حروبه الداخلية، ومن ثم قبل تدخل البريطانيين ماعدا الايجيو فهي الدولة الوحيدة من دول اليوروبا التي قاومت المبشرين والتجار البريطانيين ورفضت الخضوع للنفوذ البريطاني.

ولكن البريطانيين الذين كانوا قد عقدوا العزم على احتلال بلاد اليوروبا قرروا أن يلقنوا الايجيو درساً قاسياً يظهر لسائر دول اليوروبا عدم جدوى الوقوف في وجه أطماعهم، فشنت بريطانيا حملة ضخمة مسلحة بالبنادق والمدافع الرشاشة وألحقوا هزيمة قاسية بالاييجيو. ويبدو أن دول اليوروبا عت الدرس من هذا الغزو؛ لذلك لم يكن غريباً أن توافق شعوب اليوروبا على إبرام المعاهدات مع البريطانيين وقبولهم مقيمين في بلادهم، وما إن حلّ عام ١٩٠٠ حتى كانت جهود الإفريقيين للحفاظ على سيادتهم واستقلالهم قد أحبطت^(٢).

٣- مقاومة إمبراطورية التكرور والبمبارا

انتشر الإسلام في غرب إفريقيا عندما ظهرت طلائع المرابطين الذين جاءوا من المغرب الأقصى ودخلوا عن طريق سهل المحيط الأطلسي واتجهوا جنوباً حتى حوض السنغال، ولكنهم لم يتوسعوا أكثر جنوباً بسبب الغابات الاستوائية وبسبب مقاومة أهالي البلاد الوثنيين وخصوصاً شعب البمبارا.

(١) الوثنية والإسلام - المرجع السابق - ص ٣٤٧.

(٢) تاريخ إفريقيا العام - المرجع السابق - ص ١٤٦.

كوّن المرابطون ممالك ومدن إسلامية عديدة في السودان الغربي، ونجحوا في إرساء أسس العقيدة الإسلامية على أسس صحيحة بعد أن اختلط فيها الإسلام بالعادات الوثنية فكان من الضروري قيام حركات إصلاحية لتصحيح العقيدة، وتصادف قيام هذه الحركات الإصلاحية مع بدايات التوسع والتكالب الأوروبي على مناطق القارة فصار جهادها في جبهتين: جبهة ضد الأهالي الوثنيين وجبهة ثانية ضد الغزاة الأوروبيين، وهذا ما أعطى المسلمين صفة دوافع جهادية ضد ما اعتبروه من الحروب الصليبية والتي سجل فيها زعماء الإسلام بطولات فائقة ووقفوا سدًا منيعًا ضد محاولات التوسع الأوروبي^(١). ومن أبرز هذه الزعامات الحاج عمر الفتوى التكروري الذي أعلن عام ١٨٥٢ الجهاد ضد الوثنيين في السودان الغربي، واستطاع خلال عشر سنوات أن يسيطر على مناطق السودان من حدود تمبكتو حتى حدود السنغال، واعتبر رسالته المقدسة هي تقية الإسلام في السودان الغربي مما علق به من شوائب، ووضع حد للوثنية وتطبيق الشريعة الإسلامية، ومن هنا وضع نفسه على رأس دولة إسلامية^(٢)، واتبع أسلوب العنف في تحويل الأهالي الوثنيين إلى الإسلام. بدأ الجهاد بالزحف بقواته تجاه الشمال ودخل عاصمة البمبارا ثم اتجه بقواته نحو الشرق وحقق انتصارات بعيدة المدى ضد الشعوب الوثنية، ونجح نجاحًا ملحوظًا في تحويل الوثنيين إلى الإسلام.

وعمر الفتوى عالم سياسي مجاهد من قبيلة التكرور في منطقة فوتاتورو في غرب إفريقيا، اشتهر بعلمه الواسع وتقواه وكان من أشهر دعاة الطريقة الصوفية التيجانية في غرب إفريقيا. وفي عام ١٨٤٥ استقر في منطقة على حدود الفولانيين المتاخمة لفوتاتورو وبدأ في تأسيس الدولة التيجانية وذلك بتجنيد الفولانيين والتكرور، ثم جذب إليه الرجال الطموحين بأعداد كبيرة من الجماعات المختلفة وسلّحهم بأسلحة حديثة حصل عليها من التجار من الساحل^(٣).

وفي عام ١٨٥٤ سيطر الحاج عمر الفتوى على معظم أعالي نهر السنغال، وحاول تحسين علاقاته مع الفرنسيين مقابل الحصول على أسلحة وذخيرة فرفض الفرنسيون وبدأ العداء

(١) المسلمون والاستعمار الأوروبي في إفريقيا - المرجع السابق - ص ٨٠.

(٢) امتدت دولة عمر الفتوى من غينيا إلى سيجو في مالي، وكانت الثقافة الإسلامية هي السائدة واللغة العربية لغة التكامل والعلم حتى جاء الاستعمار الفرنسي الذي قضى عليها.

(٣) الموسوعة العربية الإسلامية/ العدد ١٧ الطبعة الثانية ١٩٩٩/ مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية ص ٥٨٥/ المملكة العربية السعودية.

صريحًا بينهما، قام الحاج عمر بمصادرة بضائع الفرنسيين على طول نهر السنغال وهاجمت قواته القلعة الفرنسية، أدرك الفرنسيون أنهم يواجهون حربًا مثلما حدث في الجزائر، وأن الحاج عمر ينظم ثورة عامة ضدهم، فاشتبكوا معه في عدة معارك شعر بعدها الحاج عمر أنه لا يستطيع مواجهة الأوروبيين في هذه المنطقة واتخذ قراره بإنشاء دولة متكاملة في الشرق بعيدًا عن النفوذ الفرنسي.

حاول تحسين العلاقات مع الفرنسيين حتى يتفرغ لدولته الجديدة، ولكن الفرنسيين كانوا قد خططوا على تقوية مكانتهم على حساب إمبراطورية الحاج عمر وبدأت السياسة التوسعية الفرنسية للقضاء على هذا الزعيم المسلم، وأدرك هو أن أطماع الفرنسيين لا حدود لها وأن محاولات الصلح ما هي إلا مرحلة مؤقتة في خطط الفرنسيين لا بتلاع ممتلكاته وضمتها للسيطرة الفرنسية؛ لذا قرر الاتجاه إلى منطقة النيجر على أمل التحالف مع زعماء المسلمين هناك في محاولة لتوحيد صفوف المجاهدين ضد عدو أجنبي يطمع في السيطرة على بلادهم، ولكن هؤلاء الحكام المسلمين خافوا منه وتصوروا أنه جاء لغزوهم والقضاء عليهم فتحالفوا ضده واضطر للدخول في حرب ضدهم. وفي عام ١٨٦٣ قامت ثورة ضده اشترك فيها البمبارا الوثنيون والفولاني المسلمون، ولم يعد للحاج عمر أي حلفاء في المنطقة وتعقبوه حتى استشهد في فبراير ١٨٦٤ وهو يناضل من أجل دولته الإسلامية وضد التوسع الفرنسي، وعلى الرغم من أن موته لم يحدث في معركة مع الفرنسيين فقد عده المؤرخون أول زعيم أفريقي يقاوم الاستعمار الفرنسي في غرب إفريقيا^(١).

حارب الحاج عمر في ثلاث جبهات: حرب ضد الوثنيين في الغرب، وحرب ضد المسلمين في الشرق، وحرب ضد الاستعمار الفرنسي. ونشر الطريقة التيجانية في المنطقة التي دانت لسيطرته ما بين نهر السنغال ونهر النيجر، ورغم سقوط إمبراطوريته للسيطرة الاستعمارية إلا أنها استمرت تقاوم التبشير المسيحي، وتمارس حياتها الدينية وحافظت على تراث الإسلام أمام موجات الغزو والتوسع الأوروبي والتبشير المسيحي^(٢).

استشهد مؤسس إمبراطورية التكرور عمر الفتوي عن عمر يناهز السبعين عامًا وخلفه ابنه أحمدو. كان أحمدو شأنه شأن معظم الحكام الإفريقيين مصممًا على إنقاذ إمبراطوريته

(١) الإسلام وتداخل الثقافات في السنغال/ جامعة إفريقيا العالمية، د. مهدي ساتي ص ١٨٤.

(٢) المسلمون والاستعمار الأوروبي لإفريقيا ص ١١٧.

والحفاظ على استقلالها وسيادتها، وفي سبيل ذلك اتبع استراتيجية التحالف وسياسة الجابهة أيضًا، وهو وإن كان اعتمد على الاستراتيجية الأولى أكثر من اعتماده على الثانية، فقد ظل منذ اعتلائه الحكم وحتى عام ١٨٩٠ ملتزمًا بسياسة التحالف مع الفرنسيين، ولم يلجأ إلى الحرب إلا في السنتين الأخيرتين، وقد اضطر إلى ذلك لأنه في بداية حكمه فرض عليه القتال في ثلاث جبهات: ضد إخوته الذين كانوا لا يعترفون بسلطته، وضد رعاياه (البمبارا والماندنجر والفلولانيين وغيرهم) ممن كانوا يمقتون حكامهم الجدد من التكرور، وضد الفرنسيين. ومما زاد من محنته أن الجيش الذي استعان به أبوه في بناء إمبراطوريته كان قد ضعف عدديًا، كما حاول إخوته الإطاحة به ١٨٧٢، واندلعت ثورات البمبارا فاحتاج إلى السلاح واضطر إلى التفاوض مع الفرنسيين وسمح للتجار الفرنسيين بمزاولة التجارة في إمبراطوريته مقابل تزويده بالمدافع والاعتراف بسلطته، ولكن الإدارة الفرنسية لم تصدق على هذا الاتفاق، ولم يتلق أحمدو أى سلاح بل ظل الفرنسيون يساعدون المتمردين وبالأذات البمبارا الذين كانوا أعظم قوة حربية في السودان الغربى بعد سقوط الصنغى.

وفي عام ١٨٨١ بدأ الفرنسيون غزو الإمبراطورية تحت القيادة العسكرية الفرنسية الجديدة لأعلى السنغال، واحتلوا مدينة ماباكو على ضفاف النيجر دون أية مقاومة. وكان رد فعل أحمدو أنه حظر بيع أى شيء للفرنسيين في بلاده. وفي عام ١٨٨٩ شن الفرنسيون هجومًا عليه، وعندئذ فقط تخلى أحمدو عن سلاح الدبلوماسية ليمسك بسلاح المقاومة العسكرية، ولكن الفرنسيين أنزلوا هزيمة ساحقة بجيشه مستخدمين مدافعهم وأسلحتهم الحديثة فهزم جيش التكرور ونفى أحمدو في بلاد الهوسا ولكنه ظل حتى وهو في منفاه مصممًا على موقف «الاستقلال دون تنازلات إزاء الفرنسيين».

قارب نضال التكرور ضد الفرنسيين مدة نصف قرن أرهق فيها المسلمون الفرنسيين الذين اضطروا إلى تغيير القيادة أكثر من مرة، وتحملت الميزانية الفرنسية نفقات كثيرة وتكبدت القوات الفرنسية أعدادًا كبيرة من القتلى والجرحى. ورغم سقوط الإمبراطورية سياسيًا إلا أن أتباع الحاج عمر واصلوا الجهاد الإسلامى من أمثال سامورى تورى والشيخ محمد الأمين فى أعالى النيجر والسنغال.

مقاومة البمبارا:

كان البمبارا أعظم قوة حربية فى بلاد السودان وأكثر القبائل الوثنية أهمية. ولفظ البمبارا يُطلق على كل القبائل الوثنية فى المقاطعات الغربية من بلاد السودان. وكانوا أصلًا خاضعين

لإمبراطورية مالى، ومع انهيار تلك الإمبراطورية سنحت الفرصة لهم بالتوسع فشرعوا
ببسطون نفوذهم على بلاد السودان منذ منتصف القرن السابع عشر.

لم يكن البمبارا شعبًا متحدًا بل كانوا منغمسين فى حروب مستمرة، ولم تفلح محاولات
جمع شملهم فى مملكة واحدة، ومع ذلك استطاع البمبارا مد سلطتهم إلى تمبكتو، غزوها
وأرغموا حكامها على الاعتراف بهم أسيادًا لهم.

كان عام ١٨٠٨ بداية فترة جديدة فى بلاد السودان إذ بدأ جهاد الفولانى فى بلاد الهوسا
وأصبح ازدهار الاسلام ملموسًا فى بلاد السودان الأخرى، وواجه البمبارا الوطأة الشديدة
من هذا الازدهار. وكان أحمدو الفولانى أول المنادين بالجهاد فى بلاد السودان حيث
التحم بجيش البمبارا ١٨٨١ وأوقع هزيمة به، واستمرت الحروب بين الفولانى والبمبارا
سجال بين انتصار وهزائم، وظل البمبارا يقاتلون على الرغم من هزائمهم المتكررة. فى ذلك
الوقت كان تغلغل الفرنسيين فى بلاد السودان يمضى سريعًا فى طريقه. وقد رحب البمبارا
بالفرنسيين كمخلصين لهم ولكن سرعان ما ثاروا عليهم بعد فوات الأوان وسحقهم الغزو
الفرنسى.

٤- مقاومة سامورى تورى للغزو الفرنسى:

يعتبر سامورى تورى من الزعماء الأفارقة الذين لعبوا دورًا هامًا فى القارة الإفريقية
واستمر فى مقاومة الغزاة الأوروبيين حوالى عشرين عامًا من ١٨٨٠ حتى القبض عليه عام
١٨٩٨ بعد أن كان أسس دولة إسلامية فى منطقة أعالي النيجر.

وسامورى تورى واحد من الشخصيات الأسطورية فى غرب إفريقيا يُعرف بالبطل
الكبير المناضل من أجل حرية غرب إفريقيا وتشخيصًا للمقاومة الإفريقية. كان زعيمًا
ثورياً على غرار معظم زعماء السودان الغربى فى القرن التاسع عشر - زعيمًا دينيًا وسياسيًا -
والحقيقة أنه وُجد فى بلاد السودان فى خلال هذا القرن زعماء كثر يحملون القرآن بيسارهم
والسيف بييمينهم - كان جنديًا على جانب كبير من المهارة، وظل يشن حرب عصابات على
الفرنسيين ما يقرب من عشرين عامًا. مارس سامورى نشاطه على حدود سيراليون وساحل
العاج وغينيا وليبيريا، كانت خططه غاية فى البساطة إذا ما ركز البريطانيون قواتهم ضده انتقل
إلى أراضى الفرنسيين والعكس، وإذا ما قام الفرنسيون بغزو مناطقه سرعان ما يحشد جيوشًا
جديدة ويغزو مناطق جديدة.

ولد سامورى ١٨٣٣ من عائلة إسلامية مجاهدة من جماعة التورى، وعرف الكثير عن الجهاد الإسلامى الذى دار فى المناطق المجاورة، وتدرّب على فن قيادات جماعات الإغارة على القبائل الأخرى، واكتملت شخصيته بعد أن جمع حوله أعداد كبيرة من الشباب الذين وجدوا فيه قائدًا يجمع شملهم.

بدأت معرفته بفنون الحرب عندما سجنت أمه من قبل عائلة خصمه، وبما أنه لم يكن يملك المال الكافى لشراء حريتها فقد دخل فى خدمة هذه العائلة على أساس أن يكون جنديًا مقاتلاً لهم مقابل إطلاق سراحها، وكرّس نفسه لمهنته الجديدة وهى الحرب والقتال، وكوّن جيشًا دربه على درجة من الجدية والقسوة بما لا مثيل لهما فى إفريقيا ثم شرع فى تشييد مملكته عام ١٨٧٠.

كوّن أول مملكة إسلامية صغيرة فى هذه المنطقة (منطقة أعالى النيجر) بعد انهيار الممالك الإسلامية الكبرى مالى وصنغى. درب جيشًا وزوده بأسلحة حديثة حصل عليها من تجار الساحل ومن الأهالى ومن البريطانيين المقيمين هناك، وبعدما وصل هذا الجيش إلى ذروة استعداده بدأ سامورى بالإغارة على القرى والمراكز التابعة للفرنسيين، وأرسل إلى سلطان التكرور يطلب منه التحالف معه ضد هذا العدو الأوروبى. وكان عاما ١٨٨١-١٨٨٢ بداية مواجهة عنيفة بينه وبين الفرنسيين. كان سامورى انتهى من توحيد الشطر الجنوبى من مناطق السافانا على طول غابات غرب إفريقيا الكبرى فيما بين المناطق الشمالية من سيراليون حتى ساحل العاج بحيث أصبحت هذه المنطقة إمبراطورية واحدة لا ينازع فيها منازع. وفى عام ١٨٨٢ حدث أول صدام بينه وبين الفرنسيين عندما أخطرتة القيادة العليا الفرنسية لأعالى السنغال والنيجر بالانسحاب من مدينه كينيزان التى كانت مركزًا تجاريًا هامًا، ورفض سامورى هذا الأمر وعقد عزمه على المواجهة الكبرى بينه وبين الفرنسيين. وبالرغم من أن الفرنسيين كتب لهم التفوق إلا أنهم وجدوا أنفسهم بين الخراب والعزلة لأن الإمام سامورى أمر السكان المحليين بترك المناطق التى يقترب منها الفرنسيون مع أخذ كل المؤن والمواد الغذائية وتدمير القرى، ثم انسحب من أمام الفرنسيين وواصل تقدمه شرقًا بعيدًا عن توغل الفرنسيين داخل إمبراطوريته، فاحتلت فرنسا الجزء الغربى من إمبراطوريته ووصلت إلى حدود سيراليون، واضطر سامورى إلى توقيع معاهدة مع فرنسا اعترف فيها بملكية الفرنسيين للضفة اليسرى من النيجر.

لم يكن فشل سامورى مرجعه افتقاده إلى المهارة الحربية أو الفطنة السياسية وإنما

كان وجود الأوروبيين هو مصدر سوء حظه إذ كانت فرنسا تبسط نفوذها ببطء على الأجزاء الغربية من بلاد السودان، كما واجه سامورى متاعب من جانب آخر فقد كان يحصل على السلاح من البريطانيين الذين وجدوه أفضل طريقة تشغل الفرنسيين. وما إن وقف الفرنسيون والبريطانيون فى وجه بعضهم البعض متنافسين على الحدود فى منطقة ساحل الذهب حتى أخذ سامورى تساوره الرغبة فى الحصول على السلاح من البريطانيين فقرر التحرك صوب حدود ليبيريا، ولكن الفرنسيين واصلوا مطاردته بعنف وأخذوا يهاجمون جيشه بضراوة^(١). وهنا ارتكب سامورى غلطة كبرى عندما قرر التحرك ناحية الغرب عبر الغابات الاستوائية فى فصل الأمطار حيث واجه خطر المجاعة الكبرى، وكان هذا الخطأ قاتلاً وفادحاً كلف سامورى حياته وضياع دولته، وعندما قامت القوات الفرنسية بالهجوم على قواته رفض الاستسلام وقرر الصمود حتى النهاية وواصل الحرب حتى وقع أسيراً، وباغته أحد عملاء الفرنسيين وهو يؤدى صلاة العشاء وقطع رأسه، ولكن حركة سامورى تورى لم يقض عليها بموته ١٩٠٠ إذ واصل حركة المقاومة بعده حفيده أحمد سيكوتورى الذى صار أول رئيس لجمهورية غينيا التى حصلت على استقلالها^(٢) ١٩٥٨.

وهكذا انتهت حركة مقاومة أفريقية إسلامية استمرت نحو عشرين عامًا ضد القوى الاستعمارية، وأصبح سامورى هو البطل القومى لغرب إفريقيا، وتحولت حملاته ضد الفرنسيين برغم عجزه أمامها أسطورة وطنية. وكانت محاولته بناء إمبراطورية تمتد من السنغال إلى «ماسنة» تشكل تهديدًا حقيقياً لفرنسا، ولكن لسوء حظ سامورى أنه بدأ النضال من أجل نشر العقيدة وإخضاع القبائل الوثنية فى نفس الوقت الذى راحت القوى الاستعمارية تبسط نفوذها على القارة الإفريقية بعد قرارات التقسيم فى مؤتمر برلين.. كان ظهور سامورى ودعوته للجهاد وتكوين إمبراطورية إسلامية تلازمت وتواكبت مع التكالب الاستعمارية على إفريقيا.

٥- ثورة الشيخ المحارب محمد الأمين:

كانت السنغال فى نظر فرنسا أهم المناطق فى غرب إفريقيا، وتطورت فيها السياسة الفرنسية. فى البداية عملت فرنسا على مهادنة القوى الوطنية دون الإقدام على احتلالها أو

(١) الوثنية والإسلام - المرجع السابق - ص ٣٤٣.

(٢) المسلمون والغزو الأوروبى لإفريقيا ص ١٧٧.

غزوها، ولكن بانتصارات القوى الوطنية تغيرت هذه السياسة كلياً واستخدمت فرنسا القوة العسكرية لإخضاع الأهالي واتخذت السنغال قاعدة للتوسع نحو المناطق الداخلية، وما استتبع ذلك لتدعيم سيطرتها والقضاء على المقاومة الوطنية فيها^(١).

كان قد بدأ الغزو الفرنسي للسنغال عام ١٨٥٤، ولكن فرنسا لم تستطع فرض حمايتها على دول أعالي السنغال إلا عام ١٨٦٠ عندما نجحت في الحصول على قواعد راسخة لعملياتها، ولم يحصل الفرنسيون على ذلك إلا بعد مشقة ومقاومة عنيدة من حاكمها الإفريقي لات ديور ديوب الذى اتبع استراتيجية المواجهة مع الفرنسيين وأصدر أوامره إلى كل رؤساء القبائل بإيقاع العقاب لكل فرد من رعاياهم يتعاون مع الفرنسيين أو يقبل العمل فى الخط الحديدى الذى كان يزمع الفرنسيون إنشائه. وخرج لمحاربة الفرنسيين وهو عاقد العزم على أن يضحي بحياته فى سبيل ذلك اتخذاه موقعاً عند الخط فى تلك المعركة هو وولده و ٨٠ من أنصاره، كان ذلك فى عام ١٨٨٢^(٢).

ويعد الشيخ محمد الأمين من أهم الشخصيات الإفريقية التى لعبت دوراً مشهوداً فى مقاومة الفرنسيين، وكان قد التقى بالحاج عمر الفتوى التكرورى فتأثر به واقتفى أثره وخطاه فى تكوين إمبراطورية على غرار إمبراطورية التكرور التى أسسها الحاج عمر.

فيما بين أعوام ١٨٦٨- ١٨٦٩ أدى الأمين فريضة الحج وعند عودته إلى بلاده وقع أسيراً فى يد قوات أحمدو شيخو زعيم التكرور فمكث حوالى سبع سنوات فى أراضيها مما كان له أكبر الأثر فى توتر العلاقات بين الطرفين، وهذا ما جعل الأمين يعلن فى بداية ثورته أن جهاده موجه إلى عدوه الأول السلطان أحمدو سلطان التكرور، وأنه لا يكتف للفرنسيين عداً، ولكن سرعان ما اكتشف الفرنسيون أن جهاده موجه ضد الوجود الفرنسى الأجنبى وأن إعلانه الجهاد ضد القوى الوثنية فى المنطقة ما هو إلا حيلة لتغطية هدفه.

بدأ الصدام الحقيقى بين محمد الأمين والفرنسيين عام ١٨٨٥ عندما بدأ الأمين مراسلة المدن المجاورة وأعلن عن برنامج الذى تلخص فى إعلان الجهاد وتطوير الجيش وتزويده بأحدث الأسلحة وتحسين علاقاته بجيرانه.

والحقيقة أن ثوره الأمين فى إقليم السنغال الأعلى كانت موجهة ضد السيطرة الأجنبية،

(١) بحوث ودراسات وثائقية فى تاريخ إفريقيا الحديث (المرجع السابق) ص ٦١.

(٢) تاريخ إفريقيا العام - المرجع السابق - ص ١٣١.

وكان شعب الإقليم بعضه خاضع لسلطة الفرنسيين والبعض الآخر للسلطان أحمدو، وكانت أشغال إقامة خطوط البرق والسكك الحديدية وظروف العمل المرهقة ومعيشتهم السيئة قد أدت إلى ارتفاع نسبة الوفيات بين العمال مما أثار حركة احتجاج لا على المذلة التي كانوا يخضعون لها فحسب بل على الوجود الأجنبي في المنطقة. وقد ساعد ذلك الأمين على انتشار حركته وجمع حوله ضحايا هذا النظام القدامى والجدد ودعا إلى محاربة الفرنسيين، فثارت ثائرة الأهالي على الفرنسيين وحلفائهم من الإفريقيين.

وفي عام ١٨٨٦ هجم الأمين على «باكل» التي كانت رمزاً للوجود الفرنسي في المنطقة وفرض حصاراً على المدينة واحتل بقواته كل الطرق الموصلة إليها وحاصر الحصن الفرنسي واستولى على القرى المحيطة به، كما قطع طريق المواصلات لمنع وصول الإمدادات إلى الحصن. وحقق الأمين انتصارات كبيرة وألحق عدة هزائم بالفرنسيين، وعندما كانت قواته قاب قوسين أو أدنى من النصر أصيب مقر قيادته بقذيفة مدفعية دمرته تماماً، وأعقب ذلك اضطراب شديد وفر جنوده. أدرك محمد الأمين أنه لن يستطيع بما لديه من أسلحة هزيمة أن يستولى على مواقع الفرنسيين الحصينة ومن ثم لجأ إلى حرب العصابات^(١)، ولكن التحالف الذي كان قائماً بين الفرنسيين والعناصر الإفريقية الموالية لهم عجل بفشل جهوده واضطر في نهاية الأمر إلى الفرار أمام كثافة الهجمات الفرنسية وقُبض عليه وقُتل. وبموته انتهت المقاومة العنيفة التي واجهت الفرنسيين في السنغال مما أتاح لهم فرصة العمل على تقوية مراكزهم وإعادة مواصلاتهم واتخاذ السنغال قاعدة للتوسع نحو المناطق الداخلية لسحق المقاومة الوطنية فيها.

الحقيقة أن جهاد الشيخ الأمين كان قصيراً في مداه عميقاً في مغزاه قوياً في أثره عنيماً في تنفيذ أهدافه. اتسم جهاده بالعنف والصلابة وقوة الإصرار على متابعة جهاده رغم وقوف الأعداء له بالمرصاد؛ لذا كان جهاده من نوع خاص وفي فترة قصيرة لم تتجاوز العامين ووسط ظروف بالغة القسوة، العدو الأجنبي يترصد به والقوى المحلية تحيك حوله المؤامرات، لكنه وسط كل هذا قاوم وناضل وحمل السلاح وأعلن الجهاد لنشر الدعوة الإسلامية رغم صعوبة الظروف، وتحدى كل من وقف في طريقه من القوى المحلية والخارجية، وأجبر عدداً كبيراً من الوثنيين على الدخول في طاعته، كما انضمت إليه جماعات أخرى كثيرة وجدت فيه

(١) تاريخ إفريقيا العام - المرجع السابق - ص ١٥٢.

مجسداً لآمالهم ومحققاً لأهدافهم وباعثاً لشعبه فكانت حركته قومية إسلامية جهادية وصار بطلاً قومياً لشعبه. قاوم الحكم الفرنسي الأجنبي وقاوم القوى المحلية والتوسع الفرنسي حتى يتمكن من تحقيق الهدف الذى كرس له حياته إلى أن لقي الشهادة وهو يدافع عن الدين الإسلامى، وكان من أوائل من مارسوا حرب العصابات ضد الفرنسيين حتى اشتهر بالشيخ المحارب، ورغم أن نضاله وجهاده لم يستغرقا وقتاً طويلاً إلا أن الأثر الذى تركاه كان عميقاً ليس فقط فى تاريخ هذه المنطقة بل فى غرب إفريقيا بشكل عام^(١).

إن الحقيقة التى لا يمكن إنكارها أن زعماء حركات الجهاد الإسلامى رفضوا جميعاً الاستسلام للقوى الأوروبية رغم كل العروض المادية والمعنوية التى عرضها عليهم الأجانب المستعمرون وفضلوا القتال والصمود حتى النهاية. وكانت السمة الغالبة على كل الزعماء هى الصوفية وحركات الجهاد بالموت والاستشهاد الطاهر فى سبيل الله والمقاومة حتى آخر لحظة من العمر فاستشهد الخليفة محمد الطاهر فى دولة سوكونتو واستشهد الحاج عمر الفتوى ورابع فضل الله والحاج محمد الأمين.

وانتهت هذه الحركات الجهادية جميعاً بعد أن بسط الأوروبيون نفوذهم على تلك المناطق الإسلامية، ولم يكن القضاء على هذه الحركات بسبب ضعف أو تقصير ولكن لأنها كانت تحارب على جبهتين جبهة محلية وثنية وجبهة خارجية أوروبية، كما كان العامل الحاسم فى القضاء على هذه الحركات نابغاً من استخدام الأسلحة الحديثة ضد القوى الإسلامية التى كانت تستخدم أسلحة تقليدية لا يمكنها أن تجارى هذه الأسلحة الأوروبية.



(١) المسلمون والاستعمار الاوروبى لإفريقيا - المرجع السابق - ص ١١٩.

الفصل الثالث

السودان الشرقي «سودان وادي النيل»

- الخلفية التاريخية للسودان قبل القرن التاسع عشر
- السودان بعد الفتح الإسلامي:
- ١- دولة الكنوز الإسلامية
- ٢- سلطنة الفونج الإسلامية
- ٣- سلطنة دار فور الإسلامية
- السودان في القرن التاسع عشر:
- ١- فتح السودان
- ٢- المقاومة الوطنية (الثورة المهدية)
- السياسة الاستعمارية في السودان:
- ١- سياسة عدم التدخل
- ٢- إخلاء السودان
- ٣- اقتسام ما كان يتبع مصر في السودان
- مقاومة المقاومة احتلال السودان والحكم الثنائي

الخلفية التاريخية للسودان النيلي قبل القرن التاسع عشر

سودان وادى النيل لم يختص وحده بهذا الاسم إلا في السبعينيات من القرن التاسع عشر فكلمة السودان كانت تطلق على كل مايقع بين البحر الأحمر والمحيط الأطلسي فالمغاربة مثلاً السودان بالنسبة لهم مالى والنيجر وماجاورها من البلاد، والسودان عند المصريين هو كل ماجاء جنوب مصر، والسودان عند السواحيليين هو ما يضم الصومال واثيوبيا والدويلات التى قامت في هذه المنطقة . ولم يأخذ السودان اسمه الحالى إلا بعد الفتح المصرى عندما أطلقه الخديوى إسماعيل على الأرض التى ألحقت بمصر . وكما يقول د. حسن مكى إن اسم السودان كمصطلح هو بقاع لصناعة مصرية بعد عام ١٨٧٤^(١). لم يكن السودان الشرقى أو سودان وادى النيل مجهولاً للعرب قبل الإسلام. كانت التجارة بين الجزيرة العربية والشاطئ الشرقى الافريقى ومنه إلى السودان وطيدة. وكانت هناك مملكتان مسيحيتان هى «مملكة مقرة أو دنقله أو النوبة» فى شمال السودان ومملكة علوة فى وسطه. وقد استمرت هاتان المملكتان تحكمان السودان قرابة ألف عام من القرن السادس إلى القرن السادس عشر. ظلت هذه الممالك تقف فى وجه انتشار الاسلام، وأمام جهود العرب للدخول إلى السودان النيلى. بدأت المواجهة الأولى بين العرب والمسلمين وهذه الدول المسيحية فى وقت مبكر حين حاول عمرو بن العاص فتح بلاد النوبا عام ٢٠هـ - ٦٤١م، ولكنه لم يتمكن من فتحها وانتهى الأمر بصلح مع أهلها كان أشبه بمعاهدة اقتصادية ولما نقض النوبيون هذا الصلح وأغاروا على صعيد مصر غزاهم عبد الله بن سعد بن أبى السرح عام ٣١هـ - ٦٥٢م ووصل حتى دنقله عاصمة «مقرة» المسيحية وعقد صلحاً عرف باسم معاهدة البقط. لم تكن المعاهدة تعكس تبعية (مقرة) لمصر وإنما كانت فى حقيقتها تأمينا للنواحي الاقتصادية والتجارة والدينية وتشجيعاً للتبادل التجارى وإقرار السلام على الحدود المشتركة. وظلت المعاهدة سارية فى آثارها أكثر من ٦٠٠ سنة، فتحت معاهدة البقط

(١) ندوة عن دارفور بمعهد الدراسات الإفريقية بالقاهرة - ورقة د. حسن مكى.

الباب أمام الهجرات العربية لاجتياز مملكة «مقرة» إلى وسط السودان النيل وما عرف بإسم مملكة «علوة»، وأصبح الباب مفتوحاً للإسلام والثقافة العربية للتوغل وسط السودان وحتى حدود الحبشة الشمالية دون انتظار لسقوط مملكة «مقرة» المسيحية، وقد سمحت قبائل البجة في شرق السودان للهجرات العربية بالاستقرار والإقامة فيها بعد حدود مصر الجنوبية وحتى مصوع. واستفاد العرب من نظام الوراثة عن طريق الأم فحرص رؤساؤهم على التزوج من بنات البجة والنوبة مما أدى إلى انتقال السلطة إلى العرب الذين استطاعوا أن يقيموا أول إمارة إسلامية عربية كان مقرها أسوان في عهد الخلافة الفاطمية، ولقب أميرها بكنز الدولة وأهلها ببني كنز، وتصاهر هؤلاء مع البيت المالكي النوبى في «مقرة» وبذلك انتقل الحكم إلى بني كنز وقامت أول دولة عربية إسلامية في هذا الجزء من السودان النيل عرفت باسم سلطنة الكنوز الإسلامية في بلاد النوبة. كما قامت بعد ذلك سلطنات إسلامية أخرى في وسط هذا السودان تعرف بسلطنة الفونج الإسلامية وسلطنة عربية ثالثة في الغرب تعرف باسم سلطنة دارفور^(١)

١- دولة الكنوز الإسلامية في بلاد النوبة

٧٢٣-٩٢٦ هـ / ١٣٢٣-١٥٢٠ م

أقام هذه الدولة في بلاد النوبة الشمالية التي تمتد إلى جنوب «دنقله» أو «مقرة» عرب الكنوز، واتسعت حدودها حتى أصبحت تضم صعيد مصر الجنوبي من قوص إلى أسوان، وكما ضمت جزءاً كبيراً من بلاد النوبة الشمالية حتى جنوب وادى حلفاً ووادى العلاقى في الصحراء الشرقية. ورغم ازدياد نفوذ بني كنز فإنهم لم يتمكنوا من تكوين دولة مستقلة عن مصر، وظلوا يناوئون حكام مصر حتى جاء صلاح الدين الأيوبي فأرسل إليهم حملة انتهت بمقتل أميرها كنز الدولة والقضاء على معظم جنده، قدر من قتل بثمانين ألف مما أدى إلى خراب هذه المنطقة من صعيد مصر، وقد حددت هذه الضربة مصير «بني كنز» فتركوا إمارتهم في أسوان ونزحوا جنوباً وتوغلوا في مملكة النوبة الشمالية. تمتع «بنو كنز» بفترة سلام طويلة عقب وفاة صلاح الدين الأيوبي حتى استطاعوا أن يقيموا إمارتهم الثانية في بلاد النوبة وليس في وادى العلاقى أو أسوان كما حدث من قبل. وبالطبع لم يقبل سلاطين المماليك الجدد قيام حكم عربى مجاور لهم في بلاد النوبة، وثار بين الطرفين صراع كبير امتد من صعيد مصر إلى بلاد النوبة. أرسل المماليك جيشاً لغزو مملكة «مقرة» المسيحية عقاباً لها على اعتداءات ملوكها على

(١) الموسوعة الإفريقية - المرجع السابق - ص ٢٢٣-٢٢٦.

صعيد مصر وقيامهم بالسلب والنهب والتدمير والقتل دعماً للنشاط الصليبي المسيحي الذي كان يهدد مصر في ذلك الحين.

أرسل المماليك الحملة تلو الحملة إلى مملكة «مقرة» وتمكنت الحملة الأخيرة من تعيين ملك نوبى مسلم على عرش دنقله عاصمة «مقرة» وأقسم الملك الجديد يمين الولاء لسلطان مصر، ولكن لم يقبل كنز الدولة بتعيين هذا الملك النوبى المسلم ورأى أنه أولى بهذا الكرسي، فأرسل حملة إلى النوبة واسترد عرشها ولم يجد الحاكم المصري (الناصر محمد) مفراً من الاعتراف به ملكاً على دنقله، وكان ذلك نقطة تحول خطيرة في تاريخ هذه البلاد أدت إلى سقوط مملكة (مقرة) النوبية المسيحية وقيام دولة بنى كنز الاسلاميّة المستقلة. وقد ظل بنو كنز ملوكاً على بلاد النوبة وأصحاب السلطة الفعلية أيضاً على جزء كبير من أقاصى الصعيد حتى الفتح العثماني لمصر ٩٢٣هـ - ١٥١٧ م. كان استقلال سلاطين بنى كنز في دنقله عن سلاطين مصر تاماً أو شبه تام، وأصبحت مملكة النوبة العربية الإسلامية مملكة مستقلة تماماً، ولكن عوامل داخلية وخارجية أدت إلى ضعف بنى كنز والقضاء عليهم نهائياً ومن هذه العوامل الصراع على السلطة الذي قام داخل الأسرة الكنتزية الحاكمة، وأتاح هذا الصراع الفرصة لسلاطين المماليك كى يتدخلوا في شئون دولة بنى كنز الداخلية ويعملوا على إضعافها؛ يضاف إلى ذلك منافسة القبائل العربية التى هاجرت إلى أسوان والنوبة ومنازعتهم لبنى كنز في النفوذ والسلطان، وجاءت الضربة القاضية لدولة بنى كنز على يد الأتراك العثمانيين، فبعد أن فتح العثمانيون مصر أرادوا أن يدعموا نفوذهم في بلاد الصعيد والنوبة، فأرسل السلطان سليم الأول عام ١٥٢٠ حملة لفتح هذه البلاد، ونجح القائد العثماني في انزال الهزيمة ببني كنز، وحاول الفونج حكام سنار أن يضموا هذه البلاد إلى حكمهم وأرسلوا جيشاً لتحقيق هذا الهدف ولكنهم هزموا وانسحب الفونج إلى بلادهم في وسط السودان ولم يعد لبني كنز دولة منذ ذلك التاريخ، وإن ظل وجودهم كقبائل ومشيخات مستمراً حتى تم فتح هذه البلاد على يد إسماعيل بن محمد على باشا عام ١٢٣٦هـ - ١٨٢٠ م. ثم ظهر السودان بشكلة السياسي الذي نراه الآن^(١)

٢- سلطنة الفونج الاسلامية في سنار

٩١٠-١٢٣٦هـ / ١٥٠٥-١٨٢٠م

ظهرت نواة إمارة الفونج بعد انتهاء القرن ١٣م عقب القضاء على مملكة «مقرة»

(١) الموسوعة الإفريقية - المرجع السابق - ص ٢٢٦-٢٣٨.

المسيحية، وتسرب العرب على نطاق واسع إلى مملكة «علوة» المسيحية واتسع نطاق الإمارة غرباً ووصل إلى أطراف منطقة الجزيرة وأملاك «علوة» في الشرق، واستطاعت هذه الإمارة القضاء على مملكة «علوة» المسيحية عام ١٥٠٥ م، وأقامت مملكة العبدلاب التي سيطرت على القسم الشمالى من البلاد وامتد ملكها حتى بلاد دنقله، ولكنها كانت تدين بطاعة اسمية إلى سلطنة الفونج ثم استقلت عنها عام ١٧٧٠ م - حينما ضعف الفونج - . قامت مملكة الفونج الإسلامية واتخذت مدينة سنار عاصمة لها، وامتد نفوذها من النيل الأزرق إلى النيل الأبيض بما يضمّان أرض الجزيرة، وامتد نفوذها الاسمى على البلاد حتى دنقله. بلغت هذه السلطنة أوج مجدها طيلة القرن ١٨ إذ امتدت رقعتها من الشلال الثالث إلى النيل الأزرق ومن البحر الأحمر إلى كردفان، غير أنه قبيل نهاية ذلك القرن ظهرت عوامل الضعف في السلطنة عندما دب الخلاف بين الأسرة الحاكمة واستبداد الوزراء والقواد، وبدأت الانقسامات الداخلية والحروب الأهلية تزيد في انحلال الأسرة الحاكمة حتى ابتلعهم الفتح المصرى في النصف الأول من القرن ١٩ في عهد محمد على، وقد ظهرت هذه الدولة أول ما ظهرت في مظهر إسلامى واضح، واستهلت حياتها الأولى بالمساهمة في حركة الجهاد الإسلامى بمشاركة العرب. المسلمين في القضاء على مملكة «علوة» المسيحية، وبذلك تدفق الإسلام في وسط السودان ومنه إلى الجنوب والغرب، كما شارك الفونج في حركة الجهاد في شرق إفريقيا حينما شاركوا أحمد القرين في حركة جهاده في بلاد الحبشة، وأسهموا في محاربة الوثنيين في داخل السودان نفسه وحاربوا أهل جبال النوبا بسبب إغاراتهم على كردفان، واستمروا في حربهم زمناً طويلاً حتى انتشر الإسلام في حركة الجهاد الإسلامى ضد الأحباش في القرن ١٨ لم يسهم الفونج في نشر الإسلام عن طريق الجهاد فقط وإنما استعانوا بالوسائل السلمية، فقد كان لسلطنة الفونج اتصال بدارفور وبالباشا التركى في موانى البحر الأحمر في سواكن ومصوع، واتصلوا كذلك باليمن وغيره من الأقطار الإسلامية، وكانت العاصمة سنار المركز العلمى الذى تطلعت إليه جميع مناطق السودان النيل شرقاً وغرباً، وكان العلماء من المناطق النائية يرحلون إلى ملوك الفونج وزعمائهم ويعيشون إلى جوارهم وينالون الإقطاعات الواسعة مما دفع الحركة الإسلامية دفعة كبيرة في عهد هذه السلطنة^(١)

سلطنة دار فور الإسلامية

٨٤٩-١٢٩٢هـ / ١٤٤٥-١٨٧٥م

بلاد دار فور عبارة عن هضبة تنتشر فيها المراعى تتخللها بعض المرتفعات ويتألف سكانها

(١) الموسوعة الإفريقية - المرجع السابق - ٢٣٩.

من العنصر الزنجي، وفي القرن ١٢م دخل هذه البلاد عنصر مغربي ربما كانوا من المغاربة الذين تركوا بلادهم هرباً من غارات بنى هلال في شمال إفريقيا. وقد تزاح هؤلاء مع أهالي البلاد وصاهروهم ونتج من هذا الاختلاط جنس مختلط يُسمى شعب (الفور) كان أول سلاطينها المولدين أحمد المعقور الذي تزوج من ابنة ملك دارفور الوثني الذي عينه خليفة له، وورثه المعقور وأسس أول سلطنة إسلامية في دارفور. على أن دارفور لم تدخل الإسلام إلا في عهد أحد ملوكها هو سليمان سولون الذي جاء من سلاسة أحد الهجرات العربية التي وفدت إلى دارفور منحدره من وادي النيل في القرن ١٥م. اعتلى سليمان سولون عرش دارفور ١٤٤٥-١٤٧٦، فتح البلاد للهجرات العربية فانتشر الإسلام في ركاب هؤلاء العرب المهاجرين إلى دارفور واصطبغت السلطنة بالصبغة الإسلامية. أخذت السلطنة تتسع فامتد سلطانها على كردفان وبلغت أقصى اتساعها في عهد سلطانها تيراب ١٧٧٨-١٧٩٩ الذي نقل العاصمة إلى الفاشر، واتصل بالسلطان العثماني واعترف بسيادته فمنحه السلطان لقب الرشيد، وامتد نفوذ السلطنة إلى مملكة وادي، وكان من الممكن أن تتسع أكثر لولا التوسع المصري الذي ضم دارفور إلى الممتلكات المصرية عام ١٨٧٤، ولكن هذا الإلحاق بالسودان، لم يدم طويلاً لأنه بعد الثورة المهدية انفصلت دارفور عن السودان، ولم يستمر هذا الانفصال سوى ١٧ سنة إذا قرر الإنجليز إنهاء هذه السلطنة واستعانوا بالقبائل العربية هناك وسلحوهم واستخدم كذلك سلاح الجو البريطاني حتى تم الاستيلاء على سلطنة دارفور وأدجت في إطار السودان مرة أخرى عام ١٩١٦م^(١).

السودان في القرن التاسع عشر

(١) فتح السودان

منذ القرن السادس عشر كان للدولة العثمانية حقوق في السيادة على السودان وعلى الحبشة، واتسعت هذه السيادة وتدعمت عندما بدأ المصريون فتوحاتهم السودانية باسم السلطان العثماني في مطلع القرن ١٩، وكان من عوامل إرسال الحملات المصرية هو رغبة أهل السودان أنفسهم إنشاء حكومة قوية على يد مصر تقضي على أسباب الفوضى المنتشرة في بلادهم، فدخلت أقاليم النوبا وسنار وكردفان طوعاً في حوزة مصر ١٨٢٠-١٨٢٣، ومن هذا التاريخ بدأ تأسيس وحده وادي النيل السياسية، كما بدأ بسط السيادة على الوادي بأسره وتقريب حقوق السيادة هذه لمصر^(٢).

طلب محمد علي باشا والي مصر من السلطان العثماني إن يأذن له في فتح السودان، ووافق

(١) الموسوعة الإفريقية - المرجع السابق - ص ٢٤٣.

(٢) مصر والسودان - تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر / د. محمد فؤاد شكرى / مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ص ٧-٨.

السلطان العثماني محمود الثاني أن يفتح محمد على مايشاء من اقاليم السودان شريطة أن يحدث هذا باسم السلطان العثماني. وعندما بدأت العلاقات بين محمد على ومحمود الثاني سلطان تركيا تسوء، وتدخلت الدول الأوروبية لإنهاء هذا النزاع المصري العثماني كان البت في مصير السودان أهم الموضوعات التي شغلت محمد على وكان صوت وحدة وادى النيل السياسية كل ما عني به الحاكم المصري في هذه الأزمة. فقد كان محمد على يعتبر الأقطار السودانية جزءاً من الأقطار المصرية تسرى فيها جميعاً نظم واحدة ويجرى الإنفاق عليها من خزينة واحدة. ومن الثابت أن مصر على أيامه أنفقت بسخاء على السودان وإنعاش الحياة الاقتصادية به وتعليم وابنائهم وتدريبهم على حكم انفسهم بانفسهم مما ساء المعاصرون الأجانب الذين زاروا السودان في ذلك الحين مبدأ إشراك العناصر الوطنية في شئون الحكم والإدارة أى أن السودان شهد العمل بما صار يعرف باسم (السودنة) في الاصطلاح الحديث

لذلك عندما شرعت الدول تعمل لوضع تسوية للمسألة المصرية ١٨٤٠-١٨٤١ كان من أركان التسوية فرمان الصادر في ١٣ فبراير ١٨٤١ م الذي أعطى محمد على - مدى الحياة - حكومة النوبة وسنار وكردفان ودارفور وجميع ملحقاتها، فكان هذا فرمان الوثيقة الأولى التي دعمت حقوق مصر في السيادة على شطر الوادى الجنوبي وبموافقة الدول.

كان محمد على مؤسس مصر الحديثة يطمح في توسيع رقعة مصر، وبما أن مصر تحدها الصحراء من الشرق والغرب فكان جنوب البلاد هو الرقعة التي وقع عليها اختيار محمد على أن يتوسع فيها. وفي عام ١٨١٠ غادر جيشه بقيادة أحد أبنائه باتجاه السودان، ولم يستطع رؤساء الإمارات المحليون مواجهة فرق الوالى، وهكذا في غضون سنة واحدة تم الاستيلاء على كل المنطقة والحقت بمصر التي كانت رسمياً ولاية من ولايات الدولة العثمانية، ولهذا السبب تُسمى هذه الفقرة من تاريخ السودان بالفترة التركية.

اتصف النظام الذى أسسه محمد على فى السودان بجباية قاسية للضرائب الثقيلة مما عمق الكراهية فى قلوب السودانيين ودفعهم فيما بعد إلى دعم الثورة المهدية. وتعزز هذا الشعور عندما عين موظفين أوروبيين ومسيحيين عاثوا فساداً فى الأقاليم بحجة محاربة تجارة الرقيق، وأصبحت السيطرة على السودان عبئاً مما جعل ابنه الخديو سعيد ١٨٥٤-١٨٦٣ يفكر فى التخلص منه.

وازدهرت تجارة الرقيق فى ظل حكم حفيد محمد على الخديو إسماعيل الذى غلبت

طموحاته في السودان على طموحات جده فأرسل الحملات العسكرية إلى دارفور، وضم مقاطعتين في جنوب السودان هما بحر الغزال والمقاطعة الاستوائية، ولكن هذه الحملات أخفقت وقام أحد تجار العبيد «الزبير رحمة منصور» في بحر الغزال بشق عصا الطاعة فاضطر الخديو إسماعيل للخضوع للأمر الواقع ووافق عام ١٨٧٣ على تعيين الزبير حاكمًا لهذه المنطقة. أما المنطقة الاستوائية فقد عهد إسماعيل للسير صمويل بيكر الإنجليزى بالقيام بحملة للاستيلاء عليها وضمها لمصر. وتولى بعد صمويل بيكر جورج غوردون الذى أصبح حاكمًا للمقاطعة الاستوائية عام ١٨٧٤ ثم صار حاكمًا عامًا على كل السودان ١٨٧٧ وكان الخديو إسماعيل في هذا التوسع يعمل لحساب الإنجليز ويستعين بقيادات منهم تقود جيشه المصرى وسلم لهم إدارة السودان. وسع غوردون مساحة المنطقة الخاضعة للحكم المصرى حتى وصل إلى منطقة تبعد مسافة ١٠٠ كيلومتر من بحيرة فكتوريا، وكان غوردون يعتقد أن جنوب السودان لا يمكنه أن يتطور إلا إذا ارتبط بالمحيط الهندي، ونزولاً على رغبته نظم الخديو حملة نحو ممباسا على الساحل الشرقى لإفريقيا، ولكنها منيت بالفشل لأن الحكومة دافعت عن السلطان زنجبار ضد طموحات خديو مصر^(١).

عزل إسماعيل عام ١٨٧٩ ونفى بعد إبعاده المالى، وتفاقت حركات التمرد في كردفان ودارفور بسبب سوء الأوضاع الاقتصادية ونفور المواطنين من الحكام الأوربيين الذين ولاهم خديو مصر. وهكذا كان الوضع في السودان عندما ظهر الزعيم الروحي محمد أحمد المهدي في جزيرة أبا عام ١٨٨١.

(٢) المقاومة الوطنية (الثورة المهدية)

كانت حركة المهدي التي تعرف باسم الثورة المهدية معركة نضالٍ ثورية أساسها جهاد وحرب مقدسة منذ الحكم التركي الذي ولى عليهم أجانب مسيحيين، ثم تطورت الحركة من حركة احتجاج ديني إلى دولة قوية مناضلة سيطرت على السودان مدة أربعة عشر عامًا. كما كان من أسباب الثورة المهدية أيضًا عوامل نجمت عن أخطاء الإدارة الخديوية التي ولدت شعورًا عامًا بالاستياء أدى إلى خلق رغبة الانتقام، وأدت الضرائب الباهظة التي فرضها عمال الخديو وقاموا بجمعها بالقوة إلى خلق شعور عام بالسخط بالإضافة إلى محاولات الحكومة قمع تجارة الرقيق إلى إثارة عدا بعض السودانيين في المنطقة الشمالية لأن هذا القمع كان يمثل ضربة إلى

(١) تقسيم إفريقيا - المرجع السابق - ص ١٠١.

مصدر هام للثروة وأساس الاقتصاد المنزلى والزراعى فى البلاد بالإضافة إلى ضعف الحكومة المركزية فى مكر الخديوية ذاتها فى القاهرة.

عند مجئ الحكم الخديوى فى مصر إلى السودان كان المجتمع السودانى إقطاعيًا تتوزع فيه الأرض والسلطة بين عدد من السلاطين والرؤساء والزعماء لا يربط بينهم أى رابط ومع أن الملوك الفونج استطاعوا تأسيس مملكة سنار، وكذلك فعل سلاطين الفور فى دارفور من أواخر القرن ١٥ وأوائل القرن ١٦ إلا أن سيطرة هؤلاء السلاطين على الرؤساء والزعماء المجاورين لهم كانت ضعيفة، وظل هذا تشكيل المجتمع السودانى حتى الفتح المصرى.

وعندما جاء المصريون إلى السودان أدخلوا تغييرات كبيرة على أنظمة الحكم، فأنشأوا جهازًا للحكم والإدارة يقوم على مركزية تجمع السلطنة فى يد حكومة الخرطوم ومعنى هذا إنهاء الزعامات المحلية، وأنشأوا نظامًا ضريبًا تحدت بمقتضاه فئات الضرائب التى فرضت على الأرض وطرق جبايتها.

وبالنسبة لإلغاء الرق، فإن الخديوية تحت الضغط السياسى من الخارج خصوصًا بريطانيا، استبدلت بدلًا من الأسلوب البطئ فى معالجة مسألة الرق وتجارة الرقيق سياسة الإلغاء العنيفة للقضاء عليه بالحديد والنار مما أدى إلى انتشار التذمر والسخط بين تجار الرقيق وانضم هذا العامل إلى سخط سواد الشعب الذى أثقل كاهله عبء الضرائب الجائرة؛ الأمر الذى جعل هذا التذمر والسخط عظيم الخطر على النظام القائم، وصار لدى الأهالى وتجار الرقيق رغبة واحدة هى طرد الحكم الخديوى المصرى من السودان.

مهدت الثورة العربية فى مصر (سبتمبر ١٨٨١) لقيام الثورة المهدية فى السودان؛ وذلك أن الثورة العربية جعلت من المتعذر على حكومة مصر توجيه عنايتها بشئون السودان أو إرسال نجدات عسكرية إلى قوات الحكومة السودانية لصد اتباع محمد أحمد المهدي فى جزيرة آبا، وكان لذلك أثر بالغ على انتشار ثورة المهدي فى السودان، وانتقلت من حركة تدمر إلى ثورة عارمة ومسألة خطيرة تتطلب التفريغ لعلاجها بسرعة وحزم وقوة للإبقاء على وحدة وادى النيل والمحافظة على السودان، وهذه المشكلة كانت أولى المشكلات التى واجهها الاحتلال البريطانى فى مصر ١٨٨٢.

السياسة البريطانية فى السودان

سلكت السياسة البريطانية فى السودان ثلاثة وجوه هى: أولاً عدم التدخل، ثم الضغط على مصر لإخلاء السودان، وثالثًا استرجاع السودان بالقوة واحتلاله.

الوجه الأول (سياسة عدم التدخل):

كان موقف الحكومة البريطانية في البداية هو عدم التدخل في السودان، وأن يُترك للحكومة المصرية «بقدر الإمكان» أن تتخذ وحدها الإجراءات التي تراها ضرورية لإخلاء الثورة في السودان بدون مساعدة أو مشاورة حكومة صاحبة الجلالة فلا يجب أن تتدخل الحكومة البريطانية في هذه المسألة أو تتحمل بسببها أية مسئولية حتى إذا اتضح في المستقبل أن الإجراءات التي اتخذت بناء على مشورتها لم تكن مجدية لانتجدة إنجلترا نفسها مسوقه إلى القيام بعمليات عسكرية في السودان، ومع ذلك لم يكن هناك مناص من أن يعترف الاحتلال البريطاني في مصر بوجود مشكلة سودانية لابد من مواجهتها سريعاً، وأن علاج الموقف يقتضى الاحتفاظ بقسم من الأقاليم السودانية والتخلى عن قسم آخر، فقد كان واضحاً أن الاحتفاظ بكل ممتلكات مصر في السودان يحتاج إلى تجهيز إمدادات عسكرية تُرسل إلى السودان للمعاونة على إخماد الثورة. كما كان واضحاً أيضاً أنه إذا تعثر وجود القوات العسكرية التي تكفى للمحافظة على كل أقاليم السودان فلا أقل من أن تتمسك حكومة الخديوية ببعض الأقاليم وتدافع عنها وهى أقاليم وسط السودان لإبعاد الخطر عن الحدود المصرية ذاتها.

كان رأى البريطانيين أن تتخلى الحكومة المصرية عن مديريات فاشوده وكردفان ودارفور، وفيما يتعلق بمديرية بحر الغزال وخط الاستواء أن يُكتفى بدلاً من الإدارات الحكومية بوكالة تجارية، وعدم إرسال أية حملات ضد المهدي في كردفان ولكن لم يكن في وسع الحكومة البريطانية إقناع المصريين بالتخلى عن أجزاء من السودان. وأرسلت مصر حملة بقيادة الكولونيل هيكس إلى الخرطوم للعمل على إخماد الثورة في سنار وإقصاء الثوار فيها واتخاذ التدابير التي يمكن بها وقاية الخرطوم وتنظيم الدفاع عنها ضد المهديين، وأوقع هيكس بثوار سنار هزيمة بالغة، وشجع هذا الانتصار حكومة الخديوى في القاهرة الدخول في عمليات عسكرية على نطاق واسع ضد الثورة، وإرسال حملة كبيرة لمطاردة المهدي في كروفان بالرغم من أن هذه الحملات كانت تتكلف نفقات طائلة ولا يوجد المال اللازم لها، كما كانت تحتاج إلى جيش مدرب ومزود بالمؤن والذخيرة والأسلحة ولا يوجد مثل هذا الجيش في السودان.

لم تحاول الحكومة البريطانية بما لديها من سلطة الاحتلال أن تثنى المسئولين المصريين عن عزمهم مع إدراكها أن إمكانيات أو عوامل النجاح غير متوفرة، أو تحول دون إرسال الحملة إلى كردفان تلك الحملة المشؤومة التي أبيدت عن آخرها وترتب على إبادتها انتشار الثورة في

كل انحاء السودان^(١). خرجت حملة هيكس المكونة من ثمانية آلاف مقاتل من السودانيين والمصريين من الخرطوم وتعقبها جواسيس المهديين في حين غادر المهدي الأبيض للقاء الحملة في شيكان، كان التعب والجوع والخوف والعطش قد أنهك قوى جيش هيكس برمته، وفوجئ هيكس برمته، وفوجئ هيكس بأنصار المهدي يحيطون به من كل جانب فانهمز وأبىد جيشه ولقى هيكس حتفه ولم ينج إلا ملازمان ونحو ثلاثمائة جندي اختبأوا بين الأشجار وسجل انتصار شيكان كسبًا عظيمًا للمهدي وثورته. كان لهزيمة هيكس في واقعة شيكان ١٨٨٣ تأثير فاصل على الموقف في السودان فقد نتج عنها أن صار المهدي يتمتع بالسيطرة التامة جنوب الخرطوم وانضم إليه ألوف السودانيين الذين كانوا يترددون قبل هذا النصر في قبول دعوته والإيمان به ثم وجه المهدي ضربته الثانية في السودان الشرقي بقيادة عثمان دقنه الذي أحرز انتصارات عديدة ضد قوات الحكومة وأصبح يهدد موانئ البحر الأحمر التي كان الإنجليز قد تعهدوا بالدفاع عنها، حاول البريطانيون أن يتدخلوا ولكنهم لم يحققوا نجاحًا يذكر، وأصبح الأنصار التابعون للمهدي يسيطرون على السودان الشرقي برمته باستثناء ميناء سواكن، ومنعوا مرور الإمدادات والتعزيزات المرسلة من مصر إلى الخرطوم عن طريق بربر - سواكن^(٢).

الوجه الثاني للسياسة البريطانية «إخلاء السودان»

كشفت هزيمة هيكس عن موضع الضعف في سياسة الحكومة البريطانية نحو مسألة السودانية بالابتعاد عن التدخل في شئون السودان والابتعاد عن تحمل أية مسئوليات تترتب على القرارات التي تتخذها الحكومة المصرية لاختاد الثورة المهدية واسترجاع نفوذها المفقود في السودان، والامتناع عن إرسال جنود بريطانيين لنجدة القوات المصرية في الحاميات المبعثرة وكيف أسفرت هذه السياسة عن هزيمة هيكس وإبادة جيشه في غابة شيكان، وأدت هذه الحقيقة إلى تغير في موقف الحكومة البريطانية ولم يعد في وسعها أن تتخذ موقفًا سلبيًا ليس من السودان وحده بل ومن مصر أيضًا، فبعد ما كانت تدعى الانسحاب من مصر لم تلبث أن أعلنت أنه توافرت عوامل عديدة لإطالة الاحتلال في مصر إلى أجل غير مسمى، وكان استمرار ثورة المهدي وسيطرة الدراويش في السودان وتهديدهم لحدود مصر الجنوبية من الأسباب التي تدرع بها الإنجليز لبقاء الاحتلال وأنه لا مناص من التدخل في شئون السودان^(٣).

(١) مصر والسودان - المرجع السابق - ص ٢٩٠.

(٢) تاريخ إفريقيا العام - المرجع السابق - ص ٩٣.

(٣) مصر والسودان - المرجع السابق - ص ٢٩٩.

اتخذ «التدخل» وهى المرحلة الثانية من مراحل السياسة البريطانية بأن أوصلت الحكومة المصرية بالتخلى عن السودان فى حدود معينة، وكان المطلوب من مصر أن تتخلى عن البلاد الواقعة إلى الجنوب من وادى حلفا، ولكن سياسة التخلي عن السودان كانت تتعارض تعارضاً تاماً مع سياسة الحكومة المصرية التى لم تكن تفكر بحال من الاحوال عن التخلي عن هذه الأقاليم أو إخلائها.

ولكن بهزيمة هيكس قررت الحكومة المصرية أن تجل الحاميات من دارفور وبحر الغزال وخط الاستواء وتنسحب جميعاً إلى الخرطوم لتقوية حاميتها هناك، وأن تبقى فى سنار مؤقتاً الحامية الموجودة بها حتى يمكن امداد الخرطوم بالمؤن من سنار، وأن يعاد فتح الطريق بين بربر وسواكن بالرغم من أن القوات المصرية نالت هزائم من أنصار المهدي فى السودان الشرقى حتى باتت سواكن نفسها مهددة بالسقوط فى أيدي دراويش المهدي.

ولكن الحكومة البريطانية رفضت ذلك وأبرقت إلى الحكومة المصرية بضرورة التخلي عن البلاد الواقعة جنوب وادى حلفا، وأكدت البرقية رغبة بريطانيا أن يستتب الأمن والنظام فى مصر، والدفاع عن مصر ضد أى اعتداءات خارجية عليها، ثم حماية موانئها على البحر الأحمر.

اعترض رئيس وزراء مصر شريف باشا على ذلك وقرر الاحتفاظ بحوض النيل حتى الخرطوم، وقبل التخلي عن الموانئ الواقعة على البحر الأحمر باعتبار أن هذه الموانئ إنما بهم أمرها بريطانيا أكثر مما بهم المصريين، واعتبر شريف أن سياسة الإخلاء (أو التخلي عن السودان) يعرض الحدود المصرية لهجوم الدراويش، وسوف يتطلب الدفاع عن هذه الحدود أن يزيد البريطانيون عدد جنود الاحتلال فى مصر، وطالما بقيت حدود مصر معرضة لهذا الهجوم ولا أمل بعد التخلي عن السودان فى القضاء على قوة المهدي فإن الاحتلال البريطانى سوف يبقى. كان واضحاً أن شريف باشا وسواد المصريين يرون فى التخلي عن السودان فخاً ينصبه البريطانيون ليجعلوا احتلالهم لمصر ذاتها أبدياً.

أصر رئيس الوزراء المصرى على موقفه وقدم استقالته لخديو مصر الخديو توفيق فقبلها على الفور قائلاً «إنه يقبل بإخلاص سياسة التخلي عن السودان بأسره؛ الأمر الذى يعتقد بعد تفكير عميق أنه خير ما يكون لصالح البلاد، وأنه يثق تماماً فى أن أى نصيحة تسديها جلالة ملكة إنجلترا إنما هى لصالح مصر الخالص» وكلف نوبار باشا بتأليف الوزارة الذى ارتضى بسياسة التخلي عن السودان واستبقاء سواكن.

وبتشكيل وزارة نوبار على أساس فكرة الجلاء عن السودان يكون قد انقضى في يناير ١٨٨٤ دور السياسة السلبية التي اتبعتها بريطانيا في مسألة السودان. فقد أرغمتها هزيمة هيكس في شيكان أن تنبذ سياستها السلبية وأن تتدخل تدخلًا فعليًا ولما كانت الحكومة البريطانية ممتنعة عن استخدام جنود بريطانيين أو هنود لمعاونة المصريين على الاحتفاظ بالخرطوم والأقاليم التي لا تزال في حوزتهم، فقد تمثل التدخل أو «الدور الإيجابي» الذي قرره الحكومة البريطانية في إسداء النصيحة إلى الحكومة المصرية بإخلاء السودان. وكانت سياسة التخلي تقتضي إخلاء الخرطوم من الحامية التي فيها ثم سحب الحاميات المصرية المبعثرة في السودان. وتلك كانت مهمة شاقة من حيث ترتيب عملية الإخلاء من اختيار الطريق المناسب للانسحاب، وتأمين المواصلات وتوفير المؤن وحراسة المنسحبين، وعهد بهذه العمليات للجنرال غوردون.

عندما علم المهدي بقرار الحكومة المصرية بإخلاء السودان وأن تصبح حدوده منكشمة في الجنوب إلى وادي حلفا أخذ يدعو للانضمام اليه الذين لم يرغبوا أصلاً في الانضمام إلى الثورة، فقد جعلهم الخوف من التعرض لغضب المهديين بعد انسحاب مصر يبادرون إلى الانضواء تحت لوائه.

الخطأ في تقدير حقيقة الثورة:

أخطأ غوردون في فهم حقيقة الثورة في السودان، كما أخطأ في تقدير قوة الثورة والاستهانة بها؛ الأمر الذي جعله يفشل في مهمته التي انتهت بقتله. حاصر الدراويش الخرطوم وقطعوا كل اتصال لها بالخارج حتى عجز غوردون عن توصيل اخباره إلى حكومته، واستمر هذا الحصار الشديد طيلة خمسة أشهر وفي ٢٥ يناير ١٨٨٥ هاجم الدراويش الخرطوم وسقطت العاصمة في أيديهم، واستمر اقتتال راح ضحيته ٣٥ ألف من أهالي الخرطوم، وكان من بين القتلى الجنرال غوردون نفسه. بعد مقتل غوردون وسقوط الخرطوم قررت الحكومة البريطانية إبطال كل العمليات العسكرية في السودان والانسحاب من هذه البلاد نهائيًا بعد أن تأكدت من أن استمرار العمليات العسكرية بعد سقوط الخرطوم - صارت منهارة ولكن سرعان ما تُوفي المهدي بصورة مفاجئة بعد أشهر قليلة من ٢٥ مايو ١٨٨٥، ويمكن القول إن فترة المهدي أو السنوات الأربعة الأولى للثورة من ١٨٨١ إلى ١٨٨٥ تطورت الحركة المهدية من حركة احتجاج ديني إلى دولة قوية مناضلة سيطرت على السودان لمدة ١٤ عامًا.

أدى سقوط الخرطوم إلى ضياع سائر ما كانت تسيطر عليه مصر في السودان باخلاتها

والجلاء عنها ووقعت في يد المهديين والدول الأجنبية المتنافسة المتسابقة على امتلاك إفريقيا واقتسامها فيما بينها، ففقدت مصر سيطرتها في بحر الغزال وسنار ودارفور وخط الاستواء، وفي شرق السودان وفي ساحل البحر الأحمر والصومال وهرر بينما احتل الأحباش مقاطعة باغوص وهرر واقتسم الإنجليز والفرنسيون والطيالان الصومال فيما بينهم، وتوغل الإنجليز في أوغندا والفرنسيون والبلجيكي في إقليم بحر الغزال حتى وصلوا إلى حوض النيل الأعلى في السنوات التالية فكان عهد سيطرة المهديية عهد اقتسام ماتسيطر عليه مصر في السودان، إذ لم يستطع الخليفة عبد الله التعايشي الذي خلف محمد أحمد المهدي الاحتفاظ بتلك الإمبراطورية التي أسسها المصريون في خلال ستين عامًا في شرق ووسط إفريقيا

حكومة عبد الله التعايشي:

كانت حكومة عبد الله التعايشي أول وآخر حكومة أقامتها «المهديية» في السودان واستمرت ثلاث عشرة سنة (١٨٨٥ - ١٨٩٨) نجح خلالها في السيطرة على الحكم وإقامة جهاز حكومي أمكن أن يؤدي الخدمة المطلوبة منه طوال عهده، ولكن الأحداث التي وقعت في إمارته الداخلية جعلته يعجز عن مواجهة الخطر الخارجي، كما جعله انصرافه إلى القضاء على خصومه ومنافسيه في الداخل لتأسيس سيطرته المطلقة جعله يضطر إلى إخلاء أقاليم بأكملها وهي الأملاك التي ورثها من العهد المصري في الجنوب بمديرية خط الاستواء وبحر الغزال ودارفور وسواكن، واستطاعت الدول الأجنبية الطامعة فيما كانت تسيطر عليه مصر في خط الاستواء وبحر الغزال وساحل البحر الأحمر وهرر والصومال استطاعت الاستيلاء عليها دون أن يحرك الخليفة ساكنًا للمحافظة عليها أو الدفاع عنها فشهد عهده اقتطاع أطراف الإمبراطورية المصوية في السودان لحساب إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وبلجيكا، وتسابق الاستعمار الأوروبي للتوغل في أطراف السودان المصري للسيطرة على منابع النيل وروافد الأستوائية، وعجزت حكومة التعايشي عن إنشاء «دولة» تعترف الدول بكيانها وتحترم حقوق السيادة التي ينبغي أن تكون لها داخل حدودها.

كان من أسباب فشل الخليفة التعايشي دخوله في مغامرات الحروب على حدوده الشمالية مع مصر، وعلى حدوده الشرقية مع الحبشة دون أن يحسن تقدير القوة التي عليها خصومه أو يزن الآثار التي تترتب على هزيمته.

كان وادي حلفا آخر المراكز في الحدود المصرية التي قررت سلطات الاحتلال في مصر

الانسحاب منها، وعلى مسافة ثلاثين ميلاً جنوب حلفا امتدت منطقة تفصل آخر مراكز الحدود المصرية التي هي أول مراكز المهديين في الشمال، وهذه المنطقة استمرت مسرحاً لمناوشات حدودية متعددة وحاولت سلطات الاحتلال التفاوض مع المهديّة، وكان في وسع الخليفة التعايشي تأمين حدوده من ناحية مصر دون الدخول في حرب معها لوقبل هذا التفاوض ولكن بآت المحاولة بالفشل وبقي الخليفة مصمماً على غزو مصر.

وفي أكتوبر ١٨٨٦ خرج جيش الدراويش بقيادة «عبد الرحمن النجومي» قاصداً حدود مصر فوصل إلى دنقلة، وبدأوا يشنون الغارات على نقاط الاستحكامات المصرية حتى وصلوا إلى توشكى وهناك وقعت معركة توشكى الحاسمة التي انهزم فيها الدراويش وقتل فيها عبد الرحمن النجومي نفسه وبهذه المعركة تحطمت نهائياً آمال الخليفة عبد الله التعايشي في مصر.

كذلك لم يكن الخليفة أكثر توفيقاً في شرق السودان. وكانت سواكن المركز الذي قربت سلطات الاحتلال البريطاني الاحتفاظ به في شرق السودان، وقد حاولت بريطانيا أن تثني الخليفة عن سواكن، ولكن الخليفة كان يطمح في هذا الميناء لتنمية التجارة من ناحية، ولأن سواكن طالما بقيت فيها قوات انجليزية - مصرية سوف تبقى دائماً مركزاً للوثوب منه على حكومة الخليفة وتهديدها. حاول الدراويش محاصرة الطرق المؤدية إليها وتركزوا في طوكر التي تقع في جنوب سواكن في الطريق بين الخرطوم والساحل وهي التي كان يعتمد المهديون عليها في تموين جيوشهم في السودان الشرقي وكانوا يدركون أنه إذا خرجت من أيديهم اضطروا إلى التخلي عن السودان الشرقي بأكمله.

ترتب على انتشار الدراويش حول سواكن ووجود طوكر في أيديهم أنه صارت السلطات في سواكن تواجه مشكلة خطيرة فبالإضافة إلى عدم استمرار المعاملات التجارية بين سواكن والساحل فقد نال ذلك من سمعة إنجلترا ومصر اللتين بقيتا مكتوفتي الأيدي تعجزان عن الحركة وترضيان بقاء قواتهما محصورة في سواكن لذلك لم يكن هناك مفر من الهجوم على طوكر. وكانت معركة طوكر هي المعركة الفاصلة في تاريخ شرق السودان فبعد سبع سنوات من سقوطها في أيدي الدراويش نجحت السلطات الحكومية المصرية الإنجليزية في سواكن من الاستيلاء عليها، وحقت للسودان الشرقي ما حققته واقعة توشكى لوادي النيل. هدأت بعد هذه الواقعة الأمور في السودان الشرقي مدة ثلاث سنوات حتى ظهر عدو جديد في المنطقة هم الطليان الذين كان نشاطهم هو الذي جعل الحكومة البريطانية تقرر استرجاع السودان - وقصة

الخطر الإيطالي. في السودان الشرقى إنما هو جزء من قصة اقتسام أملاك مصر في السودان على يد الدول الأجنبية والتي عجزت حكومة الخليفة عبد الله عن الدفاع عنها والاحتفاظ بها.

اقتسام ما كان مع مصر في السودان :

كانت الدول التي اقتسمت السودان بعد خروج الجيش المصرى منه هى إنجلترا وفرنسا وإيطاليا والحبشة بين أعوام ١٨٨٢-١٨٩٢، كما استطاع ليوبولد ملك البلجيك أن يصل بحدود «ولاية الكونغو الحرة» التي أنشأها في إفريقيا الوسطى الغربية إلى ما كان يتبع مصر في مديرية خط الاستواء. أسس الطليان مستعمرة إريتريا على أنقاض ما كان يتبع مصر في السودان الشرقى وساحل البحر الأحمر، واستولت الحبشة على هرر، وأنشأ الفرنسيون مستعمرة الصومال الفرنسى عند باب المندب، بينما أنشأ البريطانيون مستعمرة الصومال الإنجليزى التي تطل على ميناء عدن، وتمكن ليوبولد ملك البلجيك من استئجار «حاجز لادو» وتاريخ إنشاء كل هذه المستعمرات هو قصة ضياع هذه البلاد لامن مصر بل من أبنائها أيضًا وقد قسمت أراضي الساحل الصومالى على النحو التالى:

أ- ما كان يتبع مصر في الساحل الصومالى

١- الصومال الإنجليزى : تألف من المنطقة التي تضم موانى زيلع وبلهاروبربر على خليج عدن التي استولى عليها الإنجليز منذ أخلاها المصريون بين أعوام ١٨٨٥-١٨٩٨ وكانت بريطانيا أبلغت الدول الأخرى في يوليو ١٨٨٧ أن الساحل الصومالى ابتداء من جيبوتى إلى بندر زيادة قد وضع تحت الحماية البريطانية، ولم تعترض أى من الدول على هذا التبليغ.

٢- الصومال الفرنسى: تأسست هذه المستعمرة من إمتلاك الفرنسيين لميناء أوبوك والمنطقة المجاورة الواقعة على خليج عدن. تنازع الفرنسيون والإنجليز على الحدود بين الصومالين، وأسفر النزاع عن عقد اتفاق انجليزى فرنسى في فبراير ١٨٨٨ اعترف فيه الفرنسيون بحماية الإنجليز على ساحل الصومال حتى بندر زيادة آخر حدود الصومال الإنجليزى نظير اعتراف الإنجليز للفرنسيين بنفوذهم حتى خليج تاجورا.

٣- الصومال الإيطالى: احتل الطليان بقية الساحل الجنوبى لخليج عدن عند آخر حدود الصومال الإنجليزى عند بندر زيادة. في مارس ١٨٩١ أبرم الإنجليز والطليان اتفاقاً لتحديد مناطق النفوذ بينهما.

ب- ما كان تحت الحكم المصرى في بحر الغزال وخط الاستواء

طلت مديريتنا بحر الغزال وخط الاستواء التابعتان للنفوذ المصرى مجهول ما يقع فيهما من أحداث حتى بدأت الشائعات تروج عن وجود أوروبيين لا يعلم أحد عنهم شيئاً في هذه المنطقة وهؤلاء الأوروبيون كانوا هم البلجيكي والفرنسيين في بحر الغزال، والإنجليز والذين أرادوا التوغل في منطقة خط الاستواء، وترتب على نشاط هؤلاء وهؤلاء أن فقدته مصر في هذه الجهات آل لحساب أنجلترا وفرنسا وبلجيكا ونجحت بريطانيا في ديسمبر ١٨٩٠ أن تعقد مع ملك أوغندا (موانجا) معاهدة تضع أوغندا تحت حماية بريطانيا واستماتت بريطانيا في انتزاع أوغندا من منافسيها الفرنسيين والبلجيكي لأنها أدركت أن هذه البلاد هي المدخل الوحيد تقريباً إلى بحيرتي البرت وألبرت إدوار، وتسيطر على مساقط مياه نهر النيل وتعتبر المفتاح الطبيعي لكل حوض النيل وأغنى بقاع إفريقيا الوسطى، فكان معنى السيطرة على أوغندا إستعلاء النفوذ والتفوق التجارى في أغنى أجزاء إفريقيا وأكثرها سكاناً في ذلك الحين وفي إبريل ١٨٩٤ أعلنت بريطانيا الحماية رسمياً على أوغندا.

حاجز لادو:

بعد ما أقام البلجيكي دولة الكونغو الحرة توجهت أطماعهم إلى التوسع شمالاً وشرقاً إلى مديريتى خط الاستواء وبحر الغزال. وفي عام ١٨٩٨ احتل البلجيكي منطقة حاجز لادو وهو منفذ على النيل الأعلى بموجب إيجار يستمر مدة حكم الملك ليوبولد، وعقدت بلجيكا مع بريطانيا اتفاقية أذنت لها باحتلال الحاجز شريطة ألا يعتدوا على بحر الغزال مع احتفاظ مصر بحقوقها في حوض النيل الأعلى، وأدت هذه الاتفاقية إلى حدوث متاعب كثيرة بين البلجيكي وحكومة السودان حتى أمكن تسويتها عام ١٩٠٦ باتفاق نص على إعادة حاجز لادو إلى حكومة السودان خلال ستة أشهر من وفاة الملك ليوبولد وفي يونيو ١٩١٠ أعيدت المنطقة إلى الحكومة السودانية (بعد وفاة ليوبولد)

جـ- ما كانت تسيطر عليه مصر في ساحل البحر الأحمر والسودان الشرقي:

إريتريا وكسلاً: بدأ التغلغل الإيطالي في ساحل البحر الأحمر والسودان الشرقي عندما ابتاعت شركة إيطالية من أحد الشيوخ المحليين منطقة صغيرة في الأراضي الصحراوية بالقرب من ميناء عصب، واحتجت الحكومة المصرية على هذه الصفقة باعتبار أنها متعارضة مع ما لمصر حقوق في السيادة على هذه الجهات. راقب الطليان استفحال الثورة المهدية فبادروا بإرسال قوات عسكرية لاحتلال عصب واحتلوه بالفعل عام ١٨٨٥ وغادرت بقايا الحماية المصرية مصوع عائدة إلى السويس ومالبث أن اشتبك الطليان مع الأحباش ولكن سرعان ما اتفقا على

التصالح لصد جيش الخليفة التعايشى ووقف هجوم الدراويش، وفي مايو ١٨٨٩ عقد ملك الحبشة مع الإيطاليين معاهدة رسمت حدود الأملاك الإيطالية اعترفت فيها الحكومة الإيطالية بسيادة «منليك» ملك الحبشة على الحبشة واعترف «منليك» نفسه بحقوق إيطاليا في السيادة على الأملاك الإيطالية في البحر الأحمر والتي تمتد إلى الداخل وفي يناير ١٨٩٠ صدر مرسوم من ملك إيطاليا بإنشاء مستعمرة إريتريا، وعمل الطليان على تثبيت أملاكهم في إريتريا بعقد عدد من الاتفاقيات مع بريطانيا ومصر والحبشة لتخطيط حدود المستعمرة التي يتألف أكثر أراضيها من أرض كانت تابعة لمصر.

(٣) مقاومة المقاومة السودانية

الوجه الثالث للسياسة البريطانية (احتلال السودان)

مرت السياسة البريطانية للسودان - كما سبق القول - بمرحلتين هما سياسة عدم التدخل ثم إخلاء السودان، وكانت المرحلة الثالثة - الوجه الثالث - هو قرار استرجاع السودان وإنهاء سيطرة المهديّة. نجم عن قرار الإخلاء ضياع السودان واقتسام ما كان يتبع مصر من أراضيها وتعرض حدود مصر الجنوبية لتهديد الدراويش الذي لم يوقفه إلا هزيمة النجومى في توشكى ١٨٨٩، ويمكن القول أن من تاريخ معركة توشكى تبدأ مرحلة تفكير بريطانيا في استرجاع السودان بصورة جدية فقد خشى الإنجليز من فرنسا التي كانت تعارض الاحتلال البريطانى لمصر معارضة شرسة ورغبتها الملحة في التوغل في إفريقيا الوسطى والوصول إلى حوض النيل وضم إقليم بحر الغزال إلى أملاكها الإفريقية على أساس أنه حق مباح منذ أن أخلى المصريون السودان، فإذا استطاع الفرنسيون الوصول إلى حوض النيل من ممتلكاتهم في إفريقيا الغربية فهذا معناه إزعاج الاحتلال البريطانى وتهديده بقطع المياه عن مصر، وكانت الفكرة الذائعة أن السيطرة على منابع النيل والتحكم في توزيع مياه النهر يكفلان السيطرة على مصر ذاتها، وبالفعل قررت الحكومة الفرنسية إرسال حملة الغرض منها الوصول إلى فاشوده. بدأ الزحف الفرنسى من الكونغو الفرنسى (كونغو برازا فيل) واتجه شرقاً حتى وصل إلى فاشوده التي تسيطر على مجرى النهر الأعلى عند ملتقى رافديه بحر الغزال وبحر السوبات، ولم يوقف هذه الحملة - مؤقتاً غير معارضة البلجيك الذين كانوا يعملون في الوقت نفسه للتوغل في هذه المنطقة. وهذا النشاط المتزايد من جانب الفرنسيين حرك ليوبولد ملك البلجيك لتوسيع أملاكه واحتلال حاجز لادو الذي استأجره من البريطانيين وطمع في أن يؤجر له خديوى

مصر كل السودان ودأى النيل ابتداء من الخرطوم جنوباً إلى بحيرة ألبرت المكان الذى تبدأ منه منطقة النفوذ الإنجليزي^(١).

وهكذا صار واضحاً للإنجليز أن مسألة حوض النيل أو السودان بأكمله يجب أن يثار عاجلاً وأن تكون القوة المسلحة القول الفصل في حلها، وقررت بريطانيا استرجاع السودان وكان ذلك في مارس ١٨٩٦ وبدأت باسترجاع دنقله، وقوبل الزحف على دنقله بعاصفة من الاحتجاج والاستنكار من فرنسا.

كان هذا الاجراء مفاجئاً حتى بالنسبة لمصر عندما أبلغ المندوب السامى البريطانى في مصر اللورد «كرومر» خديوى مصر بأن الحكومة الإنجليزية قررت إرسال حملة للسودان وأن عليه تجهيز أورطتين من الجيش المصرى للسفر، وتولى قيادة الحملة السردار كتشنر تحت إشراف اللورد «كرومر» ووقع الاشتباك بين قوات الحملة والدراويش وانهزم الدراويش هزيمة كبيرة وأخلوا دنقله من غير قتال يذكر واحتلها الجيش الزاحف في سبتمبر ١٨٩٦. وباسترجاع دنقله يكون كتشنر أنهى التعليقات التى لديه ولا يمكنه الزحف إلى أبعد من هذا المكان إلا إذا صدرت إليه تعليمات جديدة بذلك. وعاد كتشنر إلى القاهرة.

كان من الواضح أنه لا مفر من استئناف العمليات العسكرية واستمرار الزحف للوصول إلى الخرطوم لعدة أسباب منها أن حملة دنقله أقامت الدليل بسبب النفقات القليلة التى تكلفتها والانتصارات الباهرة التى أحرزتها بسهولة على أن من الممكن تحطيم قوة الدراويش نهائياً، وأن الخوف من أن يصل الفرنسيون إلى بحر الغزال وأقاليم النيل العليا قد بلغ مداه منذ أن وصل الفرنسيون برئاسة الكاتين مارشان إلى النيل الأعلى ورفع العلم الفرنسى على فاشوده لذلك قررت الحكومة البريطانية الزحف إلى ما وراء دنقله.

حملة أم درمان: عقب انتهاء تجربة دنقله ذهب كتشنر إلى إنجلترا ١٨٩٧ لينال موافقة حكومة على استمرار الزحف حتى يصل إلى فاشوده قبل وصول «مارشان» إليها وتوطيد أقدامه فيها فيتعذر إخراجه من حوض النيل الأعلى من غير قيام حرب بين إنجلترا وفرنسا. نال كتشنر الموافقة وعن طريق وادى حلفا بلغ «مروى» واتخذها مركزاً له ثم وقعت معركة «أبى حمد» التى انهزم فيها الدراويش وأخلوا ببربر متقهقرين وتلاقى الجيشان في واقعة العظيرة وانهزم الدراويش وقتل منهم حوالى ثلاثة آلاف وبلغ عدد أسراهم ألفين، وكان هذا الظفر

(١) مصر والسودان - المرجع السابق - ص ٤٤٧.

أقوى تهديد لفتح السودان. قرر كتشنر التقدم إلى أم درمان وكان معروفاً أن الخليفة التعايشي يحمّد قواته هناك والتحم الجيشان في معركة أم درمان الفاصلة وانهمز الدراويش وفر الخليفة ورجاله ودخل كتشنر أم درمان، وبذلك انتهت دولة الدراويش وظل الخليفة مطاردًا أكثر من سنة ثم قتل في معركة أم دويكرات في كردفان وكانت معركة نهائية عثر بعد انتهائها على الخليفة وقد فارق الحياة على سجادة صلاته المصنوعة من فرو الأغنام بينما قتل جميع قادة الحركة المهدية وزعمائها أو سُجنوا، كانت تلك الهزيمة هي الفاصلة في انهيار الدولة المهدية^(١).

بعد واقعة أم درمان بيومين رفع كتشنر في سبتمبر ١٨٩٨ العلمين المصري والإنجليزي على سرائي الحكومة المخربة وأبلغت الحكومة البريطانية الحكومة المصرية أن «الإنجليز حتى الاشتراك في السودان بما ضحت فيه من المال والرجال» وهو البلاغ الذي مهدت به الحكومة البريطانية لعقد الاتفاق الثنائي لإدارة السودان.

حادث فاشوده:

لم تنته مشاكل استرجاع السودان بهزيمة الخليفة عبد الله في واقعة أم درمان وإنهاء دولته بل بقى على كتشنر واجب آخر هو الوصول بأقصى سرعة إلى فاشوده. غادر كتشنر الخرطوم بطريق النيل الأبيض، وعندما وصل فاشوده وجد «مارشان» قد سبقه فعلاً ورفع العلم الفرنسي عليها، وهناك على بعد مائتي ياردة رفع كتشنر العلم المصري، وبدأت الأزمة بين إنجلترا وفرنسا.

وأهمية حادث فاشوده تنحصر في أنه كان أحد مظاهر المنافسة الشديدة بين فرنسا وإنجلترا على الاستعمار في إفريقيا عمومًا، وعلى تأسيس مناطق النفوذ في حوض النيل الأعلى بالذات، خاصة وأن الفرنسيين شهدوا أن الإنجليز يتوغلون في أراضي أوغندا ويعقدون المعاهدات مع البلجيك بتأجير حاجز لادو للكونغو الحرة، ودل ذلك على أن الإنجليز كانوا يعتبرون السودان ملكًا مباحًا، ورأى الفرنسيون أن يكون لهم نصيب مماثل في اقتسام هذه الأملاك التي أخلاها المصريون في السودان.

استحكمت الأزمة حلقاتها بوصول «كتشنر» ومارشان إلى فاشوده، وكان أمام الطرفين إما التفاهم والمفاوضة السلمية أو المواجهة العسكرية ووقوع الحرب بين الدولتين، ولكن فرنسا لم تكن على استعداد للدخول في قتال قد يعود عليها وعلى مستعمراتها بأوخم العواقب،

(١) تاريخ إفريقيا العام - المرجع السابق - ص ٩٥.

فأذعنت للأمر الواقع وأمرت «مارشان» بالانسحاب وإخلاء فاشوده وتسوية الخلاف سلميًا بالاتفاق على تحديد مناطق النفوذ بين أملاك ومستعمرات الإنجليز والفرنسيين في نهر النيجر وبمقتضى الاتفاق خرج حوض بحر الغزال وبحر العرب بأجمعه وبها في ذلك دارفور من دائرة النفوذ الفرنسي.

الحكم الثنائي ١٨٩٩:

بعد ست عشرة سنة من واقعة أم درمان التي حسمت سيطرة المهدي على السودان أمكن مطاردة المهديين في أنحاء السودان والسيطرة الكاملة على المواقع التي كانت لا تزال في أيديهم. وكان رفع العلمين المصري الإنجليزي جنبًا إلى جنب إشارة على التغيير الذي طرأ على الوضع في السودان بعد زوال المهديّة منه واسترجاعه. كانت مشكلة الوضع السياسي في السودان من أعوص المشاكل فكيف يدار السودان في المستقبل؟

طرح ثلاث حلول؛ إما أن تضم بريطانيا السودان إليها وإما أن تعتبر السودان جزءًا من الامبراطورية العثمانية أى تعود إلى أملاك هذه الإمبراطورية، وإما أن يكون هناك نوع من الحل الوسط تتحقق به الأغراض التي تريدها بريطانيا. وتناول اللورد «كرومر» بالبحث كل واحد من هذه الحلول الثلاثة فقال إن بريطانيا لأسباب سياسية ومالية لا تريد أن تضم السودان إليها، وأن الاعتراف بأن السودان جزء من الأملاك العثمانية من شأنه أن تستمر كل المصاعب الدولية والعقبات التي واجهتها الحكومة البريطانية خلال الخمس عشرة سنة الماضية عند تناول المسائل المتعلقة بالشئون المصرية؛ لذلك وجب التوصل إلى حل وسط بين هذين الإجراءين، ورأى «كرومر» أن الحل الوسط يتخذ شكل اتفاق أو وفاق وتفتق ذهنه إلى مشروع ثنائي للحكم في السودان وهو ما عرف بالوفاق الثنائي بين الحكومتين المصرية والبريطانية، وكان يتألف من مقدمة واثنتي عشرة مادة وشفع كرومر مشروعه بمذكرة لتفسير الأغراض التي توخاها من هذا المشروع جملة ثم كل مادة من مواده تفصيلًا.

لم يبحث كرومر مع الحكومة المصرية النقط التفصيلية الواردة في مشروع الاتفاق، ومن الثابت أن الخديوى ورجال بطانته ماكانوا يعرفون شيئًا على وجه الدقة عن الوضع السياسي الذي كان يراود تقريره للسودان أو عن تفاصيل نظام الحكم فيه حتى رفع العلمين، اتضح فيما بعد أن كان المقصود منه التدليل على مشاركة البريطانيين في حكم السودان وتقرير سيطرتهم عليه عن طريق السردار الانجليزي الذي وصفه «كرومر» بأنه النائب الوحيد في السودان - عن الحكومتين البريطانية والمصرية والذي لا يجب التعويل على أحد غيره - .

وهكذا خضع السودان للحكم الثنائي الذى فرض عليه، وفى ١٩ يناير ١٨٩٩ وقعت على الاتفاق كل من مصر وبريطانيا، ونصت مادته الأولى أن يسرى هذا الاتفاق على جميع الأراضى الكائنة جنوبى الدرجة الثانية والعشرين فى خطوط العرض وهى: أولاً الأراضى التى لم يخلها قط الجنود المصريون منذ ١٨٨٢، وثانياً الأراضى التى كانت تحت إدارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان وفقدت منها وقتياً ثم تم استردادها؛ تلك كانت نهاية قصة السودان وادى النيل حتى استقل بنفسه وشعبه فى عام ١٩٥٦.

الفصل الرابع

أولاً: دول الساحل والممالك الزنجية

١- مملكة اليوروبا

٢- مملكة بنين

٣- مملكة الأشانتي

٤- مملكة داهومي

ثانياً: مقاومة الممالك الزنجية الساحلية في القرن ١٩

١- المقاومة ضد الغزو الفرنسي

٢- المقاومة ضد الغزو البريطاني

أولاً: دول الساحل والممالك الزنجية

هذا ما كانت عليه مناطق السودان الكبير الممتد من الأطلسى الى البحر الأحمر، أما على الساحل الإفريقى فقد قامت ممالك زنجية اكتسبت شهرة تاريخية لما كانت عليه من قوة ونفوذ، قاومت الاستعمار مقاومة عنيفة مضية شهد بها المستعمرون أنفسهم بما لا قوه من قسوة وقوة هذه المقاومة.

ودول الساحل هى مناطق المستنقعات والغابات الاستوائية الممطرة فى غرب إفريقيا وهى ما أطلق عليها المستعمرون وصف «مقبرة الرجل الأبيض» باعتبارها مناطق لا يمكن اختراقها، ولكن يوجد من الشواهد ما يدل على أن بعض الأوروبيين وكذلك تجار عرب تمكنوا باستمرار من الوصول إلى مناطق حزام الغابات الاستوائية فى سواحل غرب إفريقيا ووجدوا فيها ممالك قائمة، ولكن تاريخ تلك الممالك التى نشأت فى مناطق الغابات الاستوائية تختلف عن تاريخ الممالك والإمبراطوريات التى ظهرت فى المناطق العشبية جنوب الصحراء الكبرى، وكذلك سكان تلك المناطق يختلفون جسميًا وثقافيًا عن الإفريقيين الذين يعيشون فى شمال مناطق للغابات.

ورغم أن كتابًا عربيًا من مؤرخين وجغرافيين ذكروا الكثير عن الأراضى والشعوب والقبائل التى تعيش فى المناطق العشبية جنوب الصحراء الكبرى إلا أنهم لم يذكروا شيئًا عن أراضى وقبائل منطقة الغابات الاستوائية، لذلك كان يعتقد إلى وقت قريب أن القبائل والشعوب التى تعيش على سواحل غينيا وفى داخل الغابات ليس لها تاريخ، ولكن تبين بعد اكتشاف الكثير من الشواهد التاريخية من تماثيل وأوانى وآثار أخرى مصنوعة من الصلصال الأحمر والبرونز دلت على أنها نتاج فن مميز وله طابع خاص يرجع إلى فترات زمنية بعيدة تبدأ من القرن التاسع قبل الميلاد حتى القرن الثالث بعد الميلاد^(١). وأنه كانت هناك حضارة

(١) الإسلام فى ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء، تاليف جوان جوزيف، ترجمة مختار السويفى/ دار الكتاب اللبنانى صفحة ١٠٠.

منتشرة ومنشرة بين قبائل النوك النى كانت تعيش فى مساحة على امتداد حوالى خمسمائة كيلو متر فى أراضى نيجيريا، وتقول بعض الاحتمالات التى لم يثبت تأكيدها أن هؤلاء هم أجداد قبائل اليوروبا التى تعيش الآن فى نيجيريا، وأيا كان الأمر فإن اليوروبا الذين ورثوا هذه المنطقة كانوا مستقرين فى مناطق واسعة غرب نيجيريا وخلال القرن الثامن الميلادى أسسوا عاصمة لهم فى مدينة إيفى IFE التى كانت عاصمة دينية وثقافية لجميع قبائل اليوروبا.

ومن أشهر ممالك الساحل:

١- مملكة اليوروبا: كان انتشار اليوروبا فى بطاح شاسعة من أهم عوامل تفككهم

إلى ممالك مستقلة، كانت أقواها ولاية أويو OYO التى اتخذت مدينة إيفى عاصمة لها فى القرن الحادى عشر الميلادى، وظلت عاصمة روحية لجميع قبائل اليوروبا لمدة طويلة حتى غزتها قبائل الإيدو Edo التى كانت تعيش فى بنين جنوب ولاية أويو وأسسوا مملكة بنين^(١).

لم يعرف إلا التزر اليسير عن تاريخ اليوروبا بالرغم من أنها أكثر دول غرب إفريقيا شهرة لأن تاريخها لم يسجل. ويشتهر مجتمع اليوروبا بفنونه وأعمال الحفر على الخشب والاشغال البرونزية التى تعد من أروع أعمال الإبداع الفنى فى غرب إفريقيا. ولم يكن اليوروبا مجموعة عرقية واحدة بل كانوا تنوعًا من قبائل توحد بينهم الأعراف، ويمكن القول أن اليوروبا كانوا على غرار الهوسا نظامًا للحكم أكثر منهم دولة واحدة^(٢).

٢- مملكة بنين: تأسست مملكة بنين فى نفس الوقت الذى تأسست فيه دولة

اليوروبا فى القرن الحادى عشر، وتوسعت المملكة فى مناطق الغابات المحيطة بها وضممتها إلى سيطرتها، واتسم نظام حكمها باستقرار الأمن والسلام حتى عام ١١٠٤ حيث ثارت القبائل على ملكها وأبعدته منفيًا من البلاد وأكدوا حقهم فى اختيار الحكم، وهذه أول نزعة جمهورية معروفة فى تاريخ ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء، فقد أعلن شعب بنين إنهاء الملكية وبداية الجمهورية حيث قام الشعب باختيار حاكمه^(٣)، واختار الشعب شخصًا ليس من الأسرة المالكة ليكون أول حاكم جمهورى لشعب بنين.

(١) الإسلام فى ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء - المرجع السابق صفحہ ٩٩

(٢) الوثنية والإسلام - المرجع السابق - صفحہ ٢٣٩

(٣) الإسلام فى ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء - المرجع السابق صفحہ ١٠٧

اتسعت رقعة مملكة بنين نتيجة لقيامها بغزو مناطق الغابات المحيطة وضممتها تحت لوائها. وفي خلال القرن ١٦ كانت بنين مملكة تسيطر على مناطق واسعة تمتد من دلتا نهر النيجر حتى مدينة لاجوس الحالية، ولسوء الحظ كانت هذه المنطقة إحدى المناطق الرئيسية التي هبط فيها المستعمرون لاقتناص العبيد، وقد زود الأوروبيون شعب بنين بالبنادق والأسلحة النارية لمحاصرة الأهالي واصطيادهم أحياء والدفع بهم إلى ساحل خليج غينيا ليصدروا ويبيعوا، وانطلقت جيوش بنين المزودة بالأسلحة النارية إلى المناطق الداخلية وأسرت الآلاف واضطر الأهالي للهروب إلى مناطق أكثر تغلغلاً في الغابات الداخلية والأحراش تكون أكثر أمناً، حتى أنه في بداية القرن ١٨ أصبحت مساحات واسعة من جنوب نيجيريا خالية تماماً من الناس، ولذلك فقدت بنين قدرتها على الاستمرار في تجارة العبيد وضممت بالتالي، ووصفت هذه المملكة في التاريخ الإفريقي بعار الاشتراك مع الأوروبيين في تجارة العبيد حتى أنه يشار إليها بأنها «مملكة الدماء»^(١).

٣- مملكة الأشانتي: كانت الأشانتي وداهومي دولتين استبداديتين داخليتين شاغلتهما الأساس هو الوصول إلى الساحل لإقامة علاقات مباشرة مع التجار الأوروبيين بحيث تستطيعان الحصول على البنادق والبارود بثمان رخيصة وبيع الرقيق دون الوسطاء لأن الوسطاء يمتصون غالبية الأرباح التي تحققها التجارة. واتبعت داهومي والأشانتي هذه السياسة بإصرار شديد، واستطاعتا في غضون القرن ١٨ بناء دولتين بمقدورهما الصمود في وجه الغارات^(٢).

كان ظهور الأشانتي في بداية القرن ١٥ الميلادي حيث استقرت مجموعة من قبائل الأكان في مناطق الغابات الاستوائية بغرب إفريقيا، واستقر مقامهم في مناطق الغابات الواسعة في شكل جماعات أو ولايات منفصلة لا يربطها أي رابط أو اتحاد عدا العلاقات الروحية التي توجد لدى القبائل المنتمية إلى أصل واحد، كان عدد هذه الولايات يربو على اثنتي عشرة ولاية، ولم تكن كلها على قدر متساو من القوة، بل ظهرت ولاية واحدة هي الأشانتي اعتبرت أقوى هذه الولايات وأصبحت كوماسي Kumasai. عاصمة الأشانتي عاصمة روحية لجميع قبائل الأكان.

وفي خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر تعرضت ولايات قبائل الأكان

(١) الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء/ المرجع السابق ص ١١٢.

(٢) الوثنية والإسلام/ المرجع السابق ص ٢٥٠.

لغزوات مستمرة من القبائل الأخرى المعادية التي تعيش فى المناطق المجاورة، وكانت قبائل الآكان بطبيعتها مسالمة، ولكن هذه الغزوات دفعت الآكان إلى التطلع إلى الاتحاد لتتمكن من مواجهة الأعداء ومن هجماتهم.

وفى أواخر القرن ١٧ تحقق هذا الأمل على يد ملك كوماسى أوزى تو تو Osei tutu الذى نجح فى جمع قبائل الآكان فى مجلس واحد، ودعاهم إلى ضرورة الاتحاد فى أمة واحدة وتحت حكومة واحدة.

لم تمض سنوات قليلة حتى أصبحت مملكة الأشانتى أقوى مملكة فى مناطق الغابات الاستوائية بغرب إفريقيا، وتمثلت قوتها فى كميات الذهب التى تملكها والتى تخبئها وتخفيها داخل أماكن سرية مجهولة فى عمق الغابات. وكانت القوة العسكرية الكبيرة لدولة الأشانتى ذات تمويل ذاتى يأتى أساساً من عمليات تبادل منتظمة لثراب الذهب مقابل أسلحة نارية مع الهولنديين، وأدى ذلك الأمر الى استنفار البريطانيين وحلفائهم الإفريقيين من الفانتى وبقائهم فى حالة تأهب دائم من الأشانتى حتى أن الفانتى تخلوا عن الإنتاج الزراعى نظراً لتهديد غزو الأشانتى الدائم لهم^(١).

بدأت مملكة الأشانتى فى غزو الأراضى المجاورة، وأقامت علاقات مع القبائل التى تعيش على سواحل خليج غينيا، وكانت هذه القبائل تتولى أعمال الوساطة بين مملكة الأشانتى وتجار الرقيق الأوروبيين الذين ينزلون السواحل المطلّة على خليج غينيا، وعندما ازدادت قوة الأشانتى قررت استبعاد القبائل الوسطاء والتعامل مباشرة مع التجار الأوروبيين، ولكى يتحقق هذا الغرض كان لابد من الاستيلاء على أراضيهم المطلّة على المحيط. وقام جيش الأشانتى بغزو القبائل التى تعيش فى الأراضى الساحلية وارتكب ضدهم مذابح جماعية وحشية، واستحق بذلك الوصف الذى تطلقه عليه عمليه الحكايات المتوارثة باعتباره أكبر جيوش غرب إفريقيا شجاعة وتوحشاً. وأصبحت مملكة الأشانتى أقوى ممالك غرب إفريقيا الساحلية. وفى خلال القرن ١٩ ناضلت الأشانتى بقوة وبمسالة ضد المستعمرين الإنجليز حتى خضعت فى النهاية وأصبحت مملكتهم محمية تدخل ضمن مستعمرة ساحل الذهب (غانا حالياً)^(٢).

(١) إفريقيا منذ عام ١٨٠٠ - رونالد أوليفر وانتونى اقور - ترجمة فريد جورج بورى / مطبوعات المجلس الأعلى للثقافة
صفحة ٩٤

(٢) العبودية فى إفريقيا - المرجع السابق - صفحة ١١٢-١١٨

٤- مملكة داهومي: جذبت مملكة داهومي أعظم قدر من الاهتمام في القرن ١٩

بمسالة شعبها الفانتى المحارب رجالاً ونساء. وتعد داهومي دولة حربية من الطراز الفريد ظلت طيلة ثلاثة قرون تتهج سياسة قوامها التوسع، ويندر أن يوجد فى أى مكان فى العالم شعب أخضع كل شىء فيه للحرب ولصناعة الحرب مثله وكان عواقب هذه السياسة هو الإهمال التام للزراعة وتناقص سكانها بسبب غزواتها والغارات من أجل الرقيق، وبسبب استدعاء النساء للخدمة فى الجيش فى أكثر سنوات عمرهن خصوبة. وكان جيش داهومي قوة حسنة الانضباط والتنظيم والأكثر تسليحاً والأفضل تدريباً فى غرب إفريقيا، ومع ذلك لم يكن النجاح حليف داهومي وأخفقت فى خلق الإمبراطورية التى تؤهلها لهم بسالتهم الحرية لأن سياستها الحربية لم تكن مرتبطة بأى مقصد سياسى^(١).

ثانياً: مقاومة الممالك الزنجية الساحلية فى القرن ١٩

كانت نهايات القرن ١٩ بالتحديد ما بين سنوات ١٨٠٠-١٩٠٠ الفترة التى بلغ فيها الغزو الأوروبى لغرب إفريقيا ذروته، فلم يحدث من قبل على مر التاريخ المعروف للقارة أن شهدت مثل هذا النشاط العسكرى أو مثل هذا العدد من الغزوات والحملات من الدول والمجتمعات الإفريقية، ومن أبرز ما شهدته الحملات الفرنسية فى غرب السودان وساحل العاج وداهومي (بنين)، والحملات البريطانية فى بلاد الأشانتى (غانا) ومنطقة دلتا النيجر (نيجيريا). وفى هذه الفترة كان الإفريقيون جميعاً دون استثناء يتوخون الدفاع عن سيادتهم وأسلوبهم التقليدى فى الحياة، وإن اختلفت الاستراتيجيات والطرائق التى اتبعوها لتحقيق هذا الهدف. وكان أمام الإفريقيين ثلاث خيارات منذ الغزو الأجنبى: إما المواجهة وإما التحالف وإما الإذعان والخضوع، وكانت استراتيجية المواجهة تعنى الحرب السافرة والحصار وتكتيكات حرب العصابات وسياسات حرق المزارع لحرمان العدو من استخدامها، وقد لجأ الإفريقيون إلى الخيارات الثلاثة جميعها، وإن كان الحكام الذين اختاروا استراتيجية المجابهة القتالية أكبر من عدد الذين اختاروا الخضوع والخنوع^(٢).

١- المقاومة الإفريقية ضد الغزو الفرنسى

انتهج الفرنسيون ابتداء من عام ١٨٠٠ وما بعده سياسة بسط سيطرتهم على منطقة غرب

(١) الوثنية والإسلام - المرجع السابق صفحة ٢٥٨

(٢) تاريخ إفريقيا العام - المرجع السابق صفحة ١٢٨

إفريقيا بأسرها من السنغال إلى النيجر أولاً ثم تشاد مع ربط تلك المناطق بمراكزهم على الساحل الغيني في ساحل العاج وداهومي. ولجأوا في احتلالهم لغرب إفريقيا إلى أسلوب الغزو العسكري أكثر من لجوئهم إلى عقد معاهدات الحماية كما فعل البريطانيون.

أما عن ردود فعل الإفريقيين فقد التجأوا إلى كل الخيارات المتاحة أمامهم: المجابهة والتحالف والخضوع. كانت المقاومة الإفريقية في تلك الحالات أطول أمداً من مثيلاتها في أى بقعة أخرى لسببين أولهما أن اعتماد الفرنسيين على الغزو العسكري أثار ردود فعل نضالية، وثانيهما أن الإسلام كان منتشرًا بين شعوب تلك المناطق، وكان يعنى حكم البيض بالنسبة للمجتمعات الإسلامية في غرب إفريقيا خضوعًا للكفار وهو مالا يقبله أى مسلم؛ لذلك فإن تلك الشعوب عمدت إلى مقاومة الأوروبيين بحماس وإصرار زائدين كان يفقد إليهما معظم من لا يدينون بالإسلام. وقد سبقت الكتابة عن المقاومة الإسلامية والإفريقية للغزو الفرنسي في السنغال وبلاد التكرور وإمبراطورية سامورى تورى، والآن أختص بالحديث عن المقاومة الزنجية الوطنية في دول الساحل.

مقاومة داهومي: منذ منتصف القرن ١٩ أخذت الدول الأوروبية وبخاصة بريطانيا وفرنسا تبدى اهتمامها بتدعيم نفوذها على الساحل الغربى الإفريقى، ونجحت فرنسا فى عام ١٨٥١ فى توقيع معاهدة تجارية مع داهومي، وتعهد بمقتضاها ملكها «غيزو» بالمحافظة على سلامة الحصن الفرنسى فى «وايداح» أهم مدنها. حاولت بريطانيا التوغل فى داهومي بحجه وقف تجارة الرقيق، ولكن ملك داهومي لم يكن مستعدًا للتخلى عن هذه التجارة وأعلن أن الداهوميين ليسوا فلاحين وإنما هم محاربون وأن رخاء البلاد يتوقف على التجارة وأنهم لا يسمحون للبريطانيين أو غيرهم بالتدخل فى شئونهم.

ظل التنافس البريطانى الفرنسى على أشده وكلما يتزايد نفوذ بريطانيا فى لاجوس (نيجيريا) كان يرد عليها بخطوة فرنسية فى داهومي، وعندما فشل البريطانيون فى إقناع داهومي بقبول الحماية البريطانية قذفوا مدينة (وايداح) بالقنابل ولم يكن أمام داهومي سوى قبول الحماية الفرنسية. وفى عام ١٨٥٨ أعطى ملك داهومي للفرنسيين المدينة وستة كيلومترات من الأراضى إلى الداخل.

فى هذه الأثناء كان البريطانيون يدعمون نفوذهم وممتلكاتهم على طول الساحل النيجيرى، وكانت ألمانيا بدورها منهمكة فى التدخل فى توجو فأخذت فرنسا تتوغل أكثر

فأكثر داخل داهومى مما دعا ملك داهومى أن يطلب فسخ المعاهدات الفرنسية وسحب قواتها العسكرية وبالمطبع رفضت فرنسا الانسحاب وعززت قواتها العسكرية فى داهومى بل أكثر من ذلك بدأت تفرض رسوماً على التجارة، وأدى هذا إلى نقص كبير فى إيرادات ملكها فما كان منه إلا أن قام بهجوم مفاجئ على القوات الفرنسية التى لم تكن كافية لتستطيع اتخاذ إجراءات فعالة ضد الداهوميين، ورأت فرنسا أنه من الأفضل تسوية الأمور بالوسائل الدبلوماسية، فقام الحاكم الفرنسى بزيارة ملك داهومى الذى استقبله بكياسة ولكنه رفض أن يبحث معه أية أمور، ولم يسمح له بمغادرة البلاد، ولكن حدث أن مات الملك فاستطاع الحاكم الفرنسى أن يفر من داهومى وكان ذلك عام ١٨٨٩.

أخذ ملك داهومى الجديد (بيجا نزين) يستعد لمهاجمة المواقع الفرنسية على طول الساحل، وقبل أن يشرع فى الهجوم قبض على المبشرين والتجار الأوروبيين كرهائن، ولكن لم يفلح الداهوميين فى هجومهم وخضعوا للمباحثات مع الفرنسيين، ولكى يدللوا على حسن نواياهم أفرجوا عن المبشرين ووافقوا على قبول الحماية الفرنسية مقابل أن تدفع فرنسا لهم عشرين ألف فرنك سنوياً.

وبالرغم من هذا الاتفاق لم يكن الداهوميون يقبلون الهزيمة، وكانوا يريدون فترة يلتقطون فيها الأنفاس ويعيدون تنظيم جيوشهم، وبالنقود التى قدمها الفرنسيون اشترى الملك (بيجا نزين) مدافع من الألمان ودعا جنود جارتته «توجو» الذين دربهم الألمان لإعادة تنظيم الجيش الداهومى. وفى عام ١٨٩١ قام الملك بمحاولة ثانية لطرد الفرنسيين وعاد بالفين من الأسرى وهاجم سفينة فرنسية.

وهنا أدرك الفرنسيون - وقد رأوا الغزو الألمانى لتوجو - ضرورة العمل بسرعة حتى يمكن إبقاء الألمان بعيدين عن داهومى، فقاموا بغزو مكثف على داهومى، وفى غضون عام واحد كانت المملكة قد تم غزوها بأسرها^(١).

مقاومة شعب البولى فى ساحل العاج:

كان من المعتقد أن المقاومة ضد الفرنسيين فى مناطق الغابات فى غينيا وساحل العاج لم تبدأ إلا بعد عام ١٩٠٠، غير أن شعب البولى المقيم فى ساحل العاج أثبت خطأ هذا

(١) الوثنية والإسلام - المرجع السابق صفحة ٣٤٨ - ٣٥٦.

الاعتقاد، فقد بدأ نضاله ضد الفرنسيين عام ١٨٩١ حينما واجه حملتين عسكريتين فرنسيتين فشلتا أمام المقاومة العنيدة من جانب البولي. وكانت الفترة الممتدة من ١٨٩٥-١٨٩٨ فترة سلام فى بلاد البولي، غير أن الفرنسيين بعد أن هزموا سامورى تورى عام ١٨٩٨ قرروا البدء باحتلال البولي احتلالاً فعلياً وأعلنوا أن منطقة البولي إقليم عسكرى وشنوا سلسلة من الحملات العسكرية أسفرت عن الاستيلاء على كوكومبو أكبر مراكز استخراج الذهب فى بلاد البولي، كما قتلت زعيم البولي وأعدمت قائده الذى ضرب فى زنازة حتى الموت ولكن ثورة البولي لم تخمد ولجأوا إلى تكتيكات حرب العصابات واستمروا فى مناقشات ضد القوات الفرنسية، ولم يستتب السلم إلا عندما أدرك القائم بأعمال حاكم المستعمرة أنه لا فائدة من استخدام القوة فأمر بوقف العمليات العسكرية فى عام ١٩٠٢^(١)

٢- المقاومة الإفريقية ضد الغزو البريطانى

بينما لجأ الفرنسيون إلى الحرب كوسيلة لاحتلال إفريقيا الغربية فى الفترة ما بين ١٨٨٠-١٩٠٠ استعان البريطانيون بالدبلوماسية السلمية والحرب فى آن معاً، فقد استخدموا الدبلوماسية السلمية عندما أبرموا عدة معاهدات للحماية مع الدول الإفريقية كما هو الحال بالنسبة للبقاع الشمالية من سيراليون وفى بقاع من بلاد اليوروبا واستخدموا القوة فى بقاع أخرى مثل بلاد الأشانتى والإيجيبو فى بلاد اليوروبا وفى مناطق دلتا النيجر وخاصة فى نيجيريا الشمالية. وكانت ردود فعل شعوب المنطقة مثلما حدث فى إفريقيا الفرنسية تتمثل فى الالتجاء إلى جميع الخيارات المتاحة أمامها وهى المواجهة والتحالف والخضوع أو الجمع بينها.

مقاومة الأشانتى:

لم تشهد منطقة غرب إفريقيا فى تاريخها مواجهة بين الإفريقيين والأوروبيين أطول أمداً من المواجهة بين الأشانتى والبريطانيين فى ساحل الذهب (غانا)، فقد بدأت هذه المواجهة فى الستينيات من القرن الثامن عشر وانتهت بنهاية القرن ١٩. فى بداية القرن ١٩ بالتحديد عام ١٨٠٥ دخل الأشانتى فى حرب مع جيرانهم الفانتى والأوروبيين فى حرب استمرت مائة عام مع فترات توقف لم تنته إلا مع توطيد السيادة البريطانية.

(١) تاريخ إفريقيا العام- المرجع السابق صفحة ١٤١-١٤٢.

كان الفانتى فى ذلك الوقت أقوى شعوب الساحل، ولهم اتصال دائم مع الأوروبيين مما حفزهم على توسيع حدودهم بمحاربة جيرانهم الأشانتى لانتزاع أراضيهم، ولم يكن الأشانتى حتى ذلك الوقت قد دخلوا فى نزاع مع أية قوة كبيرة فيما عدا داهومى، كما لم يكن الأشانتى تواقين إلى محاربة الفانتى إلا ان أستفزاز الفانتى لهم معتمدين على أصدقائهم البريطانيين جعل الأشانتى يدقون طبول الحرب بحملات ثلاث بدأت عام ١٨٠٥ وانتهت عام ١٨١٦ كان النصر حليف الأشانتى وأصبحوا أصحاب السلطة العليا على ما يُسمى بغانا الآن، وتحطمت أطماع الفانتى فى إقامة دولة ساحلية لهم وتحولوا إلى ولاية تابعة للأشانتى، واضطر الأوروبيون إلى الاعتراف بسيادة الأشانتى

لكن بريطانيا كانت قد عزمت الأمر على إخضاع الأشانتى واحتلال ساحل الذهب وكانت دائمة الاستشارة للأشانتى، إلا أن الأشانتى كانوا يتحلون بقدر ملحوظ من الصبر والحلم، حتى وقع حادث صغير عام ١٨٢٤ أدى إلى استشارة الأشانتى إذ طلب الحاكم البريطانى (سير تشارلز مكارثى) من رؤساء الأشانتى عزف النشيد القومى البريطانى فى أراضيهم، ولما رفضوا اتخذ مكارثى ذلك ذريعة لمحاربة الأشانتى ولكن الأشانتى هزموا البريطانيين وحلفائهم وقتلوا قائدها الحاكم مكارثى نفسه.

لم يكن انتصار الأشانتى نهاية معركتهم ضد مستعمرهم بل بداية حرب طويلة امتدت إلى عام ١٨٣١ أنهكوا فيها تمامًا وتداعت قوتهم مما اضطرهم إلى توقيع معاهدة مع البريطانيين وافقوا فيها أولاً على إيداع ستمائة أوقية من الذهب وعضوين من الأسرة الحاكمة كضمان، وثانيًا أن يمنح الاستقلال للخارجين عن الأشانتى والفانتى وغيرهم ممن طلبوا الحماية البريطانية، وثالثًا يمتلك البريطانيون بمقتضى حق الفتح الأرض المقامة عليها حصونهم، وبهذا البند أصبحت الأجزاء الجنوبية من ساحل الذهب محمية بريطانية وعزل الأشانتى عن البحر وأصبحت الذخيرة التى يشترونها تمر بمناطق تخضع للحماية البريطانية، كما أدت هذه المعاهدة إلى وقوع حرب أهلية بين زعماء الأشانتى الذين رفضوا المعاهدة.

فى عام ١٨٦٣ وقعت الحرب الثانية بين الأشانتى والبريطانيين، كان النصر حليف الأشانتى وأرغم البريطانيون على الانسحاب، وبرغم هذا الانتصار فإن الحكومة البريطانية شعرت بأنه لا مناص من غزو الأشانتى وإظهار قوة بريطانيا، وأرسلت إمدادات عسكرية من بريطانيا وسيراليون والتحموا مع جيش الأشانتى الذى تمرس على حرب الغابات مما أعاق التقدم البريطانى، وقد شهد الرحالة الاستعماري «ستانلى» الذى كان يرافق الجيش كمراسل

حربى شهادة حق أن الأشانتيين كانوا ذوى تجهيز طيب وأنهم كانوا أكثر من ند للبريطانيين فى مناطق الغابات. ولكن لم يستطع الأشانتي بأسلحتهم الهزيلة ان يصمدوا أمام السلاح البريطانى الجبار فوقعوا معاهدة «فومينا».

دمرت معاهدة السلم هذه نسيج النظام الملكى للأشانتي، فقد ثارت المقاطعات وفاض الكيل بالزعماء وقامت حروب أهلية بينهم وكان البريطانيون يمنحون الحماية لكل زعيم يتمرد على الأشانتيين، وأحدث ذلك ردود فعل كبيرة على الأشانتي أدت إلى تفكك مملكة الأشانتي. وقد حرص البريطانيون ألا تقوم قائمة لمملكة الأشانتي فحرصوا الدول الأعضاء فى اتحاد الأشانتي على أن تؤكد استقلالها وعزلت ملك الأشانتي، ونشبت حرب أهلية بشأن من يخلفه لم تنته إلا حينما أصبح «برمبه» الأول ملكًا جديدًا للأشانتي.

أثبت «برمبه» قدرته على التصدى للأزمات التى واجهها، ففى خلال ثلاث سنوات من بدء حكمه استطاع أن يوحد من جديد الدول الأعضاء فى اتحاد الأشانتي، وأقنع المهاجرين من شعب الأشانتي الذين هربوا من الحروب الأهلية إلى الدول المجاورة أقنعهم بالعودة إلى الوطن، فانزعج البريطانيون. من يقظة مملكة الأشانتي ومن احتمال طمع الفرنسيين أو الألمان فيها فعرضوا وضعها تحت حمايتهم، ورفض الملك «برمبه» العرض فاقترحت بريطانيا إيفاد بريطانى مقيم دائماً فى كوماسى مقابل دفع مكافأة سنوية للملك وسائر كبار الملوك التابعين له، ولكنه رفض ذلك أيضاً وأرسل بعثة إلى ملكة بريطانيا ليلبغها تمسكه بإدارة مملكته، فما كان من إنجلترا أثناء وجود البعثة فيها إلا أن أرسلت إلى «برمبه» إنذاراً نهائياً بأن يستقبل المقيم البريطانى ويدفع غرامة الحرب التى كانت فرضت على الأشانتي عام ١٨٧٤، ورفض ملك الأشانتي الاستجابة لهذه المطالب فاتخذت بريطانيا من رفضه ذريعة لشن حملة عسكرية واسعة النطاق ودخلت الحملة العاصمة كوماسى فى يناير ١٨٩٦ دون أن تطلق رصاصة واحدة لأن «برمبه» ومستشاريه كانوا قد قرروا عدم الدخول فى حرب مع بريطانيا وقبول الحماية البريطانية، وقد برر «برمبه» عدم دخول الحرب عندما طلب زعماء القبائل محاربة البريطانيين بقوله «لقد أثرت التسليم حفظاً لأرواح وأمن شعبى وأبناء وطنى». وعلى الرغم من ذلك اعتقل البريطانيون «برمبه» وأمه التى كانت ملكة على البلاد وأعمامه وقادته ونفوهم إلى سيراليون أولاً ثم جزر سيسل^(١).

(١) تاريخ إفريقيا العام - المرجع السابق صفحة ١٤٣

وشهدت السنوات الأربع ما بين ١٨٩٦ الى ١٩٠٠ محاولات الأشانتي اليائسة لتغيير السياسة البريطانية نحوهم، وفشلت محاولاتهم لإعادة ملكهم «برمبه» وأعضاء الأسرة المالكة الآخرين وإمعاناً في إذلال الأشانتي فقد أعلن الحاكم العام البريطاني أن ملكة بريطانيا هي سيدة الأشانتي ولأن من حقه كممثل للملكة أن يجلس على كرسى العرش الذهبى وهو كرسى مقدس لدى الأشانتي، وأصاب هذا الطلب الأشانتي بالذهول، فالكرسى هو رمز قوميتهم. وعند هذا الحد من الاستفزاز البريطانى لم تجد ملكة الأشانتي «ياه اشتيوا» بُدّاً من إعلان الحرب ضد البريطانيين بدأت فى مارس ١٩٠٠ وانتهت الحرب فى مايو ١٩٠١ وعرفت باسم حرب ياه اشتيوا. وكانت هذه الحرب الأخيرة بين الأشانتي والبريطانيين، ورغم عدم معرفة الملكة الإفريقية بفنون الحرب والتدريب العسكرى فإن جيشها استطاع أن يحقق فى البداية عدداً من الانتصارات عندما حاصرت قلعة كوماسى التى كانت القوات البريطانية قد سيطرت عليها مما تسبب فى المجاعة والأمراض، وأثبت هذا التكتيك فاعليته بحيث إن البريطانيين تركوا الحامية بعد أن تكبدوا خسائر كبيرة، وأبدى الأشانتيون مقاومة عنيفة كما لجأوا إلى حرب العصابات حتى نفذت ذخيرتهم، وحسمت الإمدادات العسكرية البريطانية الحرب التى انتهت بهزيمة الأشانتي عام ١٩٠١ وأصبحت ساحل الذهب جزءاً من الإمبراطورية البريطانية فى غرب إفريقيا. وكعقاب للملكة «ياه اشتيوا» فقد نفاها البريطانيون مع عدد من زعماء الأشانتي إلى جزر سيشل لتلقى هناك الملك «برمبه» الاول وسائر رؤساء الأشانتي^(١).

فى ٢٦ يونيو ٢٠٠٠ نقل رفاة «ياه اشتيوا» إلى بلدها غانا وأعيد دفنها فى موكب جليل. جرى الاحتفال فى اليوم الذى وافق مرور ١٠٠ عام على انتفاض «ياه اشتيوا» ضد البريطانيين، واصدرت غانا عملة وطنية تحمل صورتها.



(١) العبودية فى إفريقيا- المرجع السابق صفحة ١٥٣

الجزء الثالث

حصار المقاومة في عموم إفريقيا

- المقاومة الإفريقية في شرق إفريقيا.
- المقاومة الإفريقية في وسط القارة وجنوبها.
- ردود الفعل الإفريقي للغزو وأسباب فشلها.
- كلمة أخيرة.

المقاومة الإفريقية فى شرق القارة:

نجح الاستعمار فى تمزيق إفريقيا واحتلالها، كما نجح فى إخفاء وطمس المقاومة الإفريقية المتواصلة والغليان والتوتر داخل هذه المجتمعات ضده، وإن كنا نجد لدى المؤرخين المنصفين فى الغرب وصفًا صادقًا لهذه المقاومة لكنها فى الغالب ما تصدر على أنها تمردات وانتفاضات لتجمعات وقبائل متصارعة متناحرة فيما بينها ثم وجهت سهامها إليه، فالمقاومة فى المفهوم الغالب لدى الغربيين إنما يقوم بها شعوب تتظم فى دول ونظم مركزية أو فى وحدات سياسية صغيرة، وهو يستكثر أن تكون الشعوب الإفريقية على هذا القدر من الفهم والوعى والتماسك والتنظيم.

حقيقة أن الإفريقيين كانوا غير مدركين فى البداية ولا واعين لحقيقة مقاصد الأجانب الذين جاءوا من مغارب الأرض رحالة ومستكشفين ومرتزة وشركات تجارية وأساطيل بحرية ودول شرهة طامعة أحكموا عليهم الطوق حتى استسلموا، وحقيقة أن التفتت السياسى والذاتية العرقية والإقليمية والمنازعات الداخلية بين الفئات الاجتماعية المتنافسة قد أضعفت قدره الشعوب الإفريقية على مقاومة الأوربيين، إلا أنه بالرغم من هذه النزعات المثيرة للفرقة كانت المواجهة والمقاومة هما الموقف الغالب إزاء الغزو والاحتلال الأوروبى الإمبريالى، وهذا ماركزت عليه فى الجزء الثانى من الكتاب من أنماط المقاومة الإفريقية والنشاط المناهض للاستعمار فى منطقة الحزام السودانى الممتد من المحيط الأطلسى إلى البحر الأحمر. وقد خصصت منطقة الحزام الإفريقى بدراسة تفصيلية لأنها أقرب فى الصلة بنا وباهتماماتنا، ولما كان من الصعب حصر المقاومة فى كل أجزاء إفريقيا كل على حدة فى عمل واحد وحتى لا أخل بالهدف الأساسى من الكتاب وهو إبراز المقاومة فى كل عموم إفريقيا، فقد وجدت أن أجمل فى هذا الفصل الأخير النضال الإفريقى فى عموم مع الإشارة السريعة المختصرة لشرق إفريقيا وجنوب القارة بشكل عام.

تركزت أنماط المقاومة المناهضة للاستعمار وردود الفعل الإفريقية في ثلاثة أشكال:

- ١ - المعارضة أو المواجهة التي حاولت الحفاظ على سيادة المجتمعات الأصلية.
- ٢ - المقاومة المحلية التي كانت تسعى إلى معالجة مبادئ فرضها نظام الحكم الاستعماري.
- ٣ - التمردات التي كانت تستهدف تدمير النظام الأجنبي الذي تولدت عنه هذه المساوى.

كانت استراتيجية المجابهة هي طرد الأوروبيين وحماية الأوطان والحفاظ على نمط حياتها. كان هدف الاستقلال هو الهدف الأسمى، وكانت دول إفريقية كثيرة على استعداد لتعبئة قواها لمنع أى اعتداء على استقلالها.

وقد اقنع القادة الإفريقيون بضرورة التغلب على التفوق الأوروبي في السلاح إذا كان لهم أن يضمّنوا لأنفسهم البقاء. وكان كثير من المجتمعات التي اشتركت من قبل في التجارة الدولية قد استفادت من دخول سوق الأسلحة وحصلت على مقادير من الأسلحة مقابل العبيد، وقامت شعوب أخرى لم تشارك من قبل في معاملات تجارية بزيادة صادراتها للحصول على بنادق حديثة وذخيرة تحسباً للصدام مع الأوروبيين، كما دعم عدد من المجتمعات الإفريقية قدراته الدفاعية من خلال ابتكارات عسكرية ذاتية، ففي الجنوب الإفريقي مثلاً أنشأ الموزمبيقيون مصانع للعتاد الحربي كانت تنتج البنادق والبارود وشيدوا إنشاءات دفاعية.

كما كان هناك تباين جوهري فيما استخدموه من تكتيكات، فقد واجهت دول إفريقية التعديات الأوربية الأولى بالمقاومة العنيفة على الرغم مما كان يتمتع به العدو من تفوق عسكري ساحق، وحاول قادة إفريقيون آخرون تجنب المجابهة الأولى على أمل أن يتمكنوا إما من تعزيز قدراتها العسكرية وإما من التوصل إلى معاهدة عادلة تعترف بسيادة دولهم، وفي حالات قليلة اعترفت نظم إفريقية بالسلطة الاسمية للأوروبيين طالما لم تبذل جهود جادة لفرض السيطرة الاستعمارية عليها، إلا أن هذه الاستراتيجية انتهت في كل الأحوال إلى المجابهة بعد أن جعل مؤتمر برلين من السيطرة الفعلية شرطاً مسبقاً للاعتراف الدولي بدعوى الملكية الاستعمارية^(١).

(١) تاريخ إفريقيا العام - المراجع السابق - ص ١٧٩ - ١٨٤.

المقاومة الإفريقية فى شرق إفريقيا

فى نهايات القرن ١٩ كانت مجتمعات شرق إفريقيا قد حققت مراحل متفاوتة من التنظيم الاجتماعى، وكان بعضها كما فى ممالك بوغندا وتنجانيقا قد بلغ درجة عالية من الحكم المركزى، وفى مثل هذه المجتمعات كان رد الفعل تجاه الغزو الأجنبى مرهوناً بما يفرضه الملك أو الزعامة.

وانقسمت ردود الفعل تجاه التغلغل الأجنبى إلى فريقين: فريق قاوم الاحتلال وفريق تعاون مع الاحتلال. من بينهم من قاوم الاستعمار ووصل إلى حد المواجهة المسلحة مع الغاصبين وانتهج المقاومة الإيجابية، ومنهم من لم يحمل السلاح ولكنهم رفضوا التعاون مع الغاصبين وسلوكوا سبيل المقاومة السلبية. أما الذين تحالفوا مع المستعمرين فكانوا يكافأون بتعيينهم فى مناصب فى النظام الاستعمارى. كانت ردود الأفعال تجاه الغزو متباينة، فعلى الرغم من أن كل المجتمعات كانت حريصة على المحافظة على سيادتها فقد كانت الاختلافات تظهر بحسب التماسك الاجتماعى أو عدمه.

التسابق الأوروبى وأنماط المقاومة الإفريقية:

كان التسابق الاستعمارى على شرق إفريقيا يتمثل فى ثلاث قوى متنافسة هى سلطنة زنجبار وألمانيا وبريطانيا، وكان أول من ظهر على الساحة هم العرب الذين اتخذوا من زنجبار قاعدة لعملياتهم، وكانت مصالحهم سواء فى المنطقة الساحلية أو فى الداخل مصالح تجارية، ولكن خلال العقدين الأخيرين من القرن ١٩ أخذت المصالح الألمانية والبريطانية التى كانت تتغلغل بثبات تهدد المصالح العربية.

وكانت المجتمعات الإفريقية المختلفة تتفاوت فى مدى اتصالها بالأوروبيين أو العرب، وكان اتصال المناطق الساحلية بالأوروبيين والعرب أقدم عهداً من اتصال المناطق الداخلية بهم، أما شعوب الداخل فقد كان اتصالهم بالعرب أطول أمداً، وصلات العرب الذين يتجرون فى العاج والرقيق ترجع إلى ما قبل تسعينيات القرن ١٩.

وقد اختلفت أساليب التغلغل الأوروبى من مكان لآخر، إلا أنها تميزت بوجه عام باستخدام القوة مقترنة بتحالفات دبلوماسية، واتخذت صورة الغزوات التى كانت فى كثير من الأحيان أعمالاً للسلب والنهب، للمفوض البريطانى لمحمية شرق إفريقيا تعبير شهير يقول «لدينا فى شرق إفريقيا تجربة نادرة هى التعامل مع صفحة ملساء مع بلد يكاد يكون

بكراً ولا يعيش فيه سوى عدد ضئيل من السكان، بلد نستطيع أن نتصرف فيه كما يحلو لنا، وأن ننظم الهجرة إليه ففتح الباب أو نغلقه حسبما يبدو لنا أنه الأفضل».

هذا المنطق المتعالى الجاهل بأمور إفريقيا هوما استثار المقاومة وجعلها أكثر عنفاً في الشرق الإفريقي، ففي تنجانيقا (تانزانيا) قام سكان الساحل بإطلاق النار على سفينة حربية ألمانية سنة ١٨٨٨ وأعطوا الألمان مهلة يومين للجلء عن الساحل وبعد ذلك هاجموا «كلوة» وقتلوا الألمان بها، وفي كينيا كانت المقاومة أعنف واستمرت سبع سنوات ضد الاستعمار البريطاني احتجاجاً على مد الخط الحديدي عبر أراضيهم ولم تنته إلا باغتيال زعيمهم وهو في طريقة إلى المفاوضات التي دبرت بغية الغدربه. كما قاوم الصوماليون في الأوجادين التدخل البريطاني واستلزم الأمر جلب تعزيزات هندية لهزيمتهم عام ١٨٩٩.

ووقع أخطر تحد للحكم الاستعماري في شرق إفريقيا بانتقضة. الما جي ماجي في تنجانيقا استخدم فيها الدين والسحر على السواء، ولجأ قائد الحركة إلى استخدام معتقداتهم الدينية ليعمل على وحدة الإفريقيين، وناشدهم أن يتحدوا وأن يقاتلوا الألمان في سبيل حريتهم في حرب شرعها الله، وأن أسلافهم سيبعثون إلى الحياة وسيحاربون إلى جانبهم، وأعد ماء طيباً (ماجي) زعم أن من يشربه من أنصاره يصبح محصناً ضد رصاص الأوروبيين.

كانت انتقضة ماجي ماجي أول حركة واسعة النطاق لمقاومة الحكم الاستعماري في شرق إفريقيا، كانت حركة جماهيرية فلاحية موجهة ضد الاستغلال الاستعماري هزت النظام الألماني في تنجانيقا فهو إن كان قضى على الحركة إلا أنه أجبر على التخلي عن المزارع العامة لزراعة القطن الذي كان فرضها الاستعمار الألماني على الفلاحين للعمل دون مقابل أو بمبالغ ضئيلة إلى حد أن البعض كان يرفض أخذها، كما أدخلت بعض الإصلاحات على بنية النظام الاستعماري وبخاصة فيما يتعلق بتجنيد العمال واستخدامهم، وكان الغرض من هذه التدابير جعل الاستعمار مستساغاً للإفريقيين. ولكن التمرد فشل وكان فشله يعني حتمية انهيار المجتمعات القديمة.

كانت ردود الأفعال الأولى المناهضة للاستعمار تستهدف حماية استقلالها من التهديدات الأجنبية، أما ردود الفعل التالية داخل البلاد فكانت تخليص الناس من القهر والسيطرة الاستعمارية؛ لذلك اختلفت ردود الفعل وأنماط المقاومة من بلد لآخر بل بين شعوب البلد الواحد.

المقاومة فى كينيا:

ففى كينيا كانت مقاومة قبيلة الناندى الصغيرة أعنف وأطول مقاومة خاضها شعب من شعوب كينيا ضد المستعمرين البريطانيين. ترجع صلابة مقاومة الناندى للبريطانيين إلى طبيعة مجتمعهم، فقد كان الناندى مقسمين إلى وحدات إقليمية، وكان المحاربون من كل وحدة يضطلعون بمسئولية الدفاع عن إقليمهم ولهذا كانوا ينامون فى كوخ واحد وهذا أقرب ما يكون إلى الجيش النظامى. وقد جمعت الجيوش الإقليمية تحت إمرة زعيم تقليدى واحد كان هو الذى يقرر موعد قيام الجيش بشن غاراته.

وكانت الجيوش تترايط من خلال شخص يحضر اجتماعات المجلس الإقليمى حيث كان الإقليم لا العشيرة هو مركز الحياة الاجتماعية للناندى مما يعنى إخفاء التنافس العشائرى، وأفضى إلى مجتمع متماسك، وهذا التماسك هو الذى أتاح للمجتمع التفوق العسكرى على جيرانه، وهو ما جعل أن تتمكن قبيلة بالغة الصغر من إرهاب شعوب أكبر منها وأن تستمر فى ذلك بمنأى عن العقاب لعدة عقود.

إن هذا التلاحم الاجتماعى للمجتمع ومع ثقة المحاربين فى أنفسهم وفى زعيمهم جعل الناندى قوة عسكرية مرهوبة الجانب، وقد دفعهم ما حققوه من انتصارات عسكرية إلى الإيمان بتفوقهم على الشعوب الأخرى بمن فيهم البيض، فالناندى يعتقد أنه مساو للرجل الأبيض وإن لم يكن متفوقاً عليه.

وهذا التلاحم بين شعوب الناندى فى كينيا يختلف تمامًا مع شعب آخر فى كينيا ذاتها، ففى وسط كينيا كان لكل زعيم أو مجموعة أو عشيرة موقف مستقل إزاء التدخل الأجنبى، فزعيم قبائل الكيكويو «واياكى» كان مسلكه مغايرًا انحاز لمصادقة الرجل الأبيض وقام بتأمين مرور الحملة البريطانية عبر أراضى الكيكويو وعقد معاهدة تأخى دم مع المندوب البريطانى (فردريك لوجارد) وسمح له ببناء حصن على أرضه، ومع ذلك نفاه البريطانيون عندما طلب منهم أسلحة نارية.

وعلى النحو نفسه تحالف زعيم قبائل الماساى مع البريطانيين، وكان الذين يتحالفون مع البريطانيين يكافأون بتعيينهم فى مناصب فى النظام الاستعمارى.

وعلى الساحل الكينى قاومت عائلة مزروعى التى استوطنت الساحل، وقد لجأت عائلة المزروعى إلى المقاومة نتيجة محاولات البريطانيين التدخل فى الشئون الداخلية

للمجتمعات الساحلية وفرض الحكم البريطاني. قاد المقاومة الزعيم مبروك بن رشيد الذى نظم حرب كروفر ضد الأسلحة المتفوقة البريطانية، ولم يتمكن البريطانيون من هزيمته إلا بعد أن جلبوا تعزيزات من القوات الهندية.

وفى شمال كينيا وراء منطقة كيسمايو قاوم صوماليو أوجادين مع عائلة المزروعى التدخل البريطانى، واستلزم الأمر من القوات البريطانية جلب تعزيزات هندية لهزيمتهم عام ١٨٩٩.

المقاومة فى تنجانيقا (تانزانيا):

كان رد الفعل فى تنجانيقا (تانزانيا حالياً) مماثلاً لما حدث فى كينيا، يجمع بين استخدام القوة والتحالفات الدبلوماسية، فقد تحدث شعوب المنطقة الخلفية الواقعة وراء «كلوه» القوات الألمانية واشتبكوا معهم فى أعوام ١٨٩١-١٨٩٣. وقتلوا من الألمان ٢٩٠ ألمانيًا بين قائد وجنود مما جعل الألمان يعملون للانتقام لما لحق بهم فاجتاحوا عام ١٨٩٤ منطقة الهيبى واستولوا على عاصمتها، وبعد مطاردة استمرت أربع سنوات انتحر زعيم المقاومة (مكواوا) حتى لا يقع فى الأسر.

أما سكان ساحل تنجانيقا، فقد نظموا مقاومتهم حول شخصية وزعامة أبو شيرى. وكان ساحل تنجانيقا شأنه شأن ساحل كينيا تغلب عليه الثقافة الإسلامية، فهناك كان يعيش خليط من العرب والأفارقة يتزاجون ويتولون أمور تجارتهم المحلية، وأدت هذه التجارة المزدهرة فى ذلك الحين إلى إنشاء العديد من المدن على امتداد الساحل، وهدد مجيء الألمان هذه التجارة التى كانوا يريدون أن يحلوا مكانها تجارتهم، وأثار ذلك حنق السكان المحليين وبخاصة العرب فشرعوا فى المقاومة.

ولد الزعيم بوشيرى قائد حركة المقاومة عام ١٨٤٥ لأب عربى وأم من الأورومو (الغالا) وكان حفيداً لأحد المستوطنين العرب الذين أقاموا على الساحل كأحد افراد جماعة اعتبرت نفسها من السكان المحليين. قاوم بوشيرى نفوذ سلطنة زنجبار على الساحل بل دعا إلى الاستقلال، وقام سكان الساحل تحت قيادته بإطلاق النار على سفينة حربية ألمانية فى سبتمبر ١٨٨٨ وأعطوا الألمان مهلة يومين للجلاء عن الساحل، وبعد ذلك هاجموا «كلوه» وقتلوا الألمان الذين كانوا بها. ولكن الألمان الذين أطلقوا على هذه المقاومة لفظ التمرد العربى أرسلوا كتيبة هاجمت حصن بوشيرى وأجبروه على الانسحاب. فر بوشيرى متجهًا

إلى الشمال حيث وُشى به وسُلم إلى الألمان الذين شنقوه فى ديسمبر ١٨٨٩، فانهارت المقاومة الساحلية وقام الألمان بقصف «كلوة» والاستيلاء عليها فى مايو ١٨٩٠.

المقاومة فى أوغندا:

جرى فى أوغندا نمط مماثل من ردود الفعل تجاه الاستعمار البريطانى، فشهدت الفترة ما بين عامى ١٨٩١ - ١٨٩٩ صدامًا بين قوات ملك البونيورو (كاماريفا) وقوات القائد البريطانى (لوجارد) والوكلاء البريطانيين الآخرين، لجأ ملك البونيورو أولاً إلى الدبلوماسية وحاول الاتفاق مع (لوجارد) ولكن دون جدوى، وفى النهاية شن الملك حرب عصابات ربما كانت الأولى من نوعها فى شرق إفريقيا، فانسحب من بونيورو إلى الشمال ومن هناك أخذ يغير على القوات البريطانية واستعمل تكتيكات حرب العصابات المتمثلة فى الانسحاب من بلد مجاور ثم الإغارة على القوات المحتلة. ويعتبر «موانجا» ملك كاباكا بوغندا (الباجندا) التى أعلنت محمية ١٨٩٤ أعظم دبلوماسى بين كل أولئك الذين كان عليهم أن يواجهوا الاندفاع الإمبريالية فى شرق إفريقيا فى العقد الأخير من القرن ١٩ فحين ارتقى العرش عام ١٨٩٤ أظهر رغبة فى الأوربيين فى بلاده الذين تنكروا فى ثياب المبشرين للسيطرة على بلاده، وتجلت براعته الدبلوماسية أيضًا فى الطريقة التى عامل بها الطوائف الدينية المختلفة المتصارعة ويؤلبها على بعضها البعض، الكاثوليك ضد البروتستانت والمسلمين ضد الكاثوليك أو البروتستانت أو كليهما حسب تقديره للخطر الذى يشكله كل منهم مع حكمه، وهكذا استخدام موانجا دبلوماسية «فرق تسد»، ذلك التكتيك الذى استطاعت الدول الاستعمارية أن تستخدمه بفعالية فى السيطرة على إفريقيا.

كان موانجا يلجأ إذا اقتضى الأمر إلى إحياء بعض التقاليد القديمة ساعيًا إلى طرد الأجانب جميعًا كما حدث عام ١٨٨٨. فقد حاول أن يستدرج كل الأجانب وأتباعهم لحضور استعراض بحرى يجرى فى جزيرة داخل بحيرة فكتوريا على أن يتركهم هناك حتى يموتوا جوعًا؛ إذ كان القيام بتدريبات بحرية فى البحيرة تقليدًا من تقاليد ملوك البوغندا، ولكن الخطة تسربت إلى الأجانب فقاموا بتدبير انقلاب فخلعوا «موانجا» عن العرش ونصبوا أخاه ليكون حاكمًا خاضعًا لسيطرتهم. وقد نجح «موانجا» بعد ذلك فى استرداد عرشه ولكن لم يلبث أن اطيح به ونفى.

على أن هناك من بين الباجنديين من تحالفوا تحالفًا وثيقًا مع المستعمرين البريطانيين

وأصبحوا يعرفون باسم «إمبريالية الباجندا» وهؤلاء من اضطلعوا بعد اتفاقية ١٩٠٠ بمسئولية مد نفوذ الاستعمار البريطانى إلى بقية أوغندا. وقد جعلت اتفاقية ١٩٠٠ من البوجنديين شركاء للبريطانيين فى مد النفوذ الاستعمارى فى المنطقة، وأصبحت بوجندا مركزاً للعمليات البريطانية، وترتب على ذلك أن أصبحت الكراهية للاستعمار تتجه للبوجندا أكثر من أن تتجه للاستعمارين أنفسهم، وأن كثيراً من المشاكل السياسية التى عانتها أوغندا بعد ذلك كانت نابعة من هذه المشاكل المبكرة بين البريطانيين والباجندا.

خلاصة القول أن المقاومة الإفريقية كانت تختلف باختلاف طبيعة المجتمع ووفق إدراك كل مجتمع محلى للتهديد الخارجى لسيادته، كان الاختلاف ينحصر فى اتساع المقاومة أو ضيقها، ولكن فى المجمال كانت المقاومة فى كل مكان ولم يفرض الاستعمارىون سلطتهم إلا بالعنف. وقد أدت مطالب الاستعمارين البيض إلى حمل الإفريقيين على العنف بسبب المعاناة التى واجهوها من فرض الضرائب وإلزامهم وتسخيرهم فى العمل بأداء أعمال معينة وفقدان المزيد من الأرض والحرمان من الحرية السياسية وتآكل ثقافتهم. ولم يكن فرض الضرائب وسيلة لزيادة الإيرادات فحسب بل سبيلاً لإجبار الإفريقيين على الخروج من ديارهم إلى سوق العمل والاقتصاد النقدى، فقد كان ثمة احتياج لأيدٍ عاملة فى مزارع المستوطنين الغربيين والأشغال العامة مثل شق الطرق.

إن الحقيقة المؤكدة أنه منذ الأيام الأولى للاستعمار قامت الحركات المناهضة له فى كل شرق إفريقيا، وكانت تستهدف حماية استقلالها من التهديدات الأجنبية وتخليص الناس من القهر والسيطرة الاستعمارية، وظهرت حركات وتمردات سكان الساحل مبكرة ورفضوا ترحيلهم من أراضيهم لإفساح المجال للمستوطنين البيض، ولجأوا إلى حرب العصابات حينما طلب منهم جمع أسلحتهم وتسليمها واشتبكوا فى صراع مع البريطانيين وكان رد الفعل البريطانى على ذلك إحراق البيوت ومصادرة الممتلكات.

على أن أخطر تحدٍّ للحكم الاستعمارى فى شرق إفريقيا كان انتفاضة ماجى ماجى كما سبق الإشارة إليها - وقد اجتمعت السخرة وفرض الضرائب والمضايقات المستمرة وظروف العمل القاسية كأسباب لنشوب الانتفاضة، ولكن السبب المباشر كان تطبيق مشروع المزارع العامة لزراعة القطن، وقد طوّل الناس بالعمل فى هذا المشروع ثمانية وعشرين يوماً فى العام دون أجر، وكان هذا يضطر الناس لترك مزارعهم للعمل فى هذه المزارع العامة. وقد شملت الانتفاضة أكثر من عشرين مجموعة عرقية مختلفة، كانت حركة ثورية أحدثت

تغييرات أساسية فى النطاق التنظيمى والتقليدى واستمرت من يوليو ١٩٠٥ إلى أغسطس ١٩٠٧ وانتشرت فى مساحة تبلغ ستة وعشرين ألف كيلو متر مربع فى الثلث الجنوبى من تنجانيقا. كانت انتفاضة الماجى ماجى أول حركة واسعة النطاق لمقاومة الحكم الاستعمارى فى شرق إفريقيا، كانت حركة جماهيرية فلاحية موجهة ضد الاستغلال الاستعمارى هزت النظام الألمانى فى تنجانيقا.

وبوجه عام أحدثت فى شرق إفريقيا تغييرات بعيدة الأثر، فقد فرض الاستعمار على السكان العنف، وكان موقف الإفريقيين يجمع بين المواجهة العسكرية والعمل السياسى، أو يذعنون ويتخذون موقف اللامبالاة مالم يُطلب منهم مطالب مباشرة، وكانت إقامة النظام الاستعمارى تعنى تنظيم الحياة السياسية والاقتصادية، فقد فرضت الضرائب والسخرة والحرمان العام من الحقوق الإنسانية، ورد بعض الإفريقيين على هذه التغييرات ردًا عنيفًا وأذعن آخرون.

المقاومة الإفريقية فى وسط القارة وجنوبها

خضعت مجتمعات كثيرة فى وسط القارة وجنوبها خضوعًا سلميًا للاستعمار أول الأمر لعجزها عن المقاومة أو عن إدراك الآثار المترتبة على الحكم إلا أنها ما لبثت أن هبت بعد ذلك محاولة استرداد استقلالها، وقد حدث هذا النوع من المجابهة المتأخرة فى الكونغو حيث كان السكان الأصليون ينظرون الى وكلاء دولة الكونغو الحرة أول الأمر كشركاء تجاريين وحلفاء ضد تجار الرقيق الأجانب، ولم تدرك المجتمعات المحلية أنها فرطت فى استقلالها دون أن تدري إلا حين حاولت دولة الكونغو الحرة أن تفرض الضرائب وتجند العمال للسخرة.

وفى خلال الفترة ما بين أعوام ١٨٨٥-١٩٠٥ تمردت أكثر من اثنتى عشرة مجموعة من المجموعات التى تم إخضاعها اسميًا فى الكونغو. وظلت هذه المجموعات تقاوم الأوروبيين مقاومة فعالة مدة تزيد عن عشر سنوات قبل أن تحلق بهم الهزيمة ١٩٠٥. كما تمرد الأهالى فى نهاية القرن ضد السخرة فى مزارع المطاط واستطاعوا فى ذروة نشاطهم أن يعيثوا أكثر من خمسة آلاف عامل خاضوا حرب عصابات طويلة الأمد انطلاقًا من قواعدهم فى أعماق منطقة الغابات.

وفضلاً عن التباين فى ردود الأفعال الأولى كان المقاومون يختلفون فى تمسكهم

بذاتيتهم الاثنية، فمن جهة كان هناك عدد من المجتمعات الكبيرة والصغيرة التي واجهت الغزاة دون أن تحاول أى منها إقامة تحالفات أكثر اتساعاً، وكان عجز التكتلات المتنافسة فى دولة عن الاتحاد فى مواجهة التغلغل الأوروبى هو الامتداد المنطقى لرؤيتها الذاتية، وثمة أمثلة لحالات ساعد فيها المتنافسون الدول الإمبريالية على أمل تعزيز مركزهم الداخلى أو فى مقابل الحصول على مساعدة ضد خصمه الداخلى، فى حين حاولت أنظمة إفريقية أخرى التغلب على النقص فى قدراتها العسكرية بتنظيم تحالفات عريضة القاعدة ومتعددة الاثنية فى مواجهة الاستعمار. كان ثمة ارتباط بين درجة التمييز الاثنى ونطاق حركات المقاومة، فحينما كانت المجتمعات الإفريقية تحارب بمفردها كان حجم جيشها وقدرتها على المقاومة محدودة، إما التحالفات الواسعة فقد استطاعت فى أغلب الاحيان أن تعبى جيوشاً كبيرة قوية وأن تقاوم مقاومة طويلة. وكانت مثل هذه الاتحادات المؤقتة تقوم حينما كانت توجد تحالفات اقتصادية أو دينية أو صلات قرابة. وفى بعض الأحيان كان الخصوم التاريخيون يطرحون عداءهم جانباً سعياً لضمان البناء.

ولما كانت حركات المقاومة لم تبلغ أهدافها السياسية النهائية، فقد كان هناك اتجاه إلى التهوين من إنجازاتها العسكرية المباشرة أو تجاهلها ووصم هذه الحركات جميعها بالفشل، والحقيقة أن الاختلاف فى نطاق هذه الحركات وفى مقدرتها على الحصول على أسلحة وفى حجم القوات الإمبريالية خلق أوضاعاً بالغة التنوع، ففى الوقت الذى منيت فيه أنظمة إفريقية بهزيمة تمكنت أنظمة لا تزيد عددًا عنها من احتواء الهجمات الأوروبية الأولى وكبدت العدو خسائر جسيمة، ففى نياسالاند مثلاً أوقفت المقاومة الأهلية تقدم الجيش الاستعمارى البريطانى لمدة تقرب من خمس سنوات، وحدث موقف مماثل فى الكونغو حيث تكبدت القوة العامة الحكومية خسائر على مدى عشرين سنة قبل ان تخضع المقاومة فى نهاية المطاف.

وعلى الرغم من هذه الانتصارات التى تحققت بشق الأنفس انتهت كل حروب الاستقلال فى الوسط والجنوب الإفريقي بالفشل، ويرجع تفسير عجز الإفريقيين عن وقف الزحف الأوروبى إلى العوامل الذاتية والاثنية والانقسامات الداخلية بين الفئات الحاكمة أو فى الطبقة الحاكمة أو بين هذه الطبقة وبين المحكومين، كما أدت الخصومات الإفريقية إلى تسهيل استراتيجية «فرق تسد» التى انتهجها المستعمرون. فتاريخ النضال من أجل المحافظة على استقلال الإفريقيين وسيادتهم يزخر بأمثلة الإفريقيين لم يقفوا عند حد الخضوع للقوى

الاستعمارية بل ساعدوها أيضًا سعيًا للانتقام من إساءات كان جيرانهم من الإفريقيين قد ارتكبوها في حقهم. كما كان عدد من القادة الإفريقيين يرون أن عقد التحالفات مع الأوروبيين يمكن أن يحقق تطلعاتهم التوسعية وأن يعزز في الوقت نفسه مركزهم الداخلي، وهناك مجتمعات تصدت للغزاة في بادئ الأمر ثم انقلبت إلى تحالفات معهم مقابل مكاسب مادية ووعود بمراكز أفضل في ظل النظام الاستعماري الجديد، ولولا الحلفاء والمرتزة الإفريقيون لما تمكن الأوروبيون من فرض حكمهم بمثل هذه التكلفة الزهيدة من القوة البشرية لهم، كان المجندون الإفريقيون يمثلون أكثر من ٩٠٪ من الجيوش البرتغالية التي تمكنت في النهاية من فتح وادي الزمبيزي سنة ١٩٠٢، وشهدت أنجولا نمطًا مماثلًا، كما كان جيش الكونغو الحرة يتكون من مجندين إفريقيين مع المرتزة الزنجباريين من زنجبار والهوسا من نيجيريا وكان الضباط فقط أوروبيون. كانت النتيجة النهائية لهذه العوامل هي الحد من إمكانيات بذل جهود مناهضة للاستعمار واسعة النطاق وعريضة القاعدة ومنسقة على النحو الذي يستلزمه التصدي للتفوق الواضح في القوة العسكرية التي كانت تتمتع بها القوات الاستعمارية.

المقاومة المحلية المحدودة:

على خلاف المقاومة التي كان هدفها الرئيسي هو المحافظة على الاستقلال؛ كان هناك دافع مباشر من الأهالي للمقاومة، ذلك أن لسعى القوى الاستعمارية إلى حشد أيد عاملة رخيصة لمشروعات الحكومة والمصالح الرأسمالية الأوروبية لجأت إلى السخرة إلى جانب ما فرضته من ضرائب باهظة، ففي الكونغو كان الإفريقيون يرغمون على جمع المطاط والعمل في خطوط السكك الحديدية وفي المناجم، وكان المستفيد الأول من أعمال السخرة في موزمبيق شركات متعددة الجنسيات، كما جرى تصدير موزمبيقيين آخرين إلى روديسيا الجنوبية (زيمبابوي) وجنوب إفريقيا، وتكررت هذه الصورة من القهر والإرهاب لتجنيد الإفريقيين للعمل في مزارع الأوروبيين في نياسالاند وفي مناجم روديسيا الشمالية (زامبيا). ولم يُعف من التجنيد لأعمال السخرة الفلاحون الذين بقوا في ديارهم، فقد كان القانون يفرض على سكان الريف العمل عددًا معينًا من الأسابيع بلا مقابل في مشروعات الأشغال العامة ولا تعرضوا للسجن.

باختصار كابد الإفريقيون أعباء اجتماعية واقتصادية باهظة من الاستعمارين شمل الأسر إما بصورة مؤقتة أو دائمة، وعاش الفلاحون في خوف دائم مما يرتكبه الأوروبيون

والمرتزة الإفريقيون من عسف، وفي المجال الاقتصادي ترتب على تصدير القوى العاملة زيادة حدة النقص في الأيدي العاملة مما أسفر عن ركود النشاط الريفي وتخلفه.

وقد أثارت ألوان العسف هذه احتجاجات ومقاومة من جانب الفلاحين والعمال. كانت هذه المقاومة المحلية تمارس يوميًا وبدون منظور مستقبلي، وقد تجاهلها المؤرخون على الرغم من أن المقاومة اليومية والعصيان والتمردات تمثل فصلًا هامًا من تراث الكفاح ضد الاستعمار في وسط القارة. وقد شاع التهرب من دفع الضرائب في كل مكان فكانت القرية تلجأ قبل وصول جباة الضرائب إلى الفرار إلى منطقة لا يسهل الوصول إليها وتظل فيها إلى أن يرحل موظفو الحكومة.

كما توصل الفلاحون إلى عدد من الأساليب لتجنب مشاق السخرة أو التقليل منها، وبلغ بهم الأمر إلى حد حمل السلاح وطرد الذين يجندون العمال من أراضيهم، ولجأوا إلى تكتيكات أخرى منها التمارض والتباطؤ في العمل والإضراب والهروب. ولجأ البعض ممن استبد بهم السخط إلى تدمير المعدات الزراعية وإشعال النار في المستودعات وسرقة مخازن شركات الامتياز وتخريب خطوط النقل والمواصلات، وكان الفرار عبر الحدود تعبيرًا شائعًا آخر من السخط، وتشير السجلات البريطانية الرسمية إلى أن أكثر من خمسين ألف إفريقي ممن كانوا يعيشون في وادي الزمبيزي هربوا إلى روديسيا الجنوبية في خلال الفترة ما بين ١٨٩٥-١٩٠٧، وقد وقع في وادي الزمبيزي فيما بين أعوام ١٨٩٠-١٩٠٥ ستة عشر تمردًا.

وكانت إقامة مجتمعات اللاجئين في المناطق المقفرة صورة من الصور التي اتخذتها استراتيجية الانسحاب فبدلاً من عبور الحدود الدولية كان الفلاحون الذين أحجموا عن الوفاء بالتزاماتهم القانونية يقيمون لأنفسهم مجتمعات منعزلة تتمتع بالاستقلال الذاتي.

وثمة مجتمعات أخرى لم تقنع بمجرد البقاء خارج نطاق السيطرة الأوروبية بل اتخذت موقفاً عدائياً تجاه أنظمة الحكم الاستعمارية، وأخذت تهاجم رموز القمع الريفي من مجندي عمال وجباة ضرائب ورجال شرطة أفارقة ساعية بذلك إلى حماية قراهم الأصلية وحماية للفلاحين المحليين من جباة الضرائب ومجندى العمال وموظفي الشركات المستغلين ورجال الإدارة الجائرين، ولم يكن مجتمعهم يعتبرهم مجرمين على الرغم من انتهاكهم نظام الحكم الاستعماري وكانوا يسمونهم «قطاع الطرق الاجتماعيين». وكان هؤلاء يتالون دعماً مستمراً

من السكان الريفيين الذين كانوا يمدونهم بانتظام بالطعام والذخيرة، وفي بعض الأحيان كان المجندون الإفريقيون الذين عبثوا أصلاً لقمع المنشقين المحليين يتمرّدون هم أنفسهم احتجاجاً على المظالم الاستعمارية التي لم يكونوا بمنجى عنها، وكانت تمرداتهم بوجه عام نتيجة لإنخفاض الأجور والعقاب الصارم والتصرفات التزقة من الضباط الأوروبيين.

وابتداءً من عام ١٨٨٥ أى منذ احتلال الأجزاء الأولى من وسط إفريقيا حتى عام ١٩١٨ وقع أكثر من عشرين تمرداً في المستعمرات الخمس أنجولا وموزمبيق ونياسالاند وروديسيا الشمالية والكونغو. كما شارك الكهنة والوسطاء الروحانيون بتنظيم التمردات وأضافوا عليها طابعاً مقدساً، وكان انغماسهم في هذا الشأن امتداداً منطقياً لدورهم التاريخي كحراس روحانيين للوطن، كانوا يدعون إلى الإطاحة الفورية بالسلطة الاستعمارية، كما جاء في موعظة كاهن نياسالاند عام ١٩٠٩ «لقد آن لنا أن نقاتل البيض، وسنبداً من الآن نخوض القتال ولسوف يهب السود ويطردوا البيض جميعاً من البلاد»^(١).

ليس من التجنى إنكار المقاومة الإفريقية وجهود الإفريقيين المضنية في الحفاظ على سيادتهم؟.. لقد تحققت نبوءة الكاهن النياسا لندي بعد نصف قرن حين حصلت أغلب الدول الإفريقية على استقلالها في الستينيات من القرن العشرين، وتحررت إفريقيا سياسياً من الاستعمار السياسي ولكن وقعت في شرنقة الاستعمار الاقتصادي.

ردود الفعل الإفريقي للغزو وأسباب فشلها:

ما إن حل عام ١٩٠٠ حتى كانت جهود الإفريقيين للحفاظ على سيادتهم واستقلالهم قد أحبطت. وعمدت السلطات الاستعمارية إلى تطبيق مبدأ السلطة التي لا تنازع فعينت مفوضين للأقاليم ومفوضين جوالين وأنشأت محاكم وسنت قوانين وتشريعات جديدة، وثبتت بعض الحكام وعزلت آخرين وعينت حكاماً جددًا، وأدخلت الضرائب المباشرة وغير المباشرة واستعانت بالسخرة في إنشاء الطرق والسكك الحديدية.

وجاء رد الفعل الإفريقي تجاه النظام الاستعماري عكس ما كان يتوقع المستعمرون من الخضوع أو التحالف، بل ظهرت المقاومة بشتى الطرق: الثورات وحركات التمرد والهجرات والاضطرابات والمقاطعة. وكان أشهر سلاح استخدمه شعوب غرب إفريقيا هو سلاح التمرد والثورة. من أبرز الأمثلة على ذلك الثورة التي قادها فودة سيلا ملك كومبو

(١) تاريخ إفريقيا العام - المرجع السابق صفحة ١٨٩ - ١٩٧.

الذى كان شيخ طريقة مسلمًا، وفودة كابا الحاكم المسلم فى جامبيا، وثورة ضريبة الأكواخ فى سيراليون^(١) عام ١٨٩٨، وثورة اللوى والجولا والديولا فى السودان الغربى.

الهجرات الجماعية:

لم تكن الثورات وحركات التمرد هى استراتيجية المقاومة الوحيدة التى اتبعتها شعوب إفريقيا، فقد كان من أساليب المقاومة الشائعة الهجرات الجماعية احتجاجًا على قسوة الحكم الاستعماري، وكان هذا الأسلوب شائعًا بوجه خاص فى المستعمرات الفرنسية، ففى تلك المستعمرات لم يكن فى استطاعة الإفريقيين أن يلجأوا إلى الثورة المسلحة نظرًا لمراقبة وحدات المراقبة العسكرية، فلجأوا إلى الفرار هربًا من التدابير الاستعمارية التى كانوا يرون فيها قهرًا وإذلالًا لهم. ففى الفترة من ١٨٨٢ إلى ١٨٨٩ هاجرت أعداد كبيرة من الشعب الفولانى من ساحل العاج إلى ساحل الذهب ومن السنغال إلى جامبيا ومن فولتا العليا إلى ساحل الذهب ومن داهومى إلى نيجيريا.

وكان يلجأ إلى تلك الثورات والهجرات الاحتجاجية سكان الريف وسكان المناطق الداخلية فى تلك المستعمرات ممن كان لهم اتصال مباشر بالأوروبيين، أما فى المناطق

(١) كانت ثورة ضريبة الأكواخ فى سنة ١٨٩٨ تعبيرًا عن استياء شعب سيراليون من تشديد قبضة الحكم البريطانى عليهم بتعيين مفوضين للأقاليم وتعزيز شرطة الحدود وإلغاء تجارة الرق وتنفيذ مرسوم الحماية الصادر فى سنة ١٨٩٦ الذى رخص للحكومة الاستيلاء على الأراضي البور وفرض ضريبة مقدارها خمس شلنات سنويًا على كل منزل من غرفتين وعشرة شلنات على المنازل الأكبر فى المحمية، فقرر زعماء الشعب بالإجماع الامتناع عن سداد الضريبة وثاروا على الحكم البريطانى بزعماء أحدهم هو باي بوريه، واشترك فى الثورة ثلاثة أرباع أهالى المحمية وكانت قوات الثوار تغير على المحطات التجارية وتنهب محتوياتها وتقتل الموظفين والجنود البريطانيين وكل من يشبه فى مساعدتهم للحكومة الاستعمارية. وقد خربت البلاد من الناحية التجارية وأحرقت كثير من المحال فاضطر البريطانيون إلى استدعاء سريتين من لاجوس لقمع الثورة التى أرجعها حاكم سيراليون البريطانى إلى بروز الوعي السياسى عند الإفريقيين قائلًا «بدأ ابن البلد يشعر بقوته من واقع الأهمية التى يضيفها الرجل الأبيض على قيمة منتجات بلاده ونتاج عمله، ولن يكون بوسع الرجل الأبيض مستقبلًا أن يتاجر بسداجة الإفريقي وجهله كما كان يفعل فى الماضى».

الواقع أن تحيل حاكم سيراليون البريطانى يصدق على معظم الثورات وحروب العصابات التى نشبت فى غرب إفريقيا فيما بين الفرنسي ١٨٩٠ - ١٩٠٠ وانتفاضة الأهالي وثوراتهم فى داهومي وفى ساحل العاج وغينيا. (والجدير بالذكر ان تلك الثورات ازدادت حدة إبان الحرب العالمية الأولى).

الساحلية والمراكز الحضرية فكان السكان يلجأون إلى خيارات أقل عنفاً منها الإضرابات^(١) وحركات المقاطعة وإرسال العرائض والوفود من جمعيات وحركات شتى إلى الحكومات الاستعمارية المحلية والمركزية.

الاحتجاج الديني:

ظهر الاحتجاج في المجال الديني بين المسلمين والمسيحيين وأتباع الديانات التقليدية فقد تحالف أتباع الديانات التقليدية في السودان الفرنسي ضد انتشار الثقافة الفرنسية والدين المسيحي والإسلام، وأحيا أتباع الدين الإسلامي المهدية وأسسوا الحركات الصوفية التي قاومت الوجود الفرنسي، كذلك ثار المسيحيون الإفريقيون - خاصة في المستعمرات البريطانية - ضد السيطرة الأوروبية على الكنائس وفرض الثقافة والطقوس الأوروبية وأدى ذلك إلى انفصالهم عنها وتكوينهم لكنائس خاصة بهم كالكنائس المسيحية والإثيوبية التي تتبع طقوساً ومذاهب إفريقية متميزة، ومن هذه الكنائس كنيسة المعمدانية الوطنية وهي أول كنيسة إفريقية أنشئت في نيجيريا سنة ١٨٨٨.

أسباب الفشل:

كانت الهزيمة مآل كل حركة من حركات المقاومة والعصيان المسلح على الرغم من أن شعوب إفريقيا لم تكن تنقصها الشجاعة ولا الدراية بأساليب الحرب ولكنها كانت في مركز ضعيف للغاية بالمقارنة مع الغزاة، فإن التفوق التقني لأسلحة العدو لم يكن يقابله ميزة تعوض المقاومة عن ذلك التفوق، صحيح أنها كانت أكثر دراية ببلادها، كما أن قسوة الظروف المناخية كانت تضطر الأوروبيين إلى وقف حملاتهم في خلال فترات كانت تتيح لأهالي المنطقة فترة لالتقاط الأنفاس، ولكن قوات العدو كانت تعوض ذلك أحياناً من جنود إفريقيين يقودهم ضباط أوروبيون، وكثيراً ما كان يزحف وراء القوات النظامية الأوروبية آلاف من جنود الاحتياط الإفريقيين القادمين من المناطق المضمونة أو الخاضعة للحماية، وكانت مهمتهم الأساسية تتمثل في النهب المنظم للبلاد المتصارعة مع الدول الاستعمارية كي يختل نظام تلك البلاد.

وفضلاً عن ذلك فإن دول إفريقيا لم توفق مطلقاً إلى إقامة تحالف عضوى يضطر

(١) شاع استخدام الإضراب كسلاح احتجاج لدى الإفريقيين مثلما حدث مع عمال السكك الحديدية على خط داکار - سان لوى عام ١٨٩٠، وفي عام ١٨٩١ أضربت النساء في داهومي اللاتي كن يعملن في الكاميرون، كما أضرب عمال لاجوس مطالبين بالأجور سنة ١٨٩٧ وقد وصف هذا الإضراب بأنه أول إضراب كبير في المستعمرات.

أعداءها إلى خوض معارك على عدة جبهات فى آن واحد... وقد لجأت معظم حركات المقاومة إلى حرب العصابات بعد فوات الأوان. بالإضافة إلى كل ذلك كانت الدول الاستعمارية قد توصلت عام ١٨٩٠ بمقتضى اتفاقية بروكسل إلى الاتفاق على عدم بيع الأسلحة للإفريقيين، وبعد هذا الاتفاق صار الإفريقيون يواجهون مشكلات إدارية بالغة الصعوبة واضطرت شعوب إفريقيا إلى استخدام أسلحة عفا عليها الزمن كالبنادق القديمة والأقواس والسهام فى مواجهة المدافع ورشاشات مكسيم، وكان محصلة هذه العوامل هى هزيمة الإفريقيين.

لابد أن نسجل بإعجاب هذه الفترة البطولية من تاريخ إفريقيا، لا يشينها أنها منيت بالهزيمة على يد أعداء أقوى عدة وعتادًا طالما أن القضية التى ضحى جنود المقاومة الإفريقيون بأرواحهم فى سبيلها لا تزال حية فى أذهان أبنائهم وأحفادهم.

كلمة أخيرة:

أدى تبلور النظم السياسية القائمة على أساس الدول القومية فى أوروبا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبخاصة بعد اكتمال الوحدة الألمانية سنة ١٨٧٠ أدى إلى منافسة حادة بين هذه القوى الكبرى وإلى مناورات دبلوماسية بينها لا تتوقف، وفى ذلك الوقت حدثت تطورات داخلية على مستوى القارة الإفريقية إذ كانت هى الأخرى تجتاز مرحلة من التحولات الجذرية، فمثلاً أدت الأزمات المالية لمصر إلى تدخل أجنبى متزايد تبعه ردة فعل ومقاومة وطنية وضعت البلاد فى أزمة سياسية داخلية. كما تسببت الاكتشافات المنجمية فى الجنوب الإفريقي بتعديل كامل لعلاقات القوة فى هذا الجزء من القارة الإفريقية، وقل الطلب على المنتجات القديمة كالذهب والعاج والعييد على حساب المنتجات الحديثة كزيت النخيل والكاوتشوك، وأضعف هذا وضع الزعماء الأفارقة التقليديين فى أماكن واسعة فى إفريقيا.

وبطبيعة الحال لم يكن المستعمرون على معرفة بتفاصيل الأوضاع فى إفريقيا فى مستوى معرفة الحكام الإفريقيين بها، فكانوا ينفذون استراتيجيات الزحف والتقدم بشكل عشوائى وغير منسق فاصطدموا بالعديد من حركات المقاومة الإفريقية، بل استثاروها من جراء جهلهم حتى أن بعض الأحداث التى اعتبرها المستعمرون تمردات اتضح أنها فرضت على الأهالى بسبب جهل البيض بأوضاع الإفريقيين.

كان محتمًا أن ينتصر الأوروبيون فى النهاية لتفوقهم العسكرى، وما إن انتصروا حتى

حاولوا أن يدعوا أن معظم الأفارقة تقبلوا «السلام الاستعماري» شاكرين، وتم تجاهل وقائع المقاومة الإفريقية، وما يوضح هذا القول طلب زعيم ثورة الهيريرو من عدوه السابق الزعيم الإفريقي «ويت بوى» فقد كتب إليه يناشده القيام بعمل مشترك «إن رغبتى هى أن نهب نحن الأمم الضعيفة ضد الألمان فلتقاتل إفريقيا كلها ضد البيض ولنمت معاً فى المعركة أفضل من أن نموت بفعل سوء المعاملة فى السجن أو غيرها من الأسباب».

إن المقاومة الإفريقية أثبتت أن الإفريقيين لم يتقبلوا عملية إحلال السلم الأوروبية فى هدوء ودعة. إن المقاومة لم تكن يائسة ولا رعناء، وإن حركات المقاومة هذه لم تذهب هباء، وأنها أتت بنتائج هامة وقتها ولم تزل لها اصداء هامة حتى اليوم، وأن هذه الثورات والانتفاضات أسهمت فى تحسين أوضاع الشعوب التى تمردت، وأن المجتمعات الإفريقية بكل اشكالها تقريباً قاومت فى كل مناطقها الزحف الأوروبى، وأن الحكم الاستعماري لم يفرض إلا بحد السيف واستمر قائماً بفضلله.



فى خلال القرنين ١٨ و ١٩ درج الأوروبيون على وصف الأفارقة بأنهم أشبه بالأطفال أو بغير البالغين، وأن على الدول الاستعمارية أن تمارس الوصاية على السكان الإفريقيين نيابة عنهم حماية لهم ولتحقيق تقدمهم، وهذا هو حق القوى فى حماية الضعيف! واعتبرت إفريقيا بمثابة تجمع من المقاطعات يتعين على الأوروبيين تجنيد سكانها وأدائهم لخدمة أهداف تحدد من الخارج.

كانت أهداف الاستعمار فى المستعمرات ترمى إلى الحفاظ على النظام وتفادى المصروفات المالية الباهظة وتشكيل قوة من الأيدي العاملة تستخدم فى أشغال نقل الأحمال، ثم فى مرحلة لاحقة شق الطرق وإقامة السكك الحديدية، وكان يستحيل أن يتم تحقيق هذه الأهداف إلا باستخدام العمل الإجبارى وفرض الضرائب (كانت الضرائب الشخصية المفروضة على جميع الإفريقيين من الذكور وسيلة لتمكين العملية الاستعمارية من الاعتماد مالياً على نفسها).

لذلك لجأ المستعمرون بعد أن أخضعوا القارة للسيطرة الاستعمارية، واحتلت غالبية الدول الإفريقية عن طريق الغزو إلى تنحية الرؤساء الإفريقيين الحاكمين ونفيهم، ولكن هذا الإجراء كان فاشلاً ومثيراً للسخط وأدى إلى تفكك المجتمعات، واكتشف الاستعماريون

أنه يستحيل قيادة الأهالي بدون قيادة إقليمية، ولا توجد قيادة إقليمية بدون رؤساء محليين يكونون بمثابة الرابطة بين السلطة الاستعمارية والسكان، وأن استخدام المؤسسات القائمة يعد أفضل طريقة للإدارة الاستعمارية وهي التي تساعد المقيم الاستعماري على مباشرة عمله، ورأت ان الإدارة غير المباشرة هي الأفضل وهي التي تتمثل في عدم التدخلات في النزاعات التي تنجم بين الأفارقة والإبقاء على مجال ملائم يستطيعون معه أن يقيموا توازنًا بين ما يرغبون تطبيقه وبين الواقع المحلي القائم فابتدعوا نظرية الإدارة غير المباشرة وهي ان يترك للرؤساء الأفارقة مسئولياتهم السابقة وكذلك وظائفهم وامتيازاتهم بحيث يتسنى لهم أن يظلوا في أعين السكان المحليين الحكام الشرعيين.

ولكن الممارسة العملية كانت تختلف تمامًا عن المبدأ، والواقع أن الرئيس الأهلى المحلى لم يكن أكثر من مجرد أداة، كان عنصرًا مساعدًا فقط وبالتالي ضعفت وتقلصت مهامه وسلطاته التقليدية، وفشل في إجراء التكيف المطلوب بين الأهالى والمستعمرين.

ملحوظة ختامية: إننا عندما نتحدث عن التكالب على إفريقيا نقصد به الانقسام للأراضى الإفريقية وللسيادة الإفريقية، ونسى أن هناك جانبًا آخر لهذا التكالب على الموارد الإفريقية، فقد كان الماس والذهب من بين هذه الموارد ولكن أكثرها قيمة كانت القوة العاملة الإفريقية التى تكالبت السلطات الاستعمارية بحماس للحصول عليها، وكان استعمار إفريقيا يطرح على الغرب بديلًا أكثر ربحية له وأقل تكلفة وهو أنه بدلًا من استرقاق الافارقة ونقلهم عبر الأطلنطى فليسترقوا فى أرضهم ويُسَخروا للعمل فى إنتاج ثروات إفريقيا لصالح الغرب.

وكما هبت المقاومة لمواجهة التكالب على الأرض والسيادة؛ هبت كذلك لمواجهة التكالب على الأيدى العاملة، وكانت أشكال الفرار من مناطق العمل والإضرابات ورفض العمل فى باطن الأرض (فى المناجم) والشغب فى معسكرات العمل والإقامة هو ما اتخذته لدرء بطش الاستعمار. وقد اكتسبت المقاومة عمقًا جديدًا من خلال المقاومة الاقتصادية ومواجهة العدوان الاقتصادى الأوروبى.

على أن الأثر الذى لا يُمحى من نفوس الإفريقيين والمرتب على الصدمة الأوروبية هو فقدان السيادة، وما إن يفقد شعب سيادته ويخضع لثقافة أخرى حتى يفقد اعترافه لنفسه

والقدرة على التصرف المستقل وهى الضامن الوحيد للإسهام فى صنع التاريخ إسهامًا فعليًا وواعيًا. وهذا ما حدث بالفعل فقد فقدت الدول الإفريقية سلطتها واستقلالها ومعناها بين عشية وضحاها.

إن الدارس لتاريخ إفريقيا ليتعجب كيف استطاع أهل إفريقيا أن يحملوا هذا العبء الاستعماري كله وأن يظلوا على قيد الحياة يكافحون.. لذلك ليس من العجيب فى إفريقيا أن شعبها قد استعمر ولكن العجيب أنه موجود وأنه باق على اصراره أن يتصر على مستعمره.

